

جامعة الجزائر -2-

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

## وباء الطاعون "الموت الأسود" بأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

تخصص: أوروبا في العصور الوسطى

إشراف الأستاذ:

د. عبد العزيز بوكنة

إعداد الطالبة:

فاطمة الزهراء حتحات

السنة الجامعية:

1435 - 1436 هـ / 2014 - 2015 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الإهداء

إلى أمي وأبي وأخوتي

إلى أحبائي وأساتذتي

إلى كل الطيبين والمخلصين

## أهم الاختصارات

Deoxyribonucleic acid: (DNA)

Ancient DNA : (aDNA)

Rattus rattus : (R. rattus)

Xenopsylla cheopis: (X. cheopis)

Yersina Pestis : (Yersina P.)

Proceedings of the National Academy of Sciences : (P.N.A.S.)

Severe Acute Respiratory Syndrome: (S.A.R.S.)

# مقدمة

شهدت فترة العصور الوسطى المتأخرة والتي تمتد من القرن الرابع عشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين ولادة عسيرة تمخض عنها انبلاج عصر جديد، عُرف بعصر النهضة الأوروبية في نهاية القرن الخامس عشر، وتمثلت ظروف هذا العُسر في الأزمات والنكبات التي حلت بأوروبا، بالأخص في القرن الرابع عشر الميلادي والذي اصطلح عليه المؤرخون بعصر النكبات (The Age of disaster). عصر ركدت فيه التجارة و تجمدت روافدها بتأثير تقلبات المناخ وعدم انتظام الفصول، فأثت الفيضانات والسيول على الحقول وأتلفت المحاصيل الزراعية، كما تسببت موجات البرد والصقيع في تجريد المنافذ التجارية البحرية، وتبعاً لذلك تزعزع الاقتصاد الأوروبي حيث قل الانتاج الزراعي وارتفعت الأسعار. ومما أزم الوضع أكثر تصاعد الصراعات والحروب بين الممالك البارزة في ذلك الحين كإنجلترا وفرنسا، إذ دخلتا في صراع مسلح دام حوالي مائة عام، وتوسعت دائرة هذا النزاع بانضمام الحلفاء لكل منهما، وقد كلفت هذه الحروب الطرفين مبالغ باهظة، وسعيًا منها لتغطية نفقاتها العسكرية زادت من فرض الضرائب على رعاياها و أثقلت كاهلهم بها، فكانت الشرارة التي أشعلت فتيل الثورات الشعبية ضد السلطة في مناطق عدة من أراضيها، كانتفاضة الفلاحين (Jacquerie) بفرنسا وثورة الفلاحين الكبرى بإنجلترا وغيرها، لتزيد بذلك معاناة الأهالي وتُعمق الهوة بينهم وبين حكامهم، ناهيك عن التنافس في الحوض البحر المتوسط بين القوى التجارية الأوروبية الكبرى والذي أفضى في مرات عدة إلى الاقتتال.

وفي خضم هذا الوضع المضطرب تفاقمَت الأوضاع الداخلية بأوروبا فانعدم الأمن وانتشرت العصابات وقُطع الطرق وولى عصر الازدهار الذي عاشته أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي . ثم إن الكنيسة راعية العالم المسيحي، التي تبعث السكينة والهدوء في القلوب، والتي تُنادي بالسلام وتنبذ الحروب، وتسعى لضمان وحدة العالم المسيحي الغربي، لم تُحرك ساكناً لفض هذه النزاعات بسبب رضوخها لسيطرة الملوك، ككنيسة فرنسا التي وقعت تحت سلطة الملك الفرنسي فيليب السادس.

كما أن الكنيسة هي الأخرى باتت تعاني من الانشقاقات والمؤامرات داخل مؤسساتها، فأُسفرت عن وقوع شرخ كبير في كنيسة الغرب الأوروبي، أضحى وسم عار في تاريخها ألا وهو الإنشقاق الديني الكبير 1378-1417م الذي شقها إلى زعامتين روحيتين، واحدة تقبع في الأسر بمدينة أفنيون بفرنسا والزعامة الثانية احتفظت بمقرها الأصلي بروما.

وبهذا حامت سحابة سوداء على أوروبا الغربية أمطرتها بوابل من الأزمات السياسية، الدينية، الاقتصادية والاجتماعية، كان لها الأثر البالغ في زعزعة استقرارها، فعمت المجاعات والأوبئة التي عصفت بالفرد الأوروبي وكادت تمحيه من الوجود وخاصة الوباء الأسود أو الطاعون الذي أتى على ثلث سكان أوروبا .

فرياح الوباء الأسود هبت من المشرق عبر البحر الأسود ودفعت به إلى الغرب الأوروبي على متن قارب لتجار إيطاليين فروا من جحافل الجيش المغولي الذي ضرب حصارا على محميتهم التجارية بالبحر الأسود ، "وحملوا معهم المرض في عظامهم" على حد قول ميشال دابيزا في حوليته:  
(Da Pizza Michele,Chronicle) .

فما هي طبيعة هذا الوباء الذي حير العالم برمته وأوروبا بصفة خاصة، وما هي انعكاساته على المدى القريب والبعيد وهل تمكن أطباء القرن الرابع عشر من الحد من تفشيته أم وقفوا عاجزين أمام لهيبه الحارق وأعلنوا استسلامهم للموت الأسود ؟.

ولانجاز هذه الدراسة حول وباء الطاعون بأوروبا اللاتينية، اتبعت خطة تتألف من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، حيث تناولت في الفصل الأول المعنون " لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر" كإطار عام لموضوع الدراسة و سلطت الضوء على أهم الأحداث التي تشكل في حد ذاتها أزمات ونكبات غيرت مجرى المجتمع الأوروبي وطبعت حياته بطابعها الخاص .

و هذه الأوضاع تعطينا أفكارا مسبقة تغنينا عن الشرح مرارا في الفصول اللاحقة ، ثم إن هذا الفصل ضروري لأن النكبات التي لحقت بأوروبا استمرت إلى حين اجتياح وباء الطاعون، مما اضطر الملوك في إحدى مراحل حرب المائة عام إلى عقد هدنة بسبب ما خلفه من وفيات تُضاف إلى قتلى الحرب. كما أنه كان ولا بد من التطرق إلى الأزمات التي كانت تنخر جسد الكنيسة حتى أنها عجزت عن احتواء مفعولها فجاء الوباء ليبيث سمه ويقضي على هذا الجسد المتهرئ ويغطيه بردائه الأسود .

كما كان للمجاعات التي حدثت في القرن الرابع عشر وأفتكها تلك التي حدثت ما بين عامي 1315 و 1322م أثر في إضعاف وإنهاك أجساد الأفراد ، وبقدوم الوباء لم يعد لها من القوة والمناعة ما يعيلها عليه و يقيها شره ،ناهيك عن الأوضاع الاجتماعية الصعبة الناجمة عن غلاء المعيشة ،كلها أثرت سلبا على المجتمع عند تفشي الوباء فلم يتمكن الفرد الميسور من تحمل نفقات الحميات الغذائية التي وصفها الأطباء للاحتراز من وباء الطاعون.

ثم أخيراً كان ولا بد من الكشف عن الظروف العامة السائدة في أوروبا خاصة تلك المتعلقة بالمناخ، لأنّ جلّ النظريات أعزت الوباء إلى تغيرات الطبيعة التي فسد بسببها الهواء أو ما يُعرف بنظرية الأبخرة الفاسدة المسماة: الميازما (Miasma) .

أما في الفصل الثاني تطرقت إلى التعريف بوباء الطاعون بغية توضيح ماهية هذا الوباء الذي روع الشرق والغرب على حد سواء ، فشخصت أعراضه وأوردت أنواعه وذكرت الأماكن التي قدم منها وكذا كيفية انتقاله إلى أوروبا وانتشاره بربوعها .

أما في الفصل الثالث، تحدثت فيه عن انعكاسات الوباء المختلفة فسلطت الضوء على التأثيرات التي أحدثتها على الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والدينية وحتى الثقافية، الفنية والأدبية .

في حين خصصت الفصل الرابع لدراسة أهم التدابير الوقائية المتخذة لمواجهة الطاعون بأوروبا خلال القرن الرابع عشر، وأشارت إلى أهم المقالات الطبية التي كُتبت في هذا الشأن وقتذاك وعلى رأسها ما جادت به كلية الطب بباريس، وسلطت الضوء أيضاً على ما أثمرته جهود المسلمين في هذا الموضوع خاصة أطباء الأندلس كابن خاتمة الأنصاري وابن الخطيب.

ثم جاءت الخاتمة التي استعرضت فيها أهم النتائج المتوصل إليها متبوعة بالملاحق والفهارس وقائمة المصادر و المراجع.

ولعل الصعوبات التي اعترضتني هي التكرار الذي شاب أغلب الدراسات الغربية، فهي تنسخ عن بعضها ولا تضيف من الجديد إلا الشيء القليل، وهو ما حاولت تفاديه قدر المستطاع وانتقيت ما يُفيد البحث و رجعت في أغلب مراحله إلى المصادر، مع أن هذه الأخيرة يصعب الحصول عليها كلها، مما دفعني في معظم الأحيان إلى الاعتماد على ما تم تحقيقه ونشره في كتب المؤرخين المتخصصين والمهتمين بموضوع وباء الطاعون أمثال جون أبارث (John Aberth) وهوركس روز ميري (Horrox Rosemary)

### عرض لأهم المصادر و المراجع المعتمدة:

أسال موضوع وباء الطاعون أو كما جرت تسميته في المراجع الأجنبية "الموت الأسود" (The Black death) حبراً كثيراً بأوروبا، في حين تقل الدراسات عنه بالعالم العربي، لذلك فإن طبيعة الموضوع كونه أوروبي وكذا ندرة الكتابات المترجمة والدراسات في هذا الشأن باللغة العربية، استلزمت مني

الاعتماد بشكل كبير على المراجع الأجنبية وبالأخص الانجليزية، لأن الإنجليز رائدون في ترجمة أمهات الكتب، وقد قسمت المصادر والمراجع المعتمدة كالآتي:

#### أ- المصادر الأجنبية

من المصادر الأجنبية التي اعتمدت عليها كتاب الطبيب الفرنسي الجراح جي دو شولياك (Guy de Chauliac) وعنوانه الجراحة العظمى (Grande Chirurgie) وهو مصدر أساسي لهذه الدراسة، لأن شولياك عاصر الوباء وكان واحدا من أهم الأطباء في تلك الفترة، لازم ثلاثة باباوات كلمنت السادس (1342-1352 م) (Clement VI)، اينوسنت السادس (Innocent VI) (1352-1362 م) و أوربان الخامس (Urban V) (1362-1370 م)، كتب حوالي سنة 1363 م مُصنفه المذكور في الطب والجراحة، وهو الكتاب الذي استعنت به في هذا البحث، وتكمن أهميته في أن شولياك عاصر الموجة الأولى من الوباء عام 1348 م والثانية أيضا عام 1360 م، كما أنه أصيب بالطاعون وشُفي منه بعد أن باشر بالعلاج بالمستحضر الدوائي الذي صنعه، ورغم ذلك لم يعز شفاؤه إلى دوائه وإنما نسب ذلك إلى قدرة الإله، فبحكم موقعه ومخالطته للمصابين وكذا بحكم إصابته بالعدوى قدم لنا هذا الطبيب وصفا دقيقا عن أعراض الوباء، أما بخصوص وصفات العلاج ففي الغالب لم يخرج عما كتبه الطبيبان أبوقراط و ابن سينا، وباعتباره عالم طبيعيات قدم تفاسير عن سبب حدوث الوباء لا تتعدى الظواهر الفلكية.

كما اعتمدت أيضا على الوثائق المنشورة في كتاب الأستاذ أبارث وهي قيمة للغاية لكونها مصادر أساسية، تناولت الوباء بالدراسة والشرح وعرض حال الناس في تلك الفترة، وأخض بالذكر تلك المتعلقة بمقالات الأطباء المعاصرين للوباء ومنها:

-Jacme d'Agramont, Regiment de preservació de pestilencia,  
(Lerida, 24 April 1348)

تعتبر الحمية الوقائية ضد الوباء (Regiment de preservació de pestilencia) من أولى المقالات الطبية التي جاءت كرد فعل إثر وباء 1348 م، كتبها الطبيب الكتالوني داجرامونت (Jacme d'Agramont) والذي كان محاضرا بالمعهد الطبي لمدينة لاردة (Lerida) بمملكة آراغون (Aragon)، وقد قدم من خلالها نصائح وقائية لمكافحة الوباء. أما المقالة الثانية فهي :

-Gentile da Foligno, Consilium contra pestilentiam (perugia, before 18 June 1348)

حيث يعتبر جاننل دا فوليجانو (Gentil Da Foligano) من أشهر الأطباء في تلك الفترة، وقد تطرق في مقالته المسماة إرشادات ضد الوباء (Consilia Contra Pestilentiam) إلى أصول الوباء وقدم نصائح استمدها من خبرته في التعامل مع ضحايا الطاعون، وقد كان دافوليجانو محاضرا بكلية الطب ب:بيروجيا (Perugia) عندما ضرب الوباء هذه المدينة الإيطالية، وقد تطرق في مقالته إلى الأسباب المؤدية إلى الوباء و النظام الوقائي والعلاجي للوباء. أما المقالة الثالثة:

Alfonso de Córdoba, Epistola et regimen de pestilentia (Montpellier, c1348-1349).

حيث تفحص ألفونسو القرطبي (Alfonso of Cordoba) من خلال دراسته المكثفة طبيعة وأسباب الوباء الذي بدأ عام 1348م، ودون ذلك في مقالته المسماة: رسالة في التدابير الصحية عن الوباء (Epistola et regimen de pestilentia)

كما نشر وترجم الأستاذ الباحث آبارث بعض النصوص المقتطفة من مصادر عاصرت الوباء وبالتالي تحظى بقيمة نفيسة للغاية تُثري هذه الدراسة، ومن هذه المصادر **حوليات غابريال دي موسي، و ميشال دايابازا ، و أجنولو دي تورا**، وقد اعتمدت عليها بشكل كبير في الفصل الثاني لأنها تتحدث بالتفصيل عن أعراض وباء الطاعون وتحكي قصة انتقاله من المشرق إلى أوروبا على متن قارب لتجار إيطاليين، وبالتالي كان من الضروري الاعتماد عليها والاستشهاد بما رواه معاصرو الوباء، كما اعتمدت على هذه النصوص بشكل كبير في الفصل الثالث والرابع خاصة هذا الأخير الذي يقوم أساسا على عرض ماجاء به أطباء القرن الرابع عشر من مقالات تصف التدابير الوقائية والعلاجية .

## ب-المصادر العربية:

استعنت بالمصادر العربية التي أرخت للوباء بالمشرق واستفدت من الوصف الذي قدمته بخصوص أعراض الطاعون وكذا تحديد المناطق التي قدم منها ،وقد اعتمدت عليها بشكل كبير في الفصل الثاني للتعريف بماهية الطاعون وأخص بالذكر منها :

ابن الوردي زين الدين عمر، تنمة المختصر في أخبار البشر، الجزء الثاني: هو أديب ومؤرخ عايش الحدث وكتب عن الطاعون الذي اجتاحت مدينته حلب و بيّن طرق انتشار هذا الوباء فأفادنا في تحديد مكان انطلاق وباء الطاعون، وهو من آسيا وبالضبط من الصين، وقد توفي ابن الوردي بالطاعون عام (749هـ/1348م).

ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء العاشر وكذا كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، حيث استعملت الجزء الرابع منه ،وهي مصادر أساسية تحدثت بإطناب عن وباء الطاعون الذي ضرب المشرق قبل أوروبا ،وقد أجريت مقارنة بينها وبين المراجع الأجنبية وتبين أن المعلومات مماثلة، نفس الوصف ،لأن الوباء الذي ضرب هذه المناطق هو نفسه الذي انتقل إلى أوروبا .

كما اعتمدت أيضا على كتاب ابن سينا "القانون في الطب" الذي يعتبر مرجعا أساسا لكل باحث في مجال الطب، وقد تجلّى أن أغلب المصادر المعاصرة للوباء استمدت القسط الأوفر من مادتها عن ما كتبه ابن سينا عن الطاعون وبالأخص في طرق العلاج.

أما أهم مصدر عربي حفظ لنا توضيحات قيمة ووافية عن هذا المرض هو مخطوط ابن خاتمة الأنصاري "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"، وهو مصدر مهم لما يحتويه من استنتاجات قيمة عن الطاعون ،لكن استحالة الحصول على هذا المخطوط النفيس حثمت علي العودة إلى ما نشره الأستاذ التونسي حسين بوجرة في دراسته بعنوان " الطاعون وبدع الطاعون:الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير(1350-1800)"،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،2011. كما اعتمدت أيضا على النسخة التي نشرها محمد العربي الخطابي في كتابه: الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية.

أما فيما يخص المصادر المعربة، فقد رجعت إلى كتاب الديكامرون (Decameron) للكاتب الإيطالي جيوفاني بوكاتشو (Giovanni Boccaccio)، إذ يعتبر مصدرا هاما لأن بوكاتشو نقل من خلال هذا الكتاب تفاصيل عن هذا الوباء الذي حل بمدينة فلورنسا، فزودنا بأدق التفاصيل بداية من قدومه ،أعراضه ،انعكاساته على المجتمع الفلورنسي وكذا الجهود المبذولة لمواجهة ودفعه.

## II المراجع

### أ- المراجع الأجنبية

بالنسبة للمراجع الأجنبية فقد اعتمدت بشكل كبير على كتاب لجون آبارث (Aberth John) حيث يعتبر هذا الأخير من أهم المؤرخين المعاصرين المنكبين على دراسة وباء الطاعون في القرن الرابع عشر والمتخصص في دراسات العصور الوسطى و كتابه الذي رجعت له جاء بعنوان: The Black Death, The Great Mortality of 1348-1350, A Brief History with documents. وهو مفيد جدا وتكمن قيمته في أنه نشر أهم المصادر التي تناولت وباء الطاعون في تلك الفترة، وبفضله استطعت الإطلاع على المصادر والوثائق التي لم أتمكن من الوصول إليها، كما اعتمدت على كتابات الطبيب هيكر (Hecker) وبالأخص:

- The Black Death in the Fourteenth century, translated by Babington , London, 1833.

### ب- المراجع العربية:

بعكس المصادر العربية التي أسالت حبرا كثيرا على الطاعون الجارف والذي مس المشرق بشكل عام قبل أوروبا، فإن المراجع العربية تكاد تنعدم في هذا التخصص وتعذر علي العثور على كتاب يُفرد الموضوع بالدراسة، باستثناء دراسة الأستاذ التونسي حسين بوجرة والتي هي عبارة عن أطروحة دكتوراة مطبوعة من قبل دار النشر دراسات الوحدة العربية عنوانها: الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير (1350-1800)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، والتي تعتبر أول دراسة مغربية و عربية تناولت الطاعون بالبحث والفحص، تمحورت خاصة حول منطقة المغرب العربي. وفي ثنايا الكتاب أشار إلى وباء الطاعون بأوروبا، ولعل ما أفادني في دراسته هو نشره لما جاء في مخطوط ابن خاتمة فكانت فرصة لي للإطلاع على هذا المخطوط الثمين.

وفي الأخير أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المحترم طيّب السريرة "عبد العزيز بوكنة" على تشجيعه لي لاتمام هذا البحث المتواضع بعد انقطاعي عنه لفترة، فلا تحبو العزائم عندما تعلقو بها الهمم ، كما أشكر كل من قدم لي يد العون من قريب أو بعيد ولو بدعوة صادقة.

# الفصل الأول:

لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال

القرن الرابع عشر ميلادي

I - الأوضاع السياسية لأوروبا اللاتينية في القرن الرابع عشر ميلادي

1- في فرنسا وإنجلترا

2- حرب المائة عام

3- الأوضاع السياسية بإيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية:

أ- إيطاليا

ب- شبه الجزيرة الإيبيرية

II- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

1- المجاعة الكبرى 1315-1322م

2- الثورات الشعبية: أ- الفلاندرز

ب - ثورة الفلاحين (Jacquerie) بفرنسا

ج - ثورة الشيومبي (ciompi) بفلورنسا

د- حركة التوشين (Tuchins)

هـ - ثورة الفلاحين بإنجلترا

III- الأوضاع الدينية

1- النزاع بين الملك فيليب الوسيم والبابا بونيفاس الثامن

2- حادثة أناني (Anagni)

3- بابوية أفنيون

4- العودة إلى روما والانشقاق الديني الكبير

5- الانشقاق الديني الكبير

6- مجمع كونستانس ونهاية الإنشقاق الديني

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

شهدت الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلاديين انتعاشا في النشاط التجاري وارتفاعا في حجم المساحات والأراضي المزروعة،<sup>1</sup> فحالة المناخ كانت مناسبة لتحقيق مثل هذه النهضة الاقتصادية، ساعدها أيضا تطور وسائل الإنتاج.<sup>2</sup>

أما بالنسبة للمدن فقد تواجدت بكثافة أكثر في المناطق الجنوبية لحوض البحر المتوسط كإيطاليا، كتالونيا، أكيثانيا وبروفانس وكذلك بعض المناطق الشمالية وشمال غرب أوروبا كالفلاندرز، أراضي الراين، حوض أنهار كل من السين، الرون واللوار والأراضي الساحلية المحاذية للمحيط الأطلسي. كما تم إنشاء الشبكات الحضرية في أغلب المناطق وسجل النمو الاقتصادي، الديموغرافي والثقافي نموا واسعا<sup>3</sup>، ومن الناحية سياسية صار للملوك قوة أكثر، أما دينيا فقد أظهرت البابوية قوتها كقائد روحي للغرب المسيحي، كما باشر رجالها ببعض الإصلاحات.<sup>4</sup>

إلا أنَّ الأوضاع تغيرت مع بداية القرن الرابع عشر ودخلت أوروبا الغربية فيما يُعرف بعصر النكبات (Age of disaster)<sup>5</sup>، حيث تراجع الإنتاج وإنجر عنه انتشار المجاعات والأوبئة، ناهيك عن الحروب المدمرة وانخفاض محسوس في نسبة السكان ونزوحهم من القرى<sup>6</sup>، فعانت المدن جراء ذلك صعوبات في التزود بالطعام بسبب ضعف المحاصيل والتموين وكذا بسبب الضرائب المفروضة على المزارعين، مما أدى إلى تضخم الأسعار بشكل مهول وهذا بدوره أهلك الناس وجعلهم عرضة للمجاعات والأوبئة<sup>7</sup>، علاوة على هذا شهد القرن الرابع عشر قيام بعض الثورات الشعبية وكذا تزعزع سلطة البابوية وبروز حركات مناوئة لها<sup>8</sup>. فكان هذا الانقلاب في الموازين إشارة إلى أن الاستقرار الذي شهده القرن السابق قد ولى وهذا على كامل المستويات السياسية، الدينية، الاجتماعية والاقتصادية.

<sup>1</sup> - أنظر: Holmes (George), Europe Hierarchy and Revolt ,1320-1450, Second Edition, Blackwell Publishers ,Oxford – United Kingdom , 2000, P.77.

<sup>2</sup> - أنظر: Canning (Joseph) , and others , Power ,Violence and mass death in Pre-modern times Cornwall- Great Britain,2004,P.09.

<sup>3</sup> - أنظر: Jones (Michael),The New Cambridge Medieval History, Vol.VI 1300-1415, Cambridge University Press,UK 2008, P.102.

<sup>4</sup> - أنظر: Perry (Marvin) and others,Western Civilization : Ideas ,Politics and Society, Ninth Ed.,Boston- U.S.A.,2008,P.274.

<sup>5</sup> - أنظر: Holmes (G.), op.cit.,P.77.

<sup>6</sup> - أنظر: Perry (M.), op.cit.,p.274.

<sup>7</sup> - أنظر: Jones (M.),The New Cambridge Medieval History, Vol.VI,P.107.

<sup>8</sup> - أنظر: Holmes (G.) , op.cit.,P.78.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

### I-الأوضاع السياسية لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر:

لم تعرف أوروبا في القرن الرابع عشر استقراراً في الجانب السياسي، وذلك لتنافس الممالك التي ظهرت على الساحة بقوة أكبر، فسعت كل واحدة منها إلى توسيع نفوذها وتعزيز قوتها، الأمر الذي أدخلها في حروب دائمة من أجل بلوغ السيادة المنشودة.

#### 1- في فرنسا وانجلترا:

تجلت قوة الملكية الفرنسية في عهد الملك فيليب الرابع الوسيم (Philip the Fair) (1285-1314م) إذ تحدى كل الصعوبات من أجل المحافظة على مقاطعاته من جهة وتوسيع حدود مملكته من جهة أخرى، ووصل بطموحه إلى درجة تحدي تقاليد العصور الوسطى التي تُبجل الكنيسة، ووقف في وجه البابا الذي عارض رغباته، كما تمكن من بسط سلطته على البابوية التي عرفت في القرن الرابع عشر انكساراً على يد ملوك فرنسا وتجاهلاً من طرف ملوك إنجلترا.

ففي عهد الملك فيليب الوسيم لاحت في الأفق معالم جديدة للحكومة ممثلة في تأسيس المجالس العامة (Les Etats Généraux) وتنظيم البرلمان الذي صار مقره بمدينة باريس، كما قام بإنشاء جامعة أورليان (Orléans) عام 1312م من أجل اجتماع المشرعين بها، فيما اختصت جامعة باريس في إعداد رجال اللاهوت فقط (Théologiens)، كما قام بعقوب العبيد وفرض الضرائب على كل شرائح المجتمع وأنشأ لذلك غرفة بالبرلمان تُعرف باسم غرفة الحسابات (Chambre des comptes)<sup>1</sup>.

وسعى منه للحصول على مزيد من التعاون من رعاياه، اجتهد الملك الفرنسي في تحسين علاقته بهم من خلال تلك المجالس التي أنشأها والتي كانت تجمع كافة الممثلين لرجال الدين الفرنسيين، ونواب نبلاء المقاطعات إلى جانب نواب المدن الكبرى بناءً على دعوة من الملك، وكان وزراء الملك يعرضون عليهم تفاصيل سياساته إبان الأزمات مع الشرح الوافي لها<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: Duruy(Victor), histoire du Moyen Age depuis la chute de l'Empire d'Occident

Jusqu'au milieu du XV<sup>e</sup> siècle, 14<sup>em</sup> Edition, Librairie Hachette, Paris, 1896, p.p.413-414.

<sup>2</sup> - موريس كين، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، الطبعة 02، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2000، ص. 187.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

أما بالنسبة لإنجلترا فقد قطعت شوطا كبيرا في نمو السلطة وعرفت تطورا ملحوظا في الانتقال من نظام الإقطاع<sup>1</sup> إلى الدولة الحديثة، فشهدت خلال القرن الرابع عشر تحجيما لسلطة حاكم المقاطعة المعروف باسم الشريف (Sheriff) وهو أشبه بعمدة البلدة، إلى جانب ذلك منح الملك امتيازات محددة لبعض المدن، كما استحدث موظفين ملكيين جدد وعلى رأسهم "قضاة سلام الملك"، الذين لم يلبثوا أن شكلوا هيئة حكومية دائمة تملك القرار التنفيذي في أواخر القرن الرابع عشر، ورغم أن هؤلاء الموظفين كانوا يتلقون رواتبهم من الملك، وهم ملائكة للأراضي إلا أن الحوار بين حاكم المقاطعة والرعية لم ينقطع<sup>2</sup>، فكانت هناك اجتماعات بين البارونات والعامة تُسمى البرلمان، وكان الأعضاء الذين يحضرونها من الطبقات الحاكمة بالمدن، أما الذين يحضرون من المقاطعات فكانوا من الفرسان وملاك الأرض المحليين، وقد كان الملك يدعو هؤلاء الممثلين إلى بلاطه لإطلاعهم على ما يفعله، فخلق ذلك انطبعا بأنه يستشير رعاياه لاسيما إذا تعلق الأمر بفرض الضرائب، وحدث أن شهد الملك ادوارد الأول متاعب مع رعاياه لأول مرة بسبب عبء حربه مع فرنسا واسكتلندا وقد أُجبر على تقديم تنازلات مقابل مساعدتهم، منها الالتزام هو أو ورثته بعدم فرض ضرائب اضافية دون الموافقة الرسمية لعموم المملكة<sup>3</sup>.

لكن ينبغي التنويه إلى أن الأمراء أو الملوك حرصوا على حصر هذه الاجتماعات والمداولات في شخوصهم والصفوة الموسرة في المجتمع، للدعاية لصاحب التاج، وأيضا كهيئات استشارية في القضايا العسكرية والأعباء المالية، وفي واقع الأمر أن الأسياد الذين كانوا من الناحية النظرية يمثلون في هذه الهيئات أتباعهم، والأساقفة الذين من المفروض أنهم يمثلون جماعة المؤمنين من الشعب، والأعضاء

---

<sup>1</sup> -الإقطاع (Feudalism): يمنح الملك قطع أراضي واسعة يُطلق عليها اقطاعات (fiefs) لمجموعة من خاصة الناس، كالبارونات ورؤساء الأساقفة وفي المقابل يقومون بتزويد الجيش الملكي بالمحاربين القاطنين بأراضيهم، وصار ملاك الأراضي سادة عليها يعيشون في ضياع كبيرة عادة ما تحوي قلعة، كنيسة، قرية وحقول والفلاحين أو العبيد الذين يعملون بهذه الضياع هم من أفقر الناس وكان عليهم خدمة السيد ودفع ضرائب له. أنظر:

Gerlings (Rebecca) and Woolf (Alex), Ancient and Medieval History, Arcturus Publishing Limited, London, 2008, p20.

<sup>2</sup> -رفايال بينادو سانتايا، أصول الدولة الحديثة، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007، ص.ص. 67-68.

<sup>3</sup> -موريس كين، المرجع السابق، ص. 181.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

المختارين من المدن على أنهم يمثلون اخوانهم من أهل الحضر، إلا أنهم في الحقيقة لم يضعوا أي اعتبار للغالبية العظمى من أبناء الشعب من الفقراء والكادحين، وإنما استبعدوا تماما من الحياة السياسية<sup>1</sup>.

فالمملكة الفرنسية صاحبة السلطة المطلقة مثلا تناست هذه الطبقة ولم تُعقد الهيئة العامة في عهد فيليب الوسيم، ولا حتى في عهد فيليب السادس (1328-1350م) الذي لم يستشر أحدا حول ضرب السكة أو حول فرضه للضرائب، ولم يكن لها أي تأثير على الحكومة العامة للمملكة، بل تجتمع فقط عند الحاجة إلى المال<sup>2</sup>.

وأما بخصوص طموح ملك فرنسا فيليب الرابع فكان كبيرا حتى أنه اشتبك في نزاع مع البابوية وسعى لتكوين امبراطورية، فخاض حربا ضد ملك النجلترا فيما بين سنتي 1294 و 1303م كما خاض حربا أخرى ضد كونت الفلاندرز (Flanders)<sup>3</sup>، وحاول الحفاظ على أراضييه ذلك أن المقاطعات الكبرى مثل بريتاني، الفلاندرز، برغندي، نورماندي ولانجدوك تندرج سويا تحت لواء مملكة فرنسا، وكانت متميزة فيما بينها من الناحية التاريخية والجغرافية لأنها كانت شبه مستقلة تحت حكم الدوقات والكونتات، وقد اتسم تراثها الثقافي بالفردية كما كان لكل منها بناؤها الاجتماعي وقانونها العرفي المتميز وحتى عندما كانت تفقد هذه المقاطعات حكامها وتخضع للإدارة الملكية مباشرة فإنها كانت تُحافظ على شخصيتها المنفصلة<sup>4</sup>.

وعلى عكس الملكية الانجليزية التي وقفت جنبا الى جنب مع النبلاء والناس، تحالفت الملكية الفرنسية مع العامة ضد النبلاء الإقطاعيين، ونجحت في فرض سلطتها واحتفت بانتصارها على الإقطاعيين، فتنامت سلطة الملك بجزائه لكل أراضيهم، وعمد الملك الفرنسي إلى منح الإقطاعيات المعروفة باسم (Les Apanages) لبعض الأمراء الأقارب الذين يمثلون سلطة الملك في مقاطعاتهم.

<sup>1</sup> - رفايال بينادو سانتايا، المرجع السابق، ص. 72.

<sup>2</sup> - أنظر: Duruy(V.), op.cit., p.p.469-470.

<sup>3</sup> - هي مقاطعة شمال غرب أوروبا، تقريبا هي بلجيكا حاليا، كانت واحدة أغنى الإقطاعيات التابعة للتاج الفرنسي وكذا سوقا رائجة للصوف الإنجليزي، كما كانت الفلاندرز من أكثر المناطق تحضرا بأوروبا في العصور الوسطى تضم مدن كبيرة مثل بروج

غانت، ييرس. للمزيد أنظر: Wagner (John), Encyclopedia of the Hundred Years War, Greenwood Press, London , 2006, P.126.

<sup>4</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص. 183، 187.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

وتختلف الاقطاعات التقليدية (Les fiefs) عن الاقطاعات الجديدة (les Apanages) كون هذه الأخيرة لا تُورث ملكيتها للنساء حالة انعدام وريث ذكر<sup>1</sup>.

إلا أن الأمور لم تبقى على هذا الحال ذلك أن فيليب الرابع لما توفي سنة 1314م ترك ثلاثة أبناء، أكبرهم سنا لويس العاشر (Louis X) توفي في 1316م فآل العرش إلى الأخ الثاني فيليب متخطيا أخته، بحجة أنه وفقا للقانون السالي<sup>2</sup> لا يحق للمرأة وراثة العرش، وعندها صار فيليب ملكا لفرنسا باسم فيليب الخامس (Philip V) وبعد وفاة هذا الأخير لم يترك ذكرا يرثه فاقتضى الأمر اعتماد القانون السالي ثانية ليؤول العرش إلى أخيه شارل الرابع (Charls IV)، الذي بوفاته سنة 1328م دون أي خليفة ذكر، أدخل فرنسا مرة أخرى في معضلة البحث عن وريث للعرش<sup>3</sup>.

وحينها طالب من انجلترا إدوارد الثالث (Edward III) بحقه في وراثة عرش فرنسا، باعتباره حفيدا للملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم من جهة أمه إيزابيل، وكان غريمه فيليب آل فالوا (Philip de Valois) الذي يساندته أغلب نبلاء فرنسا، يُحاج بأنه الوريث الشرعي لتاج فرنسا، بوصفه ابن أخ الملك المتوفى، ابن فيليب الثالث الجسور<sup>5</sup>.

ويذكر أن شارل الرابع، لما توفي ترك زوجته حاملا، ونظرا لشغور العرش انتخب نبلاء فرنسا فيليب فالوا كوصي على العرش في انتظار ما ستنجبه زوجة شارل الرابع، فإذا كان المولود أنثى سيؤول العرش إليه حتما، ولما رُزقت الملكة بفتاة آل العرش إلى الحفيد الذكر وتوج ملكا باسم فيليب السادس (Philip VI) تجسيدا للقانون السالي الذي يحرم المرأة من وراثة عرش فرنسا أو حتى توريثه

<sup>1</sup>- أنظر: Duruy(V.), op.cit., p.470-471.

<sup>2</sup>- تعود جذور القانون السالي (lex salica) إلى بداية القرن السادس ميلادي في السنوات 507-511م وهو خاص بمملكة الفرنجة وهو شاهد على عهد كلوفيس (Clovis)، وبخلاف النصوص التشريعية الجرمانية الأخرى يعتبر القانون السالي الأكثر كماً إذ يحتوي على ما يقارب ثمانمائة مادة. أنظر:

Rouche (Michel), Clovis histoire et mémoire Clovis et son temps, Presse de l'Université de Paris-Sorbonne, 1997, p.609.

<sup>3</sup>- أنظر: Canning( J.), op.cit.p.68-69.

<sup>4</sup>- إدوارد الثالث: أمه إيزابيل ابنة الملك الفرنسي فيليب الرابع وأبوه إدوارد الثاني ملك انجلترا، ولد عام 1317م، عين كدوق على أكيانيا في 1325م، توج كملك في 1 فيفري 1327 م وهو يبلغ من العمر أربع عشرة سنة، يُعد سابع ملوك الانجليز من أسرة بلانتاجني، ونظرا لصغر سنه كانت أمه هي الحاكمة فعليا، في 06 جوان 1329م أدى إدوارد يمين الولاء (كدوق لأكيانيا) لملك فرنسا فيليب السادس بعد حرمانه من وراثة عرش فرنسا، توفي في 12 جوان 1377م. أنظر:

Wagner (J.), op.cit., p.120,121,122.

<sup>5</sup>- فيليب كونتامين، حرب المائة عام، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007، ص.136.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

لأبنائها.<sup>1</sup> وفي عام 1329م، أدى إدوارد يمين الولاء للملك فيليب السادس وتخلّى عن المطالبة بالعرش إلى حين<sup>2</sup>، ذلك أن ملوك الإنجليز كانوا من وجهة النظر الإقطاعية، أتباعا لملوك فرنسا، كسادة يملكون إقطاعات شاسعة<sup>3</sup> بشمال غرب فرنسا، والتي تمتد من نورمادي إلى غاية دوقية أكييتانيا (Aquitaine) جنوبا<sup>4</sup>، وهذه الأخيرة آلت إلى هنري الثاني (Henry II) دوق أنجو إثر زواجه من إليانور وريثة دوقية أكييتانيا (Eleanor of Aquitaine)<sup>5</sup>، وفي عام 1256م كرسّت معاهدة باريس تبعية ملوك إنجلترا لفرنسا.<sup>6</sup> و اتضح بعد هذا أن أصل الخلاف يكمن في طبيعة العلاقة بين ملك إنجلترا كدوق لجاسكوني (Gascony)<sup>7</sup> وملك فرنسا كسيد أعلى لهذه الدوقية، إذ كان من الصعب على الملك الإنجليزي قبول التبعية لملك فرنسا وأن يصير فصلا يؤدي له فروض الطاعة شخصيا ويقدم الدعم

<sup>1</sup> - أنظر: Nicolle( David), campaign Creacy 1346, triumph of the longbow, Osprey publishing, Great Britain, 2002, p.07.

<sup>2</sup> - أنظر: Canning( J.), op.cit. p.68.

<sup>3</sup> - فيليب كونتامين، المرجع السابق، ص. 134.

<sup>4</sup> - أنظر: Allmand (Christopher), Society at war :The experience of England and France During the Hundred Year war, the Boydell Press, Woodbridge-U.K., 1998, p.07.

<sup>5</sup> - نشأت إليانور في بيئة مثقفة ، محاطة بالأدباء والشعراء في بلاط والدها وليم العاشر (William X) دوق أكييتانيا، توفي والدها في 1137 وهي في سن الخامسة عشر، وباعتبار أنه لم يكن لها أخ ذكر، ورثت دوقية أكييتانيا وصارت أيضا كونتيسة على بواتو (Poitou) أي أنها تربعت على مساحة واسعة من فرنسا لهذا فكر الملك الفرنسي لويس السادس (Louis VI) الذي كان وصيا عليها، تزويجها بابنه ووريثه لويس السابع (Louis VII) (1137-1180) وبعد زواجهما بقليل توفي لويس السادس، وصارت إليانور ملكة على فرنسا. فسخت زواجها من لويس عام 1152 م ،وبعدها تزوجت بهنري دوق أنجو ومؤسس أسرة بلانتاجني، وبهذا الزواج بسطت إنجلترا سيطرتها على أراضي واسعة من فرنسا. للمزيد أنظر:

Knight( Judson), Encyclopedia of Middle Ages Biographie, vol.01, Library of Congress, U.S.A., 2001, p.106, 107, 108.

<sup>6</sup> - أبرمت في سنة 1256م وبموجبها اعترف ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) بهنري الثالث (Henry III) كدوق على أكييتانيا، وفي المقابل أقر هنري بملكية لويس لكل من نورماندي، مان، أنجو، بوران وبواتو، فهذه المعاهدة كرسّت تبعية ملك إنجلترا لفرنسا بعد أداء هنري ليمين الولاء. أنظر:

Fraioli( Deborah), Joan of Arc and the Hundred Years War Greenwood Press, London, 2005, p.02.

<sup>7</sup> - جاسكوني: مقاطعة تقع جنوب دوقية أكييتانيا، يحدها من الجنوب جبال البيريني (Pyrénées) ومن الغرب المحيط الأطلسي، عاصمتها بوردو (Bordeaux)، في عام 1050م صارت من مكسيبات أكييتانيا التابعة للملك الفرنسي ثم دخلت أكييتانيا وجاسكوني في القرن الحادي عشر ضمن ممتلكات التاج الإنجليزي إثر زواج إليانور من هنري دوق أنجو الذي لقب بهنري الثاني لما اعتلى عرش إنجلترا. وفي أوائل القرن الثالث عشر فتحت أسرة آل كاييه (Capet) عدة مناطق باستثناء جاسكوني التي بقيت بيد أسرة بلانتاجني الإنجليزية، ونشبت حرب بين الطرفين عام 1290 و 1320 م لاسترجاع هذه الدوقية، ليعرف التوتر تصعيدا أكبر عام 1337 م أين انفجرت حرب المائة عام. أنظر: Wagner (John), Greenwood Press, Encyclopedia of the Hundred Years War London , 2006, p.137.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

العسكري لسيده<sup>1</sup>، وفي حالة امتناعه عن ذلك يصبح من حق السيد الإقطاعي أي ملك فرنسا معاملته معاملة التابع المارق، فيصادر دوقيته، وهذا ما حدث فعلا سنتي 1294، 1324 م و 1337 م<sup>2</sup>.

### 2- حرب المائة عام (1337-1453 م):

في عام 1337م قام فيليب السادس بمصادرة دوقية جاسكوني، فرد عليه إدوارد الثالث بإعلان الحرب، وصرّح أنه لا يحارب فقط دفاعا عن حقوقه بوصفه سيّدا لهذه الدوقية، وإنما من أجل مملكة فرنسا التي حُرِم من وراثتها عرشها بشكل غير قانوني<sup>3</sup>، وبهذا انتقلت المسألة من نزاع بين تابع إقطاعي وسيده إلى مواجهة عسكرية بين مملكتين دامت رحاها مائة عام وتُيِّف<sup>4</sup>.

ولم تنحصر حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا فقط، بل اتسعت دائرتها لتشمل أطرافا أخرى ذلك أن كلا الطرفين، راح يبحث عن حلفاء سواء بالطرق الدبلوماسية أو العسكرية، فاعتمدت فرنسا في أكثر من مرة على دعم مملكة قشتالة من خلال أسطولها البحري، وكذا على اسكتلندة<sup>5</sup>. فيما نجح الملك إدوارد في نيل تأييد منطقة الفلاندرز عن طريق المصاهرة، وكسب دعم مدنها عن طريق حظر تصدير الصوف الإنجليزي لها، والذي يقوم عليه اقتصادها<sup>6</sup>، كما حاول استمالة رعايا الملك الفرنسي، وقَدَّم لهم وعودا تماثل المطالب التي تقدم بها نبلاء المقاطعات الفرنسية المستأثرون إلى الملكين فيليب الرابع والخامس في وقت سابق، و تمكن من كسب دعم دوقية نورماندي التي كانت تتمسك على الدوام بالروح الانفصالية<sup>7</sup>.

### مجريات الحرب:

شهدت المرحلة الأولى من الحرب انتصار الإنجليز في كل من المعركة البحرية سلايس (Sluys) في 24 جوان 1340م وذلك بفضل مساعدة حلفائها، فألحقت أضرارا بليغة بالبحرية الفرنسية، ليقوم

<sup>1</sup> - أنظر: Holmes (G.), op.cit., p.15.

<sup>2</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص. 225.

<sup>3</sup> - نفس المرجع، ص. 226.

<sup>4</sup> - عرف القرن الرابع عشر أطول حرب بأوروبا، عُرفت بحرب المائة عام، وقد تم صك هذا التعبير في فرنسا منذ سنة 1825م، ليعبر

عن الصراع بين ملوك فرنسا من أسرة فالوا (Valois)، وبين ملوك إنجلترا من أسرة بلانتاجني (Plantagenet) وبعدها أسرة

لانكستر (Lancaster)، ما بين 1337-1453م. أنظر: فيليب كونتامين، المرجع السابق، ص. 134.

<sup>5</sup> - نفس المرجع، ص. 138.

<sup>6</sup> - أنظر: Canning (J.), op.cit., p.69.

<sup>7</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص. 227-228.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

بعدها الملك إدوارد بفرض حصار على مدينة تورناي (Tournai)، واحدة من أكبر المدن الشمالية التي أعلنت ولاءها للفرنسيين<sup>1</sup>، إلا أن الحصار لم ينجح وتم عقد هدنة بين الطرفين بمنطقة (Espléchin) التابعة لمدينة تورناي (Truce of Espléchin)<sup>2</sup>.

وبعد انقضاء الهدنة هاجم الإنجليز فرنسا عام 1346م، فاستمرت الحرب والتقى الجمعان بهضبة كريسي (Crécy) شمال فرنسا، وذلك في 26 أوت من نفس السنة<sup>3</sup>، وحقق الإنجليز نصرا باهرا في هذه المعركة، ليتقدموا بعدها إلى مدينة كالي (Calais) ومحاصرتها حتى استسلمت لهم في 03 أوت 1347م<sup>4</sup>، حينها اضطر الفرنسيون بعد هذه الهزائم إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات، وبالأخص بعد معركة بواتييه (Poitier) بقيادة الأمير الأسود (the Black Prince)<sup>5</sup> التي انجر عنها أسر ملكهم جون (John)<sup>6</sup>، و التوقيع على معاهدة برييني (Treaty of Brétigny) في أكتوبر 1360م<sup>7</sup>. وهكذا حل السلام من الناحية النظرية واحتفظ آل فالوا بتاج فرنسا مقابل تقطيع أوصال المملكة لصالح إنجلترا، وظلت الكفة مرجحة لصالح الإنجليز، الذين تمكنوا من بسط نفوذهم على جزء كبير من شمال غرب فرنسا فترأى للعيان حينذاك أن إنجلترا تُوشك ضم فرنسا تحت تاج واحد، ولم تنقلب الكفة لصالح الفرنسيين إلا بظهور فتاة من الريف الفرنسي اسمها :

<sup>1</sup> - أنظر: Devries (Kelly) and Smith (Robert ), Medieval Weapons , An illustrated History of their impact, Santa Barbara, California-U.S.A., Oxford-England, 2007, p. 144.

<sup>2</sup> - نصت الهدنة على عدم مهاجمة الإنجليز لفرنسا لمدة خمس سنوات. أنظر: Ibid., p. 144-145.

<sup>3</sup> - أنظر: Ibid., p. 144.

<sup>4</sup> - أنظر: Bennett (Matthew -and Hooper ( Nicholas), The Cambridge Illustrated Atlas of Warfare: the Middle Ages 768-1487, Cambridge University Press, Great Britain, 1996, p. 118- 119.

<sup>5</sup> - هو إدوارد الابن الأكبر لإدوارد الثالث وفيليبا، أمير ولز (Wales) وأكيتانيا، ولد في 15 جوان 1330م، يعتبر من أقوى الفرسان في عصره. تزوج إدوارد ورزق بولدين واحد منهم توفي في 1371م (إدوارد) والثاني ريتشارد الثاني استلم عرش إنجلترا بعد وفاة جده إدوارد الثالث، توفي الأمير الأسود في 08 جوان 1376م متأثرا بالمرض ليبقى من أكثر الشخصيات شعبية التي نسجت حولها الأساطير، لقب بالأمير الأسود في القرن السادس عشر لاستعماله دائما لدرع أسود. للمزيد أنظر:

Wagner (J.), Encyclopedia of the Hundred Years War, p. 116-117.

Froissart Chronicles, Translated by Geoffrey Brereton, Penguin Books,

Great Britain, 1968, p. 146.

<sup>7</sup> - تعهدت فرنسا بدفع ثلاثة مليون قطعة ذهبية كفدية لملكهم الأسير، وكذا الاعتراف بسيادة إدوارد على كل من دوقية أكيتانيا وبواتو، ومدينة كالي. أنظر: Devries (k.), op.cit., p. 146.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

جان دارك (Joan of Arc)<sup>1</sup> قادت جيشا لفك حصار مدينة أورليان (Orléans) في 1429م ونجحت في ذلك، إلا أنها أُسرت من قبل الإنجليز عام 1431 م وتم إعدامها لتبقى قدوة للفرنسيين الذين حذوا حذوها في محاربة العدو وتمكنوا من إخراجها من كامل تراب فرنسا ماعدا ميناء كالي<sup>2</sup>.

### نتائج حرب المائة عام:

كان لحرب المائة عام نتائج وخيمة على الفلاحين بفرنسا، إذ قُتل الكثير منهم وخربت أراضيهم من قبل الجيش الإنجليزي<sup>3</sup>، إلى جانب تعرض القرى والمدن غير المحصنة للنهب وأُعقب هذا انتشار الفوضى والخوف وسط السكان<sup>4</sup> بسبب العصابات الخارجة عن القانون (Bands Lawless) وهم بمثابة قطاع طرق مسلحين (Routiers)، فالمحاربون لما وجدوا أنفسهم خارج الجيش النظامي<sup>5</sup>، شكلوا عصابات تبتز الأهالي مقابل حمايتهم وعدم الفتك بهم<sup>6</sup>، ومع مرور الوقت اتسعت هذه الجماعات بانضمام المغامرين إليها من كل أوروبا<sup>7</sup> وصارت تعرف بالشركات الحرة (Free Companies)<sup>8</sup>، تقدم خدماتها لمن يدفع لها، ففرنسا استعانت بهم لتعزيز جيشها ولجأت

<sup>1</sup> - (Joan of Arc) (1412-1431) :جان دارك، بالفرنسية (Jeanne d'Arc)، هي فتاة من الريف الفرنسي، وهي محاربة رفعت معنويات الجيش الفرنسي وقادته للظفر بالنصر على الإنجليز، ولدت بالقرب من قرية دومريي (Domrémy) في منطقة اللورين شرق فرنسا وذلك ما بين سنتي 1412 أو 1413 م في وسط أسرة مزارعة، وقد عرفت المنطقة التي ترعرعت فيها صراعات عديدة خلال حرب المائة عام، فقد أُحرقت قريتها عام 1428م وتبعاً لذلك فرت هي وأسرتها إلى نوف شاتو (Neufchâteau) الفرنسية، كانت جان مسيحية متدينة وأدعت أنها كانت تسمع أصوات القديسين وأنهم أمروها للنهوض بالقوات الفرنسية، امتنعت عن الزواج وقررت البقاء عذراء. رافقت قائد القوات الفرنسية إلى مدينة أورليان (Orléans) لفك الحصار المفروض عليها وبعد دحض قوات الانجليز وتحرير المدينة، سُلمت لها قيادة الجيش وحقق انتصارات كثيرة، فصارت لها هبة كبيرة وسط الشعب الفرنسي و رفعوا من قدرها وجعلوها في مصاف القديسين. للمزيد أنظر: Clayton J. Drees, The Late Medieval Age of Crisis and Renewal 1300-1500: A Biographical Dictionary, Greenwood Press, London, 2001, p.251-252.

<sup>2</sup> - أنظر: Perry (M.), op.cit., p.277.

Idem.

<sup>3</sup> - أنظر: Devries (k.), op.cit., p.145.

<sup>4</sup> - أنظر: Curry (Anne), the Hundred years' war 1337-1456, Routledge, New york, 2005, p.85.

<sup>5</sup> - أنظر: فيليب كوتنامين، المرجع السابق، ص. 137.

<sup>6</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص. 229.

<sup>7</sup> - هم مرتزقة انضوا تحت ما يسمى: الشركات الحرة، ازدهرت في أوروبا ما بين 1300 و 1450م، فكان الجنود يعرضون أنفسهم للخدمة حتى أنهم صاروا أشبه بتجارة رائجة، فمثلاً في إيطاليا شق المرتزقة الأجانب طريقهم هناك بعد سنة 1379 م وعرفوا باسم الكوندوتييري (Condottieri) أي الجنود المتعاقدين. وقد شكلت هذه الجيوش الخاصة تهديدا للحكام لأوروبا فمثلاً شركة كثالونيا الكبرى خدمت دوق أثينا ثم انقلبت ضده عام 1311م لتؤسس دوقيتها الخاصة (duchy of mercenaries) التي دامت

ثلاثاً وستين سنة. أنظر: Janice(Thomson), Mercenaries, Pirates, and sovereigns: State Building and Extra territorial Violence in Early Modern Europe, Princeton University press, USA, 1994, p.27.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

إلى أحد قادة هذه الشركات وهو (Bertrand du Guesclin)<sup>1</sup>، وإيطاليا هي الأخرى وظفتهم في حروبها الداخلية، وعرفوا عندها ب: كوندوتيري (Condottiere) أي المحاربين المتعاقدين أو المرتزقة<sup>2</sup>. هذا فضلا عن فظاعة المعارك التي خلفت العديد من القتلى في وسط كلا الفريقين الفرنسي والإنجليزي، فعلى حد ذكر الراوي الفرنسي فرواسار (Froissart) في حويلته، أن الملك الإنجليزي إدوارد الثالث، أرسل بعد معركة كريسبي بعضا من رجاله لمعاينة ساحة المعركة، فوجد حجم الضحايا كبيرا، منهم أحد عشر أميرا، 1200 فارسا وثلاثون ألفا آخرين<sup>3</sup>. أما بمدينة ليموج (Limoge) التي داهمها جنود الأمير الأسود عام 1370م، قتلوا بها أكثر من ثلاثة آلاف مدني من رجال، نساء وأطفال بالرغم من توسلاتهم وطلبهم الرحمة<sup>4</sup>.

يُعبّر هذا المشهد عن مدى تأزم الأوضاع السياسية بأوروبا في هذه الآونة، فعلى غرار فرنسا وإنجلترا، إيطاليا هي الأخرى كانت تتخبط في صراعات مريعة نشبت بين المدن، وكذلك شبه الجزيرة الإيبيرية التي بلغت بها النزاعات على العرش إلى درجة الاستنجد بالأجانب مما انعكس سلبا على المجتمع والدولة.

### 3- الأوضاع السياسية بإيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية

#### أ- إيطاليا :

تحولت إيطاليا في القرن الثالث عشر إلى مسرح لحروب أهلية طاحنة سببها الصراع من أجل السلطة بين الجلفيين (Guelfes) والجبليين (Gibelins)<sup>5</sup>، عمتها الفوضى والانقسام الذي تحكمه المصالح وقد عبر عن هذا الوضع الحالك الشاعر دانتي بقوله "أضحت إيطاليا مليئة بالأشواك والعواصف والجرائم والآثام وكأنها سفينة بلا شراع ولا ملاح وسط العاصفة الهوجاء"<sup>6</sup>، فضلا عن

<sup>1</sup> - أنظر: Devries (k.), op.cit., p.146.

<sup>2</sup> - أنظر: Ibid., p.151.

<sup>3</sup> - أنظر: Froissart, op.cit., p.95.

<sup>4</sup> - أنظر: Almmand, op.cit., p.132-133 ; Froissart, op.cit., p.178.

<sup>5</sup> - ظهر مصطلح الجلفين والجبليين لأول مرة بإيطاليا في فلورنسا حوالي 1240، ثم انتشر بباقي منطقة توسكانيا وكامل إيطاليا ليعبر عن الصراع بين الإمبراطورية والبابوية، ذلك أن أسرة ولف (Welf) بسوايا أيدت البابوية ومنها اشتق مصطلح (Guelfe) في حين اشتق (Gibelin) من اسم القصر (Weiblingen) التابع لأسرة الهوهنشتاوفن (Hohenstaufen) المتنازعة مع البابوية وصار هذا التقسيم سببا للصراعات بين المدن الإيطالية. أنظر:

Franceschi (Franco) et Taddei (Ilaria), Les villes d'Italie du milieu de XIIe Au milieu de XIV Siècle : Economies, Sociétés, Pouvoirs, Cultures, Bréal, 2005, p.64.

<sup>6</sup> - الليجيري دانتي: الكوميديا الإلهية، الجحيم، ترجمة حسن عثمان، الطبعة 03، دار المعارف، القاهرة، 1950، ص.ص. 44-45.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

هذا المشهد الأليم، حاولت العديد من المدن بشمال ووسط إيطاليا فرض هيمنتها على جيرانها، في حين ظل التنافس التجاري قائما بين جمهوريتي البندقية وجنوة ليلغ حد الاقتتال بين هاتين القوتين البحريتين<sup>1</sup>. فالهيمنة الحقيقية على حوض البحر المتوسط في القرن الرابع عشر كانت في أيدي الجمهوريتين الإيطاليتين التجاريتين: جنوة والبندقية وكذا بأيدي ملوك أراغون، الذين سيطروا على جزيرة صقلية منذ سنة 1282م وكانت كل من جنوة والبندقية في صراع مستمر في التنافس على تجارة الشرق مع بلدان البحر الأسود، الشام، ومصر منذ القرن السابق، وهو صراع جلب على الجمهوريتين عواقب وخيمة خلال القرن الرابع عشر<sup>2</sup>.

### ب- شبه الجزيرة الإيبيرية:

على غرار ما شهدته إنجلترا وفرنسا من حرب ضروس، وكذا ما عاشته إيطاليا من اضطرابات، كانت الممالك المسيحية بشمال ووسط شبه الجزيرة الإيبيرية تسعى لتقوية مركزها، فأراغون (Aragon) أولت اهتمامها ببرشلونة أكبر مركز تجاري بالبحر المتوسط، وطمحت للسيطرة على صقلية وإيطاليا، أما بالنسبة لقشتالة (Castile) فقد وجهت نظرها إلى المحيط الأطلسي وشاركت بأسطولها إلى جانب فرنسا في معركة لاروشال (la Rochelle) عام 1372م ضد إنجلترا<sup>3</sup>. وقد شهدت حقبة القرن الرابع عشر نشاطا زائدا للتاج الأراغوني كنتيجة مباشرة للسيطرة على جزيرتي صقلية وسردينيا تباعا (1323-1324م)، وقد تصدى لهذه الأطماع الأراغونية كل من البابوية والفرنسيين والجنوبيين، ثم سرعان ما نشب صراع بين برشلونة وجنوة شغل النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وفي عام 1304م تم إرساء الحدود بين قشتالة وأراغون كما عملت أراغون على تعزيز وتوسيع نفوذها في البحر المتوسط وصولا إلى بلاد المشرق<sup>4</sup>، وأما قشتالة فقد كانت تعيش على وقع حرب أهلية طاحنة .

فبعد وفاة الملك ألفونسو الحادي عشر (Alfonso XI) عام 1350م، خلفه ابنه بيدرو المعروف ببيدرو القاسي (Pedro Cruel) والذي دخل في نزاع حول العرش مع أخيه غير الشرعي

<sup>1</sup> - أنظر: Devries (k.), op.cit., p.p. 151-152.

<sup>2</sup> - إميليو سولا، البحر المتوسط المركز الحيوي للقرن الرابع عشر، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007، ص. 46.

<sup>3</sup> - أنظر: Canning (J.), op.cit. p. 70.

<sup>4</sup> - إميليو سولا، المرجع السابق، ص. 48-49.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

انريك كونت تراستامارا ( Enrique of Trastamara )<sup>1</sup> مما منح الفرصة لتدخل القوى الأجنبية، حيث وقفت مملكة فرنسا إلى جانب انريك كل من وأمدته عام 1366م بجيش كبير من الشركات الحرة<sup>2</sup>، في حين تلقى بيدرو المساعدة من مملكتي نافار (Navarre) وإنجلترا<sup>3</sup>.

وصارت أرض قشتالة مسرحاً لمعارك يقودها جنود أجنب، كان لهم نصيب في إفقار عامة الناس وتدمير اقتصاد المملكة ومن جهة أخرى اضطر كل من إنريك وبيدرو للحفاظ على ولاء النبلاء إلى منحهم امتيازات تتضمن ضياعاً واسعة<sup>4</sup>.

إنّ هذه الحروب التي عرفت أوروبا خلال القرن الرابع عشر كانت أشبه ما يكون بالوباء، ولم يتمكن الملوك بخبرتهم في الحكم والقادة باستراتيجياتهم العسكرية على حد سواء حسمها في وقت قصير، وحتى الكنيسة بعلو مكانتها لم تستطع وضع حد لهذه النزاعات، بل كانت طرفاً فيها في بعض الأحيان، وفقدت جراء ذلك هيبتها وثقة الناس فيها كراخٍ للغرب المسيحي.

### II - الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

شهدت أوروبا ابتداءً من سنة 1315م تغيرات مناخية، تمثلت في هطول أمطار طوفانية مما تسبب في حدوث الفيضانات وإتلاف المحاصيل الزراعية، وفي 1316م اجتاحتها موجة برد أدت إلى تجمد بحر البلطيق وإعاقة النشاط التجاري البحري، الأمر الذي أُنذر بدخول أوروبا في ضائقة اقتصادية واجتماعية<sup>5</sup>. واستمرت هذه التقلبات المناخية وسوء الأحوال الجوية إلى غاية 1322م، وقبل هذه السنة هبت رياح عاصفية بنورماندي عام 1319 م، بينما تضررت منطقة الفلاندرز من الفيضانات التي غمرتها ما بين 1320 - 1322م.<sup>6</sup> وتسببت الفيضانات التي لحقت مدينة نربون (Narbonne) جنوب فرنسا عام 1316م في قتل ثلاثمائة شخص في ليلة واحدة، ضف إلى هذا عامل الحرائق الذي زاد من تفاقم الأوضاع، خاصة وأن غالبية المنازل مصنوعة من الخشب أو سقفها

Canning( J.),op.cit.p.70

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص.243.

Canning( J.),op.cit.p.70.

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص.244.

<sup>5</sup> - أنظر: Chester Jordan (William) ,The Great Famine, Northern Europe in the early Fourteenth Century, Princeton University Press, New Jersey-U.K., 1996,p.18.  
Chester Jordan (W.) , op.cit.,p.19 , 22.

<sup>6</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

من القش<sup>1</sup> . وقد اعتقد الناس بأن هذه النكبات ما هي إلا عقاب من الرب بسبب خطايا البشر وابتعادهم عن الله<sup>2</sup> .

وقد نتج عن الأمطار الطوفانية والفيضانات التي لحقت بأوروبا أضرار مادية مهولة، من تحطيم للجسور والمباني وتعفن الحبوب التي غمرتها المياه وفسادها ، وعرف محصول العنب بفرنسا تراجعاً كبيراً كمّا ونوعاً<sup>3</sup>، وبالموازاة مع خراب المحاصيل الزراعية ، عانت المواشي وبالأخص الكباش من تناقص ملحوظا بسبب رداءة المناخ و عدم توفر العلف<sup>4</sup> وكذا إصابتها بداء مميت<sup>5</sup> ، ففي إنجلترا مثلاً، انخفض عدد المواشي من 3000 رأس إلى 913<sup>6</sup>، فكانت النتيجة ارتفاع أسعار المواد الغذائية ووقوع أوروبا فيما يعرف "بالمجاعة الكبرى"<sup>7</sup> .

### 1- المجاعة الكبرى 1315-1322م: ( The Great Famine )

شهد النصف الأول من القرن الرابع عشر عدداً من الجوائح الطبيعية والتي أثرت سلباً على الاقتصاد الأوروبي، وكان من أشدها وأفتكها المجاعة الكبرى التي مست شمال أوروبا عام 1315م وانجلت عام 1322م، وسببها هو الأمطار الطوفانية التي تساقطت في فصل الصيف و موجة البرد غير الاعتيادية بفصل الشتاء مما أدى إلى فساد الموسم الزراعي والتسبب في كارثة اقتصادية عظيمة<sup>8</sup> . عمت هذه المجاعة مناطق شاسعة بشمال أوروبا، حيث مست ألمانيا حتى حدود بولندا، وكذا شمال فرنسا و الجزء الجنوبي لاسكندينايا والجزر البريطانية باستثناء شمال اسكتلندة، أي ما يقارب مساحة 400000 ميل مربع مأهولة بالسكان<sup>9</sup> . وقد ساد الاعتقاد وقتذاك بأن مجاعة عام 1315م والمنسوبة إلى فشل المحاصيل الزراعية، هي مجرد ضائقة وستزول، لكن بمرور الوقت واستمرار رداءة الجو

Jones (M.), The New Cambridge Medieval History, Vol. VI, p. 109.

<sup>1</sup> - أنظر:

Chester Jordan (W.), op.cit., p. 20.

<sup>2</sup> - أنظر:

Ibid., p. 24, 34.

<sup>3</sup> - أنظر:

Canning (J.), op.cit., p. 16.

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - murrains: هو داء معدٍ يصيب الحيوانات، من أعراضه المبكرة ظهور تقيحات بجانب الأنف والفم والعينين، مصحوبة

Chester Jordan (W.), op.cit., p. 36.

برائحة نتنه وإعياء شديد واسهال، وبعدها تموت هذه المواشي. أنظر:

Ibid., p. 38.

<sup>6</sup> - أنظر:

<sup>7</sup> - أطلقت هذه التسمية تشبيهاً بالمجاعة التي حدثت بمصر في عصر سيدنا يوسف عليه السلام، والتي دامت سبع سنين. أنظر:

Ibid., p. 07.

Jones (M.), op.cit., Vol. VI, p. 88-89.

<sup>8</sup> - أنظر:

Chester Jordan (W.), op.cit., p. 08.

<sup>9</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

وتدهور الانتاج وارتفاع أسعار المواد الغذائية، اشتد الجوع وصار من الصعب احتماله<sup>1</sup> ودُق ناقوس الخطر، فبمدينة يبرس ( Ypres ) لقي أكثر من عشرة بالمائة من السكان حتفهم بسبب الجوع خلال ستة شهور<sup>2</sup> وأمرت حكومة المدينة بدفن ما يقارب 2794 جثة من بداية ماي إلى منتصف أكتوبر من سنة 1316م، وهو عدد كبير باعتبار أن عدد سكان المدينة آنذاك لا يزيد عن عشرين ألف نسمة<sup>3</sup>، كما أننا نجد من الناس من اضطر من شدة البؤس والجوع إلى أكل جثث المواشي الميتة والتهام الآباء لأولادهم<sup>4</sup> وكل هذا سهل من عملية إصابة الأجساد المنهكة بالأوبئة والتي حصدت أرواح العديد من الأطفال ما بين 1315-1322م<sup>5</sup>.

وفي ظل انعدام شروط النظافة ونقص الحمامات<sup>6</sup> انتشرت الأوبئة بمختلف أصنافها كالتيفوئيد (Typhus)، السل (Tuberculosis)، الملاريا (Malaria)، الجدام (Smallpox)، الإنفلونزا (Influenza)<sup>7</sup>.

علاوة على المجاعة الكبرى التي مست مناطق شمال أوروبا عام 1516م، عرفت جهات أخرى مجاعات متكررة في السنوات الموالية حيث حلت عام 1332م مجاعة بمنطقة لانجدوك (Languedoc) بجنوب فرنسا وتكررت بها عام 1375م، أما كاتالونيا وبرشلونة فقد عانت من ويلات المجاعة عام 1333م والتي أسفرت عن مقتل عشرة آلاف شخص ببرشلونة وهو ما يعادل 20% من سكان المدينة<sup>8</sup>.

في حين أثرت الحروب تأثيرا بليغا على التجارة، بعضها مباشر والآخر غير مباشر، حيث امتدت الحروب إلى ما بعد سنة 1330م في العديد من المناطق الأوروبية بسبب طموح الملك فيليب

<sup>1</sup> - أنظر: Chester Jordan (W.), op.cit., p.11 .

<sup>2</sup> - أنظر: Holmes (G.) , op.cit., P.78

<sup>3</sup> - بيرين هنري، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة وتحقيق عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996، ص.183.

<sup>4</sup> - أنظر: Chester Jordan (W.), op.cit., p.87,148.

<sup>5</sup> - بيرين هنري، المرجع السابق، ص.188.

<sup>6</sup> - أنظر: Caning (J.), op.cit., p.16.

<sup>7</sup> - أنظر: Jones (M.), op.cit., Vol.VI, p.130.

<sup>8</sup> - أنظر: Ibid., Vol.VI., p.107.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

السادس بفرنسا و دوق ميلانو (Visconti of Milan)<sup>1</sup> بشمال إيطاليا ، وكذا الحروب الأهلية بجنوب إيطاليا وبقيستالة التي كانت مدمرة جدا في بعض المناطق كجاسكوني والمناطق المحيطة بجنوب شرق فرنسا، أين عاثت الجيوش فسادا وخربت المنطقة، ونتيجة لذلك انخفض معدل تصدير الخمر من بوردو (Bordeaux) ولجأ المستهلكون الفرنسيون إلى النبيذ المجلوب من اللوار في حين اتجه مستهلكو الفلاندرز إلى خمور الراين، أما الإنجليز فقد استوردوها من الأندلس والبرتغال.<sup>2</sup>

وقد أحدثت هذه الحروب بلبلة حتى في فترات السلم ، ذلك أن الجنود المنضوين تحت راية الشركات الحرة وفقا لعقود تربطهم بمستأجريهم اعتادوا قبض الأجور مقابل تقديم خدماتهم الحربية، لكن في فترات السلم لم يعد لهم مدخول مالي لذلك كانوا يلجأون إلى النهب والسطو، فأصبحت هذه الشركات تشكل هاجسا للحكام في العديد من مناطق أوروبا، ولتوفير الأمن لممتلكاتها ذهبت حكومة فلورنسا بعيدا في هذا الشأن، إذ أقامت عددا من المستوطنات المحصنة على امتداد طرقها الرئيسية، أهمها طريق بولونا (Bologne) الذي تمر عبره قافلة الحبوب والتي تعتبر مصدرا غذائيا ضروريا لتموين سكان المدينة.<sup>3</sup>

أما عن التأثيرات غير المباشرة للحرب فتتمثل في الضرائب، ففي إنجلترا رُفعت نسبة المستحقات الضريبية المفروضة على تصدير الصوف خلال فترة حربها مع فرنسا، وقد عُوض بالصوف القشتالي لحياكة الملابس بجنوب الاراضي المنخفضة<sup>4</sup>، وتبعاً لهذا انهارت صناعة الملابس بمنطقة الفلاندرز، وتدهورت أسواق شمباني بفرنسا، وبإيطاليا أفلست البنوك<sup>5</sup>، وهكذا فإن غرامة الحرب كانت باهظة إذ أثرت سلبا على المالية العالمية ولتغطية ذلك، لجأ الحكام إلى الديون فكانوا يقترضون قروضا

---

<sup>1</sup> - هو (Visconti, Giangaleazzo) (1351-1402) دوق ميلانو (Milan) ولد بميلانو شمال إيطاليا عام 1351م كانت ميلانو في ظل حكمه ولاية قوية تضم العديد من مناطق شمال إيطاليا، و يُعتبر أول دوق لها وقد وسع نفوذه وبسط سيادته على كل من فيرونا وبادوا، فيزا وسينا واعتبر هذا التكتل الذي يحوزه ملكية خاصة بعائلته أكثر من كونها مقاطعة أو ولاية سياسية، وبعد وفاته عام 1402 قُسمت هذه الملكيات بين أبنائه وفقا للأعراف الإيطالية، فاستلم الابن الأكبر جيوفاني (Giovanni Maria) دوقية ملانو، في حين حكم فيليبو (Filippo Maria) بافيا (Pavia) تحت إمرة أخيه الأكبر، وقد كان والدهما قد أدار مقاطعته بإحكام ولتعزيز قوتها وتحقيق طموحاته استعان بمرتزقة الكوندوتييري (condottieri) وقد تمرد هؤلاء الجنود المرتزقة بعد وفاته على ابنه الدوق الجديد. أنظر: Clayton J. Drees, op.cit., p.p.492-493.

<sup>2</sup> - أنظر: Jones (M.), op.cit., Vol.VI, p.p.191-192.

<sup>3</sup> - أنظر: Ibid., Vol.VI., p.193, 196.

<sup>4</sup> - أنظر: Idem.

<sup>5</sup> - هنري بيرين، المرجع السابق، ص.183.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

قصيرة الأجل بنسبة ربح تتراوح ما بين 20 إلى 25%، ففي ألمانيا مثلاً كان كبار ملاك الأرض واليهود على رأس قائمة المقرضين، وفي كل من فرنسا وإنجلترا قام التجار بهذا الدور مع بعض البنوك الإيطالية التي أُصيبت بنكسة عام 1346م عندما أجهز الملك إدوارد الثالث على كل أرصدة باردي (Bardi) تقريباً. وقد اتخذت الديون في المدن الإيطالية مساراً مخوفاً بالخطر، وذلك حينما كان يتم الإقراض قبل تسديد الديون السابقة وعندها لجأت مصارف جنوة و فلورنسا إلى رفع أسعار الفائدة على القروض لكن في الأخير اضطرت هذه المصارف إلى تخفيض أسعار الفوائد ليرجع ذلك بالفائدة على المقرضين<sup>1</sup>.

يُعد انكماش القروض واحداً من مظاهر الافلاس فحسب، إذ كان هناك انقباض في خدمات البنوك المحلية وازدراء لطرق الدفع التقليدية التي عُوضت بتحويل الأموال من حساب لآخر عبر تحرير ورقة الدفع (شيك)، وبالتالي بدأ عدد محلي الأموال البنكية في الزوال، ويُضاف إلى هذا وقوع تخفيض في قيمة معدن العملة<sup>2</sup> فالملوك أُصيبوا بخيبة أمل بسبب الضعف العام الذي أصاب العملات الأوروبية الأمر الذي أدى بهم إلى تخفيض قيمتها ويرجع سبب هذا الانهيار إلى تقلبات أسعار المعادن النفيسة وكذا الإنفاق المتزايد للملوك، مما أدى إلى اللجوء إلى الغش في سك العملة، فعلى سبيل المثال كان مستشارو الملك الفرنسي فيليب الرابع ينصحونه بتخفيض سعر العملة كسبيل لإصلاح المسار الاقتصادي، وأن هذا التخفيض من حق الملك وحده، أما في مملكة أراغون كان سك العملة في العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر يحقق ربع قيمة حصيللة الخزانة الملكية<sup>3</sup>.

ونظراً لهذه الأوضاع المزرية، هبت رياح الثورات الشعبية في كل من فرنسا وإنجلترا، فلورنسا والفلاندرز. وكان سبب أغلب هذه الثورات هو رفع الضرائب<sup>4</sup>، ففي إنجلترا وشمالي فرنسا كان نصف دخل الفلاحين يؤخذ منهم، فعلى كل عشرة مكاييل من الحصاد يُلزم الفلاح أن يدفع منها مكيالاً

<sup>1</sup> - رفايال بينادو سانتايا، أصول الدولة الحديثة، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007، ص. 70.

<sup>2</sup> - أنظر: Jones (M.), op.cit., Vol. VI, p. 198.

<sup>3</sup> - رفايال بينادو سانتايا، المرجع السابق، ص. 70.

<sup>4</sup> - أنظر: Fraioli Deborah, Joan of Arc and the Hundred Years War, p. 14.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

كعشور للكنيسة، مكيالا ونصف للدولة ومكيالين ثمنا للبذور وقراية مكيال آخر كضريبة لإحصاء السكان<sup>1</sup>.

### 2-الثورات الشعبية

تميزت فترة العصور الوسطى المتأخرة بسلسلة من الثورات الشعبية الضارية سواء في المدن أو الأرياف ومنها على سبيل المثال ثورة الفلاحين بالجلترا عام 1381 م وثورة التشيومي (Ciompi) بفلورنسا عام 1378م، فقد انتفض الفلاحون اثر تصاعد التوتر الاجتماعي بفعل الوقائع السياسية والعسكرية كالهزائم في حرب المائة عام وما ترتب عنها من الزيادة المتكررة في الضرائب الملكية و الانتفاضات بالمدن هي الأخرى، عكست الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة بعد الوباء حيث تنامى التوتر بين التجار والحرفيين من جهة، وبين روساء الحرف والعاملين تحت إشرافهم والمتربصين<sup>2</sup>.

#### أ-الفلاندرز:

من المناطق التي اشتعلت فيها الثورات مدن منطقة الفلاندرز، التي كانت منذ بداية القرن الرابع عشر في موقف الدفاع عن كيانها ضد تحركات الملك الفرنسي فيليب الرابع الوسيم في إطار مواجهاته ضد الملك الإنجليزي إدوارد، في حين بقي التواصل مع مراكز التجارة في حوض البحر المتوسط على قدم وساق من خلال تجارة الشمباني وأسواقها التي كانت تحت إشراف تجار من فلورنسا ولبارديا متمركزين في مدينة بروج (Bruges) لانجاز المعاملات التجارية، رغم أن الحجم الأكبر لهذه المعاملات كان مع إنجلترا، قشتالة،فرنسا وبلدان الشمال الأوروبي المنتعشة إقتصاديا عبر طريق بحر البلطيق وصولا إلى بولندا وروسيا<sup>3</sup>.

وقد نجح مدن الفلاندرز في التصدي للملك الفرنسي حيث أحرزوا انتصارا تاريخيا على القوات الفرنسية في موقعة كورتراي (Courtrai)، ومع ذلك اضطرت هذه المدن فيما بعد إلى قبول الشروط الفرنسية لتبدأ بذلك حقبة الاضطرابات في الريف والحضر وتعم القارة الأوروبية<sup>4</sup>. وتعتبر الثورة التي اشتعلت بغرب ريف الفلاندرز ضد النبلاء واحدة من أوسع الثورات في القرن الرابع

<sup>1</sup> - رفايال بينادو سانتايا، المرجع السابق،ص.71.

<sup>2</sup> -أنظر : Daileader(Philip), The Late Middle Ages, the Teaching Company, USA,2007,p.30.

<sup>3</sup> -إميليو سولا،المرجع السابق،ص.50.

<sup>4</sup> -نفسه.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

عشر<sup>1</sup>، وكانت انعكاسا لتفاقم المجاعة والحرب وسوء التسيير، وكانت الضرائب المرهقة القطرة التي أفاضت الكأس فقامت انتفاضة بمنطقة الفلاندرز ضد استغلال الأسياد الاقطاعيين مابين 1323م إلى 1328م<sup>2</sup> وكانت على ثلاث مراحل (1323-1328)، وتكررت بانتفاضة غانت (Gand) (1336-1349)، ومرة ثانية (1379-1382)<sup>3</sup>.

### المرحلة الأولى:

ضاق الفلاحون ذرعا من الضرائب التي أثقلت كاهلهم لفائدة النبلاء وملك فرنسا، فانتفضوا لاسقاطها، و امتنعوا عن دفع العشور وطالبوا الأديرة بتوزيعها على الناس<sup>4</sup>، وتفريق مخزون الحبوب على الفقراء<sup>5</sup>، ولم تحمد نار هذه الثورة إلا بتدخل الملك الفرنسي فيليب السادس الذي وجه ضربة قاصمة للمتمردين سنة 1328 م في معركة عند منحدرات كاسل (cassel) وأعاد الكونت لويس دو نيفرس (Louis de Nevers) إلى الحكم تحت سلطة فرنسا<sup>6</sup> والذي كان قد ثار ضده سكان فلاندرز في 1326م وعزلوه عن منصبه<sup>7</sup>.

### المرحلة الثانية :

وفقا لمقتضيات الحرب مع فرنسا، فرض الملك إدوارد الثالث في أوت 1336 م حظرا على تصدير الصوف الإنجليزي إلى مدن الفلاندرز، كوسيلة ضغط لتقف إلى صفه، فاضطر النساجون الذين تقوم صناعتهم على هذا الصوف إلى الثورة على الكونت لويس دو نيفرس حليف الفرنسيين، لفض ولائه لفرنسا، ورفضه عينوا حاكما آخر من مدينة غانت والذي تحالف مع الانجليز لرفع الحظر على هذه المدن ، ولكنه قتل في جويلية 1345 م وعاد لويس إلى السلطة من جديد<sup>8</sup>.

Holmes (G.), op.cit.,P.16.

Jones (M.),op.cit., Vol.VI, p.96.

Fraioli (D.),op.cit.,p.15.

Fraioli (D.),op.cit.,p.17.

Holmes (G.), op.cit.,P.16.

Fraioli (D.),op.cit.,p.17.

Ibid,op.cit.,p.18.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - هنري بيرين، المرجع السابق، ص.ص.185-186.

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

<sup>7</sup> - أنظر:

<sup>8</sup> - أنظر:

المرحلة الثالثة :

قامت الثورة هذه المرة بمدينة غانت بسبب تدخل الكونت لويس أوف مال ابن وخليفة لويس دو نيفرس في التنافس بين كل من غانت وبروج، تزعم هذا التمرد فيليب ابن جايكوب وهو حليف للانجليز، فتدخلت القوات الفرنسية واستطاعت قتل فيليب في 1382 م بمعركة روز بيك<sup>1</sup>.

ب -ثورة الفلاحين (Jacquerie) بفرنسا:

أخذت الصراعات بفرنسا ما بين 1355-1358 م ثلاثة أشكال، واحدة تتعلق بالخصومات بين المقاطعات أما الثانية والثالثة فتتمثل في انتفاضة باريس بقيادة اتيان مارسيل (Etienne Marcel) عميد تجار هذه المدينة والمتزامنة مع ثورة الفلاحين (jacquerie)<sup>2</sup>. وقد جاءت هذه الثورة كتعبير على سخط الفلاحين تجاه النبلاء الذين لم يوفر لهم الحماية ضد هجمات العصابات التي استنزفت كل مواردهم<sup>3</sup>، وكذا بسبب وطأة الضرائب المفروضة عليهم في أعقاب هزيمة الملك الفرنسي أمام الإنجليز في موقعة بواتي عام 1356م<sup>4</sup>، وتوقيع معاهدة بريتيني، فكان المنطلق من منطقة بوفيه (Beauvais) شمال باريس في 28 ماي 1358<sup>5</sup> ورغم أن هذه الثورة لم تدم طويلا مقارنة بثورة الفلاندرز إلا أنها تركت انطباعا كبيرا وعميقا لدى معاصريها، كونها انطلقت من قلب فرنسا ضد النبلاء<sup>6</sup>.

اجتمع ما يقارب مائة شخص قدموا من مختلف مدن فرنسا بمدينة بوفيه، وقرروا الإطاحة بالنبلاء وتخريب ونهب ممتلكاتهم الخاصة، وبعد فترة انتخابوا واحدا منهم يكون زعيما عليهم يقودهم في ثورتهم، وهو جاك الصالح ( Jack the Good Man )<sup>7</sup>، وفي ظرف بضع أسابيع انضم إليهم العديد من الأشخاص وأطلقوا على أنفسهم (Jacques)<sup>8</sup>، فعمت الفوضى في فرنسا وساد العنف

<sup>1</sup> - أنظر: Fraioli (D.),op.cit.,p.17.

<sup>2</sup> - أنظر: Monique Bourin, Giovanni Cherubini, Giuliano Pinto (a cura di), *Rivolte urban e rivolte contadine nell'Europa del Trecento*, Firenze university press, Italy,2008,p.53.

<sup>3</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص230.

<sup>4</sup> - رافايال، أصول الدولة الحديثة، المرجع السابق، ص.71.

<sup>5</sup> - أنظر: Fraioli (D.),op.cit.,p.19.

<sup>6</sup> - أنظر: Jones (M.),op.cit.,, Vol.VI, p.97.

<sup>7</sup> - أنظر: Froissart, op.cit.,p. p.151-152.

<sup>8</sup> - أنظر: Knight Judson, Encyclopedia of Middle Ages : Almanac,p.215.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

والنهب والقتل حتى اضطر نبلاء بوفيه من شدة الهلع لما لحق منازلهم من تدمير إلى طلب يد العون من أصدقائهم في الفلاندرز<sup>1</sup> وسرعان ما سرى لهيب هذه الثورة من مدينة بوفيه إلى المناطق المجاورة لباريس كمنطقة بيكاردى (Picardy) شمالا، كما وصل صداها إلى كل من شمباني ونورماندي، إلا أنّ الملكية الفرنسية استطاعت في الأخير إخماد هذه الثورة بإعدام الفلاحين جملة على الرغم أن البعض منهم لم يُشارك في هذا التمرد<sup>2</sup>.

### ج - ثورة الشيومبي (ciompi) بفلورنسا (1378-1382م):

تُعد ثورة الشيومبي من أشهر ثورات المدن في آواخر العصور الوسطى، إذ ثار النساجون بفلورنسا عام 1372م و دخلوا في نزاع مع وجهاء المدينة وأسسوا تكتلا يرمى مصالحهم التجارية بخصوص صناعة الملابس<sup>3</sup>، انتفضوا بسبب أجورهم الزهيدة، قادهم رئيس عمال حلاجي الصوف وبلغوا السلطة التي بقوا فيها إلى غاية 1382 م<sup>4</sup>، أين تم فض ثورتهم وسقطت حكومتهم<sup>5</sup>.  
أما موجة الغضب الثانية بفرنسا فقد حذت حذو الشيومبي وعاصرت الانتفاضة التي حدثت بغانت وسبقت الثورة التي حدثت بالجلترا، وقد جرت على عدة مراحل، الأولى تجلت في حركة التوشين (Tuchins) التي حدثت بوسط وجنوب فرنسا (Midi) في أبريل 1378م، وخبت في 1383م، ففي خريف 1380 رفضت مدن حوض باريس في أعقاب وفاة الملك شارل الخامس دفع الضرائب وتم الغائها في نوفمبر من نفس السنة، وفي 1383م اثر طلب الملك المساعدة غير المباشرة وطلب دفع ضريبة الملح في 1382م فعمت الثورات كل من روان (Rouen) وبعدها باريس حتى اضطر الملك الى الفرار الى مدينة فنسان (Vincennes) ومن الربيع إلى الخريف تفاقمّت الثورات بمدن عدة، بمناطق نورماندي، شمباني، بيكاردى ولم يستتب الأمن إلى بعد معركة روزيك أين تم قمع الثائرين بوحشية<sup>6</sup>.

Froissart, op.cit.,p.152.

Knight (J.), op.cit.,p.216.

Daileader (Ph.),op.cit.,p.32.

<sup>4</sup> - فيليب كونتامين وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام منذ بداية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، ج2، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1995، ص. ص. 116-117.

Daileader (Ph.),op.cit.,p.32.

Monique Bourin,et autres,op.cit.,p.54.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

د- حركة التوشين (Tuchins) :

التوشين تسمية أُطلقت على لصوص الغابات، الذين شكلوا عصابة ظهرت حوالي 1360م بفرنسا وعرفت نشاطا أكبر ما بين 1382-1384م، حيث ضمت فقراء المدن والأرياف والصعاليك الذين قهرهم الجوع والبؤس<sup>1</sup>. وقد انطلقت من منطقة لانجدوك (Languedoc) بجنوب فرنسا، ويبدو أن تسميتهم بالتوشين (Tuchins) اشتقت من نمط عيشهم القائم على هامش المجتمع (la touche) في مناطق تعوزها معالم الحضارة<sup>2</sup>.

هـ -ثورة الفلاحين بانجلترا:

جاء تمرد الفلاحين بانجلترا كرد فعل على الضريبة التي استحدثها البرلمان الانجليزي والتي عُرفت بضريبة الرأس (poll tax) تماشيا مع مقتضيات الحرب مع فرنسا<sup>3</sup>، وتدعم هذا الموقف برغبتهم في التحرر من العبودية وسلطة النبلاء الأسياد، فخلافا لمناطق أخرى، يرضخ عدد كبير من الفلاحين لنير الإقطاع بانجلترا وبشكل أكبر في كل من منطقة سوساكس (Sussex) وبيدفورد (Bedford) كانت (Kent) ايساكس (Essex)<sup>4</sup>، وفي هذه الأخيرة ظهر بها التمرد أول الأمر في 30 ماي 1381م<sup>5</sup>، عندما تحرك شخص يدعى جون بال (John Ball) وأخذ يُلهب حماس الناس بخطاباته<sup>6</sup> وقام بإرسال دعوات الانضمام إلى هذا العصيان إلى كل من منطقة كانت، سوفولك (Suffolk) و نورفولك (Norfolk)<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> - كونتامين فيليب وآخرون، المرجع السابق، ص.47.

<sup>2</sup> - أنظر:

Monique Bourin, et autres, op.cit., p.p.68-69.

Fraioli (D.), op.cit., p.23.

<sup>3</sup> - أنظر:

Froissart, op.cit., p.211.

<sup>4</sup> - أنظر:

Fraioli (D.), op.cit., p.23.

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - كان يلقي خطاباته للناس المجتمعين عند الكنيسة كل يوم أحد قائلا: بأن البشر سواسية ولا يوجد فرق بين الأسياد والفلاحين، فكلنا من آدم وحواء، وهؤلاء الأسياد لا يتميزون عنا إلا بشروطهم التي التي ينفقونها عبثا، أما نحن فننعت بالأقنان، نلتقى الضرب إذا تأخرنا عن خدمتهم ومن الآن فصاعدا لن نخضع لأي سيد نستطيع تقديم شكوانا وإيصال رغباتنا في التغيير إلى الملك بذاته، وإذا اجتمعنا واتفقنا على هذا سننال الحرية. للمزيد أنظر:

Froissart, op.cit., p.212.

Fraioli (D.), op.cit., p.25.

<sup>7</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

فلقيت دعوته وخطابه ترحيبا في أوساط العامة، وأصبح الكل يردد ما قاله جون بال ويستحسنه، ولما علم بهذا رئيس أساقفة كانتبري، اعتقل جون بال وأودعه السجن لمدة شهر أو ثلاثة كعقاب له<sup>1</sup>.

وتزامن مع هذا الحراك اندلاع تمرد في شهر جوان بإقليم كانت جنوب إنجلترا بقيادة وات تيلر (Wat Tyler)، وفي غضون أقل من خمسة عشر يوما انضم إليه الآلاف من الفلاحين لتكون وجهتهم مدينة لندن<sup>2</sup>، وفي طريقهم إليها نهبوا بعض الكنائس والقصور، خربوا المنازل وأسروا عددا من الفرسان والنبلاء وقتلوا البعض الآخر غصبا، وعند وصولهم إلى المدينة، تم إرسال أحد فرسان الملك ليلغهم برغبة الثائرين في مقابلته، ومع إصرارهم وتهديدهم للملك استجاب لهم وخرج لرؤيتهم، وعندئذ سألهم عن مطالبهم، فأجابوا، نريد الحرية الأبدية. وتحت هذا الضغط أظهر الملك نيته في تنفيذ رغبتهم وطلب منهم أن ينوب عن كل قرية أو منطقة اثنان، أما الآخرون فعليهم العودة إلى منازلهم، ووعدهم بتحرير كل واحد من نير العبودية<sup>3</sup>.

واستجابة لهذا عاد السكان إلى منازلهم في حين عهد الملك لأكثر من ثلاثين رجل دين بكتابة رسائل العتق، بالرغم من رضى البعض بعود الملك وهمهم بالرحيل، قرر وات تيلر رفقة جون بال وجاك ستراو المكوث بلندن حتى يستلموا الرسائل، وتبعهم في ذلك حوالي ثلاثين ألف شخص واستمروا في إحداث الفوضى ولم تهدأ الأوضاع بلندن إلا بإعدام الزعماء الثلاثة<sup>4</sup>.

إن قمع ثورة 1381م لا يعني نهاية مقاومة الفلاحين ورضوخهم بإنجلترا بل تجدد عصيانهم وبلغ خمس انتفاضات ما بين 1381 إلى 1405 م خاصة في إقليم كانت، شيشير (Cheshire) ويورك شير (Yorkshire)<sup>5</sup>.

إن الوضع السياسي، الاقتصادي والاجتماعي المتأرجح بأوروبا في هذه الفترة أسفر عن الكثير من الضحايا وخلف دمارا كبيرا ومجتمعا مثقلا بالمصائب والهموم ليزداد تفككا بعد أن حل وفاق

Froissart, op.cit., p.213.

Fraioni (D.), op.cit., p.24.

Froissart, op.cit., p.p.215-216.

Ibid., p.222.

Jones (M.), op.cit., Vol. VI, p.100.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

الوحدة المسيحية بوقوع الإنشقاق داخل الكنيسة الغربية حيث انشطرت إلى شقين اثنين، كنيسة بروما وأخرى بمدينة أفنيون في فرنسا .

### III-الأوضاع الدينية:

#### 1-النزاع بين الملك فيليب الوسيم والبابا بونيفاس الثامن:

تلبية لمتطلبات الحرب التي نشبت بين فرنسا وإنجلترا ، بادر الملكين فيليب الرابع وإدوارد بفرض ضرائب على رجال الدين<sup>1</sup> ، فتدخل البابا بونيفاس الثامن (Boniface VIII)<sup>2</sup> وأصدر مرسوما سنة 1296 عُرف ب ( clericis laicos ) حرّم فيه فرض الضرائب على رجال الدين دون مصادقته عليها<sup>3</sup> وماعدا ذلك يُعتبر انتهاكا لسلطته<sup>4</sup>، وكان رد الملك فيليب الرابع على هذا المرسوم هو حظر تصدير الذهب والفضة إلى خارج مملكته، إلا بموافقته ، ونظرا لحاجة بونيفاس الثامن إلى مداخيل القساوسة بفرنسا<sup>5</sup> اضطر إلى إصدار مرسوم آخر في 31 جويلية 1297م (Esti de statu) ، سمح فيه بجباية رجال الدين من طرف الحاكم الديني إذا اقتضى ظرف طارئ<sup>6</sup>.

وظل النزاع قائما بين الملك والبابا ليبلغ ذروته سنة 1301م عندما أقدم الملك فيليب الرابع على اعتقال أسقف مدينة بامير (Pamiers) وهو برنارد سيسيت (Bernard Saisset) بتهمة الخيانة فأثار هذا الفعل غضب البابا بونيفاس فأصدر مرسومين بابويين سنة 1302م، الأول (Ausculat filii) وأدان فيه عمل الملك فيليب وفي المرسوم الثاني (Unam sanctam) أكد

<sup>1</sup> - أنظر: Canning (Joseph), A History of Medieval Political Thought 300-1450, Routledge, London and New York, 1996, p. 137.

<sup>2</sup> - هو بيندكت كايثاني (Benedict Caetani) ولد عام 1235 م من عائلة نبيلة بمدينة أناني (Anagni) وسط إيطاليا. درس القانون، تقلد منصبا كأمين للكاردينال سيمون (Simon of Brie) هذا الأخير لما صار بابا باسم مارتن الرابع (Martin IV)، عين بندكت كارديناالا عام 1281م. انتخب كبابا باسم بونيفاس الثامن بعد تنحي سليستين الخامس (Celestin V)، تولى مهامه إلى غاية وفاته سنة 1303 م. أنظر:

Knight (J.), Encyclopedia of Middle Ages Biographie, vol.01, p.140.

<sup>3</sup> - أنظر: Greighton (M.), A History of Papacy from the great schism to the sack of Rome, VOL.01, Longmans, London, 1919, p.29.

<sup>4</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص.ص. 194-195.

Greighton (M.), op.cit.p.29.

<sup>5</sup> - أنظر:

Canning (J.), A History of Medieval Political Thought, p.138 .

<sup>6</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

بعبارات حادّة تُسمو السلطة الروحية على الدنيوية<sup>1</sup> واعتبر بونيفاس ما فعله فيليب تعدّ على قانون الكنيسة الذي لا يُخوّل لأحد محاكمة الأساقفة غير البابا، فأمر بإخلاء سبيل الأسقف المعتقل وسحب مرسوم (Esti de statu) ودعا أساقفة فرنسا لعقد مجمع بروما للنظر في كيفية صون حرياتهم، وإصلاح المملكة الفرنسية<sup>2</sup> الأمر الذي زاد من حدة الخلاف بين فيليب وبونيفاس. تُطرح هنا قضية طبيعة سلطة البابا ومدى تدخله في الشؤون الدنيوية لأي مملكة مسيحية<sup>3</sup>.

أوضح البابا بونيفاس من خلال مرسومه (Unman Sanctam) سمو السلطة الروحية على الزمنية بقوله: " فإذا أخطأت أو ضلت السلطة على الأرض، فإن السلطة الروحية ستحاكمها... ولكن لا يمكن لأحد محاسبة البابا إلا الرب...<sup>4</sup> ولذلك فإننا نُعلن ونؤكد أنه من الضروري أن يخضع كل مخلوق لسلطان الكاهن الأعظم بروما لكي ينال الخلاص<sup>5</sup>، فبونيفاس كان يطمح للسيطرة على الملوك والأمراء، وأن يجعل في يده السلطة الدينية والزمنية<sup>6</sup> وقد عارضه في هذا العديد من المفكرين والشعراء أمثال دانتي<sup>7</sup> الذي وضع في كتابه "الملكية" أن السلطة الزمنية تنحدر من منبع سلطة الكون دون أي وساطة، فسلطة الملوك تُستمد من الله مباشرة، وشبه السلطة الروحية بالشمس ورمز للدنيوية بالقمر، فهذه الأخيرة تستمد النور من البابا لتؤدي عملها على أكمل وجه، وأن كلا منهما يختلف في الأهمية<sup>8</sup>.

<sup>1</sup>-أنظر: Clayton J. Drees, The Late Medieval Age of Crisis and Renewal,p.397.

<sup>2</sup>-أنظر : Canning (J.), op.cit .,p.138.

<sup>3</sup>- موريس كين، المرجع السابق، ص.197.

<sup>4</sup>-أنظر: Perry (M.), op.cit., p. 278.

<sup>5</sup>- رفايال بينادو سانتايا، المرجع السابق، ص.65.

<sup>6</sup>- دانتي، الكوميديا الإلهية، ص.43.

<sup>7</sup>-Dante Alighieri) :دانتي أليجييري (1265-1321)، من الشعراء البارزين في العصور الوسطى، ترعرع في مدينة فلورنسا الإيطالية، بعد معارضته سياسيا نُفي من المدينة سنة 1302م، وقضى 20 سنة الأخيرة من حياته في المنفى وهناك كتب شعره الملحمي الكوميديا الإلهية (Divine Comedy) وكان هذا الكتاب شاملا لأفكاره السياسية وقد انتقم من أعدائه في كتابه بوضعهم في الجحيم، كما كتب أيضا مؤلفا عن الملكية (Monarchia) تمحور حول العلاقة بين البابوية والإمبراطورية ودحض ادعاءات البابوية القائلة بأن الكنيسة هي منبع قوة الملوك ونادى باستقلال الملوك عن البابوات لكونهما متساويان في السلطة .

للمزيد أنظر: Chester Jordan (William), The middle ages,Vol.02, American Council of Learned Societies,USA,1996,p.21,24.

<sup>8</sup>- أنظر: Dante Alighieri,the De Monarchia,translation and notes by Aurelia Henry, the Riverside Press, Cambridge, 1904,p.156,205.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

فدانتى يرى أنّ كلاً من البابا والإمبراطور يستمدان السلطة من الله مباشرة، ولا يجوز لأحدهما التدخل في شؤون الآخر، فهو أراد الفصل بين السلطتين للمحافظة عليهما لأن خروج إحدى السلطتين عن مجالها يُهدد مصلحة المجتمع<sup>1</sup>.

بالمقابل وكرد فعل على مرسوم البابا بونيفاس الثامن، دعى مستشارو فيليب الرابع إلى عقد مجمع لخلع البابا بونيفاس واتهموه بالسيمونية<sup>2</sup>، وعندها أصدر البابا في حقه قرار الحرمان وبدأ يُحضر لإسقاطه عن العرش<sup>3</sup>، إلا أن الملك فيليب كان يحضر لبونيفاس الأسوء.

### 2-حادثة أناني (Anagni)

أقدم مستشار الملك فيليب وليم نوغاري (Guillaume Nogaret) وبمساعدة من عائلة كولونا الإيطالية التي تُكن العداء لبونيفاس، على تدبير هجوم على مقر إقامة هذا الأخير بأناني (Anagni) بإيطاليا، ولكن الاعتداء لم يُحقق الأهداف المنشودة التي ترمي إلى قتله، إذ تم تخليص بونيفاس من قبضتهم، ووفاته المنية بعد شهر على هذه الواقعة، التي حطّت من قيمة البابوية عكس حادثة كانوسا (Canossa)<sup>4</sup> التي أدلّت الإمبراطور هنري الرابع (Henry IV)<sup>5</sup>، فحتى دانتى الذي لم يكن على وفاق مع البابا بونيفاس رأى في هذا الاعتداء إهانة للبابوية<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - دانتى، المصدر السابق، ص. 54.

<sup>2</sup> -السيمونية : شراء وبيع المناصب الكنسية، وهذه التسمية مشتقة من اسم أحد السحرة وهو سيمون (Simon Magus) الذي ذُكر في كتاب أعمال الرسل: العهد الجديد، على أنّه حاول رشوة الرسول بطرس ويوحنا لشفاء المرضى، إلا أنّ بطرس لعنه على تصرفه هذا وعلى ظنه السيء بالسلطة المقدسة فهي لا تُشتري ولا تُباع. أنظر:

Knight(J.),Middle Ages Biographies, vol.02,p.128.  
Greighton (M.), op.cit., p.31

<sup>3</sup> - أنظر:

Ibid, op.cit., p.p.31-32.

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - ولد هنري عام 1050 م وبعد ستة سنوات عُيّن كإمبراطور لألمانيا تحت وصاية أمه، شهدت فترة حكمه خلافا مع نبلاء سكسونيا امتد من 1073 إلى 1088م، كما دخل في صراع مع البابا جريغوري السابع (1073-1085) وتعرض للحرمان الكنسي من قبله مرتين، في 1076 و 1080م، ولما فقد الدعم من النبلاء توجه في جانفي 1077م إلى قلعة كنوسا، ليلتمس الصفح فتركه البابا ينتظر أمام باب القصر لمدة ثلاثة أيام حافي القدمين والثلج يتهاطل، مرتديا قميصا بسيطا من صوف دلالة على خضوعه للبابا، وهذا ما عُرف في التاريخ بإذلال كانوسا أين أُهين الإمبراطور أمام البابا جريغوري السابع (Gregory VII). أنظر:

Knight(J.),Middle Ages Biographies, vol.02,p. 112,116,118.

Deanesly Margaret, A History of the Medieval Church 590-1500, Ninth Ed.,  
Routledge, London and New York, 1969.

<sup>6</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

وبعد وفاة البابا بونيفاس الثامن تأكد نصر الملكية على البابوية اذ صارت هذه الأخيرة تحت تأثير سلطة الملك الفرنسي فيليب وخلفائه. بعد أن تم نقل مقرها من روما إلى أفنيون<sup>1</sup>.

### 3-بابوية أفنيون :

بعد مرور إحدى عشر شهرا على وفاة البابا بندكت السادس عشر<sup>2</sup> والذي خلف بونيفاس الثامن، تم انتخاب رئيس أساقفة بوردو (Bordeaux)<sup>3</sup> للجلوس على كرسي البابوية وتم تنويجه ب ليون الفرنسية باسم البابا كلمنت الخامس (1305-1313). وقام هذا الأخير بتعيين اثني عشر كاردينالا فرنسيا، وواحدا انجليزيا<sup>4</sup>، ليطلع بابويته بصبغة فرنسية، خاصة بعد انتقاله سنة 1309م إلى أفنيون واتخاذها مقرا بدلا من روما ، وظلت هناك لمدة سبعين سنة<sup>5</sup> وهو ما عُرف في التاريخ بالأسر البابلي (the Babylon Captivity)<sup>6</sup>، فأصبحت ترضخ تحت سلطة مملكة فرنسا، فالبابا كلمنت تماما أمام مطالب الملك فيليب وأصبح أداة في يده، و وفقا لهذا قام بشجب المرسوم الذي أصدره البابا بونيفاس الثامن بحقه فيما سبق، وأقدم على حل جماعة فرسان الداوية<sup>7</sup> تلبية لرغبة الملك

<sup>1</sup>-أفنيون: تقع بفرنسا على الضفة اليسرى لنهر الرون (Rhone)، في عام 1290م أصبحت هذه المدينة تخضع لسيادة شارل الثاني (Charles II d'Anjou) كونت بروفانس (Provence) وملك نابلي وصقلية، ليتركها بعد وفاته لابنه روبرت (Robert) ثم انتقلت ملكيتها إلى ابنة هذا الأخير جين النابولية (Jeanne de Naples) التي بقيت تابعة لها إلى غاية جوان 1348م، تاريخ شرائها من قبل البابا كلمنت السادس (Clément VI) دافع في حقها حوالي ثمانين ألف فلورين ذهبي. للمزيد أنظر:

La Grande Encyclopidie, tome 04 , p.p. 909-910.

<sup>2</sup>- هو نيكولاس أسقف مدينة أوستيا، صار اسمه بندكت 11 لما انتخب كبابا، كان صديقا للبابا بونيفاس، قام برفع الحرمان عن فيليب الرابع كما قام بتحريم المعتدين على بونيفاس بأناني وعلى رأسهم وليم نوجاري ودعا لعقد مجمع لتبرئة روح البابا بونيفاس من التهم التي وُجّهت إليه ، توفي في 27 جوان 1304م. أنظر:

Locke (Clinton), The Age of the Great western schism, California, 1897, p. p. 8-9-10.

<sup>3</sup>- هو برتراند دو غوت (Bertrand de Got) رئيس أساقفة بوردو الواقعة فرنسا ، أصله فرنسي انتخب كبابا في 05 جوان 1305م، أنظر:

La Grande Encyclopidie, tome 04 , p.p. 909-910.

Deanesly (M.), op.cit., p.167.

Froissart, op.cit., p.201.

<sup>4</sup>- أنظر:

<sup>5</sup>- أنظر:

<sup>6</sup>- أطلقت هذه التسمية على فترة إقامة البابوات بأفنيون، و خضوعهم للملكية الفرنسية، تشبيها بالأسر البابلي بمصر أين قام الملك البابلي الكلداني نبوخذ نصر بسبي بني إسرائيل وإجبارهم على الإقامة ببابل. أنظر: نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 1995، ص.207.

<sup>7</sup>- الداوية: فرسان الداوية أو فرسان المعبد (Knights Templar) اشتقت تسميتهم من معبد سيدنا سليمان وقد عُرفوا في الأول بفرسان معبد سليمان الفقراء، تأسست هيئة الداوية عام 1119م بعد الاستيلاء على بيت المقدس، هي هيئة دينية عسكرية كان هدفها هو حماية حجيج الأرض المقدسة، كُتب القانون المنظم لها من قبل القديس برنارد (St Bernard) وقد اعترفت الكنيسة بهذا التنظيم سنة 1128م. أنظر:

Corèdon (Ch.) and Williams (A.), a dictionary of medieval terms, p.p.170-171.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

فيليب<sup>1</sup>، الذي استحوذ على جزء كبير من ثروتهم<sup>2</sup> متهما إياهم بالهرطقة وارتكاب مجموعة من الجرائم<sup>3</sup>، وذلك بموجب مجمع فيان (vienne) بفرنسا الذي انعقد باقتراح من فيليب لادانة البابا بونيفاس الثامن وكذا انتشار جثته وحرقتها<sup>4</sup>.

كان نقل مقر البابوية إلى فرنسا أمرا حتميا نتيجة اضطراب الوضع بإيطاليا، مما أعاق الباباوات عن مباشرة مهامهم على أكمل وجه، في حين وفر الهدوء والأمن بوادي نهر الرون الفرصة لتنظيم أمور البابوية في الجانب الإداري والمالي<sup>5</sup>. ولكن الهدوء والاستقرار الذي نعمت به البابوية بأفنيون طيلة سبعين سنة لا يحجب جسامه انعكاسات هذه الخطوة على الغرب المسيحي، والتي حذر من مغبتها البعض، أمثال القديسة كاترين من سينا (Catherine de Sienne) (1380-1347م)، التي حاولت من خلال رسائلها استمالة البابوات بأفنيون للعودة إلى روما والتحرر من وثاق الملكية الفرنسية<sup>6</sup>، وعبرت عن قلقها هذا بقولها أنها تشم رائحة الجحيم في البلاط البابوي، ومن جهته الشاعر بتارك الذي شبه إقامة البابوات بأفنيون بالأسر البابلي، لم يُوفر حبرا لهجاء إقامة البابوات بأفنيون وإعطاء صورة سوداء عنها<sup>7</sup>.

فقدت البابوية ثقة الناس ونظروا إليها كأداة لخدمة مصالح فرنسا<sup>8</sup> خاصة إنجلترا التي كانت في حرب مع فرنسا، شككت في أمانة الباباوات واعتبرت أن الأموال التي يتم جمعها بإنجلترا لصالح البابوية ستؤول إلى خزانة الملك الفرنسي لتمويل الحرب ضدها<sup>9</sup>. ونتيجة لذلك خسرت البابوية مداخيل الكنائس في كل من إنجلترا وروما<sup>10</sup>. إلا أنَّ أشدَّ ضربة نتجت عن بابوية أفنيون هي حدوث

Greighton (M.), op.cit.p., p37 .

Locke (C.), op.cit., p.22.

Deanesly (M.), op.cit., p.167.

Locke (C.), op.cit., p. 20.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - موريس كين، المرجع السابق، ص.255.

Cunningham Lawrence and Reich John, Culture and Values :A Survey of, the humanities Seventh Ed., Cengage Learning, U.S.A., 2010,p.242.

<sup>6</sup> - أنظر:

L'abbé Louis Gayet, Le Grand Schisme d'Occident, t.01, Florence, 1889, p.13,16.

<sup>7</sup> - أنظر:

<sup>8</sup> - نعيم فرح، المرجع السابق، ص.207.

Deanesly (M.), op.cit., p.186.

<sup>9</sup> - أنظر:

<sup>10</sup> - نعيم فرح، المرجع السابق، ص.208.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

الإنشقاق الديني الكبير الذي أحدث شرخا في الكنيسة الغربية، فأصبحت برأسين واحد بأفنيون والآخر بروما، وانقسمت الدول تبعا لذلك بين مؤيد لفرنسا وروما على حسب مصالح كل بلد.

### 4-العودة إلى روما والانشقاق الديني الكبير:

تداول على كرسي البابوية بأفنيون سبع باباوات كلهم من أصول فرنسية<sup>1</sup> ولم يُفكر أحد منهم في العودة إلى روما باستثناء أوربان الخامس (Urbain V)<sup>2</sup> و البابا جريغوري الحادي عشر (GregoryXI) الذي عزم على الرجوع إلى روما، وعندما علم فيليب بنوايا هذا الأخير، تخوف من الأمر وأرسل إلى أخيه دوق أنجو الذي كان بتولوز، طالبا منه اقناع البابا للعدول عن قراره، ولكنه فشل في ذلك<sup>3</sup>. فعاد البابا جريغوري إلى روما بالرغم من توسلات دوق أنجو، وإبدائه لمخاوفه لما سينجر عن هذا القرار من انعكاسات على الكنيسة<sup>4</sup>، وفعلا حدث ما كان متخوفا منه دوق أنجو، فبعد وفاة جريغوري بأيام قليلة من عودته إلى روما اجتمع الكرادلة لتعين بابا آخر، وهنا وقع الخلاف الذي انجر عنه ما يُعرف بالانشقاق الديني الكبير.

### 5-الانشقاق الديني الكبير (The Great western schism) :

بينما كان الكرادلة مجتمعون في قصر القديس بطرس (st Peter) لانتخاب بابا جديد خلفا ليجريغوري، احتشد في الخارج الآلاف من سكان روما، وهددوا الكرادلة بضرورة اختيار بابا إيطالي، وإلا ستكون حياتهم في خطر<sup>5</sup>. ولامتصاص غضب هذه الجماهير قاموا بتعين الكاردينال أوربان الخامس (Urban V) ذو الأصل الروماني للجلوس على كرسي البابوية، الأمر الذي لقي قبولا وأرضى سكان روما. إلا أنه وللأسف توفي بعد ثلاثة أيام، مما عقد الأمور أكثر ووضع الكرادلة في مأزق، ليضطروا مرة أخرى تحت تهديد سكان روما إلى انتخاب واحد منهم وهو رئيس أساقفة مدينة

<sup>1</sup> - وهم كليمنت الخامس (Clément V) (1305-1314)، جون الثاني والعشرون (Jean XXII) (1316-1334) بندكت الثاني عشر (Benoit XII) (1334-1342) كلمنت السادس (Clément VI) (1342-1352)، اينوسنت السادس (Innocent VI) (1352-1362)، أوربان الخامس (Urbain V) (1362-1370)، جريغوري الحادي عشر (Grégoire XI) (1371-1378). أنظر: La Grande Encyclopidie, tome 04, p. 910.

<sup>2</sup> - قرر أوربان الخامس خليفة البابا انوسنت الرجوع إلى روما في في أبريل 1367، بعد تلقيه لعدد من الرسائل التي تحثه على العودة ومن بينها رسائل بترارك، لم يبق طويلا بروما، وبعد ثلاثة أشهر من عودته توفي في 19 ديسمبر ودفن بأفنيون. أنظر: Locke (C.), op.cit., p.73, 75.

Froissart, op.cit., p.p. 201-202 .

Ibid., p. 202.

Ibid, p. 203.

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

باري (Bartolommeo Prignano) (Bari Barholomew of the Egles) الذي حمل اسم أوربان السادس (Urban VI).<sup>1</sup> وقرر المكوث بروما وتعين كرادلة من إيطاليا وأثار هذا مخاوف الكرادلة بأفنيون .<sup>2</sup>

وبعد فترة من انتخاب الكرادلة لأوربان السادس، قرروا انتخاب بابا آخر وهو روبرت دو جونيف (Robert de Geneva) في 20 سبتمبر 1378م، ولقب ب: كلمنت السابع (Clément VII). معتبرين انتخاب أوربان السادس باطلا لأنه كان تحت ضغط وتهديد سكان روما<sup>3</sup>، وهنا بدأ الانشقاق، حيث انقسم الغرب المسيحي إلى فريق مناصر لكلمنت بأفنيون، والآخر مؤيد لأوربان بروما<sup>4</sup>.

واعتقد الكثير أنه بوفاة أوربان سينتهي الانشقاق ويُعترف بكلمنت باباً شرعياً للكنيسة الغربية، إلا أن ذلك لم يحدث، بل انتخب كرادلة إيطاليا الكاردينال أناستازيا (St Anastasia) خلفاً لأوربان، ولقب ب: بونيفاس التاسع (Boniface IX)، وفي المقابل تم انتخاب بندكت الثالث عشر خلفاً لكلمنت،<sup>5</sup> ليستمّر الانقسام ويستلزم الأمر عقد مجمع لتثبيت بابا واحد.

اتسعت فجوة الانشقاق بعد مجمع بيزا المنعقد في 1409م، إذ تمخض عنه خلع كلا البابويين السابقين وانتخاب بابا آخر هو الكسندر الخامس (Alexandere V)<sup>6</sup>، وبهذا صارت الكنيسة الغربية بثلاث رؤوس، وبعد وفاته في 3 ماي 1409 خلفه جون الثالث والعشرون (John XXIII)<sup>7</sup>، المسمى بالتزار (Balthasar Cossa) والمدعم من طرف فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، سكندنافيا، في حين وقف إلى جانب البابا بندكت الثالث عشر كل من كونت اسبانيا واسكتلندة<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: Froissart, op.cit., p.p.203-204.

<sup>2</sup> - أنظر: Greighton (M.), op.cit.p. 68.

<sup>3</sup> - أنظر: Froissart, op.cit., p.p. 205-206.

<sup>4</sup> - وقفت إيطاليا بجانب البابا الإيطالي أوربان السادس باستثناء نابولي التي ناصرت البابا الفرنسي كلمنت السابع، في حين أيدت فرنسا بطبيعة الحال البابا الفرنسي، وبما أن إنجلترا كانت في حرب مع فرنسا فإنها انحازت إلى البابا الإيطالي، ونفس الشيء بالنسبة لفلاندرز، وكذا بوهيميا هنغاريا التي لم تكن على وفاق مع نابولي. وعلى العكس انحازت اسكتلندة للبابا الفرنسي بحكم عدائها في هذه الفترة مع إنجلترا، أنظر: Greighton (M.), op.cit.p.p.73-74.

<sup>5</sup> - أنظر: Locke (Clinton), op.cit., p. 105. 115

<sup>6</sup> - أنظر: Hamilton Wylie James, The Council of Constance to the death of John Hus

Longmans, London, 1900, p.08.

<sup>7</sup> - أنظر: Greighton (M.), op.cit., p. 20.

<sup>8</sup> - أنظر: Hamilton Wylie (J.), op.cit., p.08.

## 6-مجمع كونستانس ونهاية الإنشقاق الديني:

ظل العالم المسيحي الغربي منقسماً إلى شطرين متنازعين على زعامة الكنيسة الغربية بأوروبا ، إلى غاية انعقاد مجمع كونستانس (Constance Council) 1414م بألمانيا و الذي دعا إليه الإمبراطور الجرمانى سيجموند<sup>1</sup> ، فتم من خلال هذا المجمع انتخاب أحد الكرادلة من عائلة كولونا الإيطالية، والذي اتخذ اسم البابا مارتن الخامس (1417-1431م)، في حين أقصي الباباوات الثلاث، وبهذا توحدت الكنيسة الغربية<sup>2</sup> .

تُعتبر دعوة الإمبراطور سيجموند لعقد مجمع كنسي بغية توحيد الكنيسة، تدخلا واضحا للعلمانيين في شؤون المؤسسة الدينية، إلا أن الأکید أنه استطاع حل مشكل دام أربعين عاما في حين عجزت السلطة الدينية بجلالة قدرها عن ذلك. فكشف هذا العجز عن ضعفها واهتزاز أركانها، ومدى حاجتها إلى الترميم و الإصلاح و الذي لَوَّح به أشهر الآباء والشعراء في تلك الفترة أمثال، شوسر (Geoffrey Chaucer)<sup>3</sup> بإنجلترا وكذا

---

<sup>1</sup> - هو الإمبراطور (Sigismund)(1368-1437) حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وصف نفسه بأنه شرلمان الثاني في حين اتخذ عدة تسميات منها، ملك هنغاريا، ملك بوهيميا، ملك الجرمان وكذا ملك اللومبارد، وُلِد في 25 فيفري عام 1368م، وهو أصغر أبناء الإمبراطور شارل الرابع، عُرف بمواجهته لحركة الهرطقة، توفي في التاسع من شهر ديسمبر عام 1437م، للمزيد أنظر:

Drees (Clayton J.), op.cit., p.p.448-449.

Knight(J.), Middle Ages Almanac, p.222.

<sup>2</sup> - نعيم فرح، المرجع السابق، ص.211؛ أنظر :

<sup>3</sup> - يُعرف جيوفري شوسر بأب الشعر و الأدب الإنجليزي وهو واحد من أشهر الكتاب بإنجلترا، بدأ كتابه (Canterbury Tales) حوالي 1368م والذي يحكي قصة مجموعة من المسافرين في طريقهم للحج إلى مدينة كانتربري (Canterbury) يمثلون مجتمع العصور الوسطى انطلاقا من طبقة الفرسان ووصولاً إلى الفلاحين وكان لكل واحد قصة يرويها وأغلب هذه الحكايا مسلية وكانت رمزية، توفي شوسر في الخامس والعشرين من شهر أكتوبر عام 1400م ودُفن بأكبر كنيسة بلندن (Westminster Abbey) والتي كانت مخصصة لدفن العائلات الملكية. للمزيد عن مؤلفات شوسر أنظر:

Knight( Judson), Encyclopedia of Middle Ages, p.p.118-119.

## الفصل الأول : لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن الرابع عشر ميلادي

جون ويكليف (John Wycliffe)<sup>1</sup> الذي انتفض ضد الفساد الذي استشرى بالكنيسة  
وضد فسق رجال الدين.

---

<sup>1</sup>-جون ويكليف (John Wycliffe)(1384-1330) : رجل دين انجليزي وأستاذ بجامعة أكسفورد، يُرجح أنه ولد عام 1333م وتوفي عام 1384م، كان مقرباً من العائلة الملكية بإنجلترا الأمر الذي جنبه بعض الملاحقات القضائية ،لكن في عام 1377م أدان البابا تسعة عشر مقالا وردت ضمن أطروحات ويكليف وصار بعد ذلك أكثر تصريحا في نقده للكنيسة وقد تمحورت أفكار حول إصلاح الكنيسة ودعا إلى حجز ممتلكاتها وإعادة توزيعها، وشكلت بذلك آراؤه بؤادر الإصلاح البروتستانتي في القرن 16م، وقد سُمي من اعتنق أفكاره ب اللولارد (the Lollards).أنظر:

Daileader (Ph.), The Late Middle Ages,p.54.

## الفصل الثاني:

### ظهور وباء الطاعون وانتشاره بأوروبا اللاتينية

I - التعريف بوباء الطاعون وأنواعه

1- التعريف بوباء الطاعون: أ- لغة

ب- اصطلاحاً

2- تعريف وباء الطاعون من وجهة الطب الحديث

3- منشأه

4- أسبابه

5- أعراضه

6- أنواع الطاعون:

أ- الطاعون الرئوي (The Pneumonic Plague)

ب - طاعون الغدد اللمفية أو الطاعون الدبلي (The Bubonic plague)

ج - الطاعون الدموي (The Septicemic Plague)

II - انتقال وباء الطاعون إلى القارة الأوروبية

1- طرق انتقاله إلى أوروبا

2- انتشار الوباء بمدن أوروبا :

أ- بإيطاليا

ب - فرنسا

ج - إسبانيا

د - الأراضي الإسكندنافية

هـ - إنجلترا

## I-التعريف بوباء الطاعون وأنواعه

### 1-التعريف بوباء الطاعون:

أ-لغة:

الطَّاعُونُ لُغَةً الوَبَاءُ، والجمع طَوَاعِين. وطَعِنَ الرجل فهو مَطْعُون وطَعِين: أصابه الطاعون، وهو المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان<sup>1</sup>. كما جاء في الصحاح أيضاً أن الطاعون هو الموت من الوباء<sup>2</sup>.

ب -اصطلاحاً:

هو ورم قاتل لاستحالة مادته إلى جوهر سُمِّي يُفْسِدُ العضو ويُغَيِّرُ لون ما يليه وربما رَشَحَ دماً وصديداً ونحوه، يُؤدِّي كيفية رديئة إلى القلب من طريق الشرايين فيُحدث القيء والخفقان والغثي (الغشي) وإذا اشتدت أعراضه قتل، يَعْرِضُ في أكثر الأمر في الأعضاء الضعيفة<sup>3</sup> ويحدث في ثلاثة مواضع: الإبط، خلف الأذن والأربية (أصل الساق) واللحوم الرخوة<sup>4</sup>، وقد يخرج في الأيدي والأصابع وسائر الجسد، فالطاعون هو انصباب الدم إلى بعض الأطراف فينتفخ ويحمر وقد يذهب العضو كله، وهو ورم مؤلم جداً<sup>5</sup> ويكون أردؤه ما يعرض في الآباط وخلف الأذن وأسلم الطواعين ما هو أحمر ثم الأصفر والذي إلى السواد لا يفلت منه أحد<sup>6</sup>. لذلك درجت المراجع اللاتينية على تسميته الموت الأسود (The Black Death)<sup>7</sup>.

وقد ورد ذكر وباء الطاعون في حوليات العصور الوسطى بعدة تسميات، منها:

<sup>1</sup> - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت-لبنان، 1997، ص.180.

<sup>2</sup> - الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، المكتبة الكلية، مصر، 1329هـ، ص. 538.

<sup>3</sup> - ابن سينا أبو علي، القانون في الطب، الجزء الثالث، المقالة الأولى، مطبعة القاهرة، 1294هـ، ص.ص. 121-122.

<sup>4</sup> - ابن قيم الجوزية شمس الدين، الطب النبوي، تحقيق الشيخ أحمد بن محمد آل نبعه، مؤسسة المعارف، بيروت-لبنان، 2003، ص.29.

<sup>5</sup> - ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج. 10، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د.ت.ط..، ص.180.

<sup>6</sup> - ابن سينا، المصدر السابق، ج.3، ص.122.

<sup>7</sup> - صك مصطلح الموت الأسود لأول مرة في القرن 16م ليتداول استعماله في القرن 19م. أنظر:

Aberth( John), the Black Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with documents,Bedford series in history and culture, U.K.,2005,p.01.

(The Great Mortality)، (Pestilence) أو (The Plague) المشتقة من الكلمة اللاتينية (Plaga) والتي تعني الانتفاخ أو التورم<sup>1</sup>، ويُعرف عندهم أيضا بالوباء المشرقي<sup>2</sup> (The oriental Plague). لأنه انتقل من المشرق إلى أوروبا. وقد سُمي ب (la Grande Mortality) ذلك أنه شغل العالم بأسره<sup>3</sup>، فعم الوباء أقاليم الأرض شرقا وغربا شمالا وجنوبا<sup>4</sup>.

كما ذُكر في أدبيات المؤرخين العرب بعدة تسميات منها الطاعون، الموتان<sup>5</sup> ويسميه ابن الوردي بطاعون الأنساب وقد أورد أنه الموتان الذي أنذر به النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم<sup>6</sup> حيث جاء في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "فَنَاءُ أُمْتِي بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ"<sup>7</sup>، في حين سَمَّاه أهل المغرب والأندلس بالمرض الوافد مثل رسالة شاعر ألمرية ابن خاتمة الأنصاري، "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد"<sup>8</sup>، وكذا رسالة الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب "منفعة أو مقنعة السائل عن المرض الهائل"<sup>9</sup>. وقد قدم ابن خاتمة الأنصاري تعريفا وافيا للطاعون بقوله " هو حمى خبيثة دائمة عن سوء مزاج قلبي بسبب تغير الهواء عن حاله الطبيعية إلى الحرارة والرطوبة، مهلكة في الغالب يتبعها كرب وعرق غير عام لا يُعَقَّبُ رَاحَةً ولا ترتفع عَقَبُهُ حرارة، وقد يوجد لها فتور في اليوم الثاني واضطراب في عامة الأوقات، ثم تتزايد من بعد، وقد يتبعها تشنُّج وبرد في الأطراف وقيئ مراري سَمَّجٌ متواتر وعطش... أو ثقل في الصدر وضيق في النفس ونفث دم... مع التهاب وعطش شديد

<sup>1</sup> - أنظر: Aberth( J.),op.cit.p.01.

<sup>2</sup> - أنظر: Hecker, the Black death in the fourteenth century, translated by Babington London,1833 ,p.04.

<sup>3</sup> - أنظر: de Chauliac (Guy),la Grande Chirurgie,édit.Félix Alcan,Paris,1890, p.170.

<sup>4</sup> - المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج.04، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ص.81.

<sup>5</sup> - المقرئزي، المصدر السابق، ج.04، ص.80؛ وقد يُطلق الموتان بمعنى الوباء وذلك على المجاز إذ أصله في اللغة الموت ( يقع في الماشية) وتقييده بضم الميم أنظر: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، ج.2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص.162.

<sup>6</sup> - ابن الوردي زين الدين عمر، تنمة المختصر في أخبار البشر، الجزء2، المطبعة الوهبية، مصر، 1285هـ، ص.356.

<sup>7</sup> - العسقلاني، المصدر السابق، ج.10، ص.181.

<sup>8</sup> - أمراضا وافدة لأمرين : أحدهما: لأنها قادمة على الناس من بُعدٍ مع الهواء ليست من جهة مطعومٍ ولا سُمِّيت مشروبٍ ولا عَرَضُ نفساني وشبه ذلك... والثاني: أنها أمراض عامة تشمل الكثير من الناس كما أنَّ الوفد هم الجماعة. أنظر: ابن خاتمة، المصدر السابق، ص.162-163.

<sup>9</sup> - حسام مختار العبادي، وباء الطاعون في المشرق، ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007، ص.260.

وسعال وسواد في اللسان أو تورم في الحلق واختناق مع امتناع الابتلاع أو عسره أو وجع في الرأس أو سَدَرٍ ودُّوار وغثيان وانطلاق فضولٍ سَمَجَةٍ، وقد تتداخل بعض هذه الأعراض وقد يكون ذلك مع نتوء عُقَدٍ وطواعين تحت الإبط أو في الأربيتين أو خلف الأذنين أو فيما يلي هذه المواضع... وقد تحدث قروح سود في مواضع من الجسد وأكثر ذلك في الظهر والعنق، وقد تحدث في الأطراف<sup>1</sup>.

### ج- تعريف وباء الطاعون من وجهة الطب الحديث:

الطاعون مرض وبائي عُقُوي مُعَدٍ تتسبب فيه جرثومة من نوع العصيات (Bacilles) تُعرف علمياً (Yarsinia Pestis) نسبة إلى العالم الفرنسي ألكسندر يرسين (A.Yersin) الذي تمكن في أواخر القرن التاسع عشر من عزل العُصية المتسببة في هذا المرض<sup>(2)</sup>، وهذه العُصية جرثومة هوائية تحيا في حرارة قُصوى تصل إلى 25°، وتتباين درجة التسمم فيها وتخف بالشيخوخة التي تُصيب الأرومة، وفي المقابل يكون الانتقال السريع من الجسم الحامل لها إلى الجسم المحمولة إليه من خلال الأرومات الأكثر نشاطاً، ويمكن للعُصية أن تخترق الغشاء المخاطي بسهولة، بيد أنها لا تستطيع أنت تنفذ من الجلد إلا إذا لحقه خدش مهما كان هينا تكفي فيه شبكة برغوثية، ويختلف الشكل الذي يتخذه المرض عند المصاب حسب الموضع الذي يكون منه نفاذ الجرثوم إليه، فإذا نفذ إليه من الجلد تشكل في موضع الوخز بعد ستة أيام من الحضانة بقعة سوداء فاحمة بسبب النخر الذي يُصيب الأنسجة، ذلك هو التفحم الطاعوني وسرعان ما تظهر في ثنية الفخذ وتحت الإبطين وعلى العنق عُقد صلبة شديدة الإيلام ثم تصير إلى تقيح، تلك هي الخراجات وتستولي على المريض حمى شديدة ترافقها اضطرابات عصبية ونفسية كثيراً ما يعقبها تعفن في الدم وغيوبة ثم تكون الوفاة<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط نشره: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص.180.

<sup>2</sup> - محمد العربي الخطابي، نفس المرجع، هامش رقم 1، ص.152.

<sup>3</sup> - برنار روز نيرجي، حميد التريكي، المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م، ترجمة عبد الرحيم حُزل، منشورات دار الأمان، الرباط، 2011، ص.ص.183-184.

## 3- منشأه:

أجمع المؤرخون على أن ابتداء الوباء كان من الشرق بقارة آسيا ولكن دون تحديد المنطقة بالضبط<sup>1</sup>، فيذكر ابن الوردي "أن خبره ابتداء من الظلمات"<sup>2</sup>، في حين حدد ابن تغري بردي وآخرون المكان وهو ببلاد الخطأ<sup>3</sup> أين هلك خلق كثير وصاروا جيفة مرمية على الأرض، وبفعل الرياح انتشرت رائحتهم النتنة التي كانت سببا في نقل الطاعون إلى المناطق المجاورة، فعم الوباء أقاليم الأرض شرقا وغربا، شمالا وجنوبا جميع أجناس بني آدم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر<sup>4</sup>.

ومن بلاد الخطأ امتد الوباء إلى باقي بلاد المشرق، كبلاد أزيك (أزبكستان)<sup>5</sup> وأسطنبول وأنطاكية وانتقل أيضا إلى بغداد وحلب وجميع بلاد الشام<sup>6</sup> في الجهة الغربية لآسيا، ثم سرى إلى القسطنطينية ومنها عبر إلى اليونان وأخذ طريقه إلى إيطاليا، فرنسا ثم إفريقيا، ألمانيا، المجر (هنغاريا)، الدنمارك ووصولاً إلى بريطانيا وإيرلندا<sup>7</sup>، وقد حدد ابن خاتمة الأنصاري مساره بدقة: بلاد الخاد الصين ← جنوبي بحر قزوين باتجاه عراق العجم وبزّ التركية 1346 ← حصن قفا (Caffa) شمالي البحر الأسود ← أرض بيرة ← القسطنطينية العظمى 1347 الجزر الرومانية من سواحل البحر الروماني ← باتجاه مصر والشام 1348 ← وغربا باتجاه بلاد جنوب فرنسا عبر مضيق ميسينا وإيطاليا ← طريق الأندلس : أرغونة، برצלونة، بلنسية وغيرها ← مملكة قشتالة حتى انتهى

<sup>1</sup> -المقرئزي، المصدر السابق، ج. 04، ص. 81؛ ابن الوردي، المصدر السابق، ج. 2، ص. 450؛ جيوفاني بوكاتشو، الديكاميرون، ترجمة صالح عثمان، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا-دمشق، 2006، ص. 40؛ أنظر أيضا:

de Chauliac (G.), op.cit., P.170; Louis Sanctus, his letter published by John Aberth in the black death the Great Mortality of 1348-1350, Palgrave Macmillan, U.S., 2005, P.20.

<sup>2</sup> -ابن الوردي، المصدر السابق، ج. 02، ص. 450.

<sup>3</sup> - يُطلق اسم الخطأ على بلاد الصين جميعها في العصور الوسطى، أنظر: ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج. 10، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1992، هامش رقم 1، ص. 156؛ أو شمال الصين أنظر:

Tytler (James), A Treatise on the Plague and Yellow Fever, 1799, p.17.

ونفس المكان أشار إليه ابن خاتمة الأنصاري إذ يقول: وقد اختلف الأمر في مبدأ هذا الحادث من أين ابتداء ظهوره، فذكر لي الثقة عن بعض تجار النصارى القادمين علينا بالمرية أن ابتداءه كان ببلاد الخطأ وبلاد الخطأ بلسان العجم هي بلاد الصين. أنظر: ابن خاتمة الأنصاري، المصدر السابق، ص. 173.

<sup>4</sup> - ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج. 10، ص. 156.

<sup>5</sup> - كانت تطلق بلاد أزيك على ما كان يُسمى ببلاد القفجاق، وهي أرض القبيلة الذهبية من المغول والتي كانت تمتد من شمالي البحر الأسود وبحر قزوين وحوض الفولغا، أنظر: ابن تغري بردي، نفس المصدر، ج. 10، هامش رقم 02، ص. 156.

<sup>6</sup> -المقرئزي، المصدر السابق، ج. 04، ص. 81-82.

<sup>7</sup> - أنظر: Tytler (J.), op.cit., p.17.

إلى إشبيلية ← جزر البحر الرومي: جزيرة صقلية، سرديانية، ميورقة 1348 م سواحل العدو وبلادها من أرض أفريقية لما يلي المغرب.<sup>1</sup>

وبالنسبة لأوروبا اجتاحتها هذا الوباء في خريف 1347م، وهو الثاني من نوعه<sup>2</sup>، ذلك أنها تعرضت للوباء من قبل في القرن السادس الميلادي في عهد الإمبراطور جستينيان<sup>3</sup>، والذي يُعرف في التاريخ الأوروبي بـ "طاعون أو وباء جستينيان" (the plague of Justinian) حيث اندلع هذا المرض القاتل في صيف عام 541 م بميناء مدينة القرم المصرية (Pelusium)<sup>4</sup> وسرعان ما انتشر شرقا على طول سواحل غزة، وغربا إلى الإسكندرية ليعرف طريقه في الربيع الموالي ( أي ربيع سنة 542م) إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية وانتقل إلى سوريا، الأناضول، اليونان، إيطاليا، بلاد الغال، شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال إفريقيا، فلم تسلم منه الأراضي

<sup>1</sup> -حسين بوجرة، الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير (1350-1800)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011، ص.ص. 451-452؛ يقول ابن خاتمة : وأنه مازال ينتشر (أي الوباء) من بلاد الخطا ويتصل بما والاها إلى أن اتصل بعراق العجم وبتر التركية، وذكر لي أيضا عن آخرين من النصارى القادمين علينا أنه بلغهم أن ابتداءه كان بأرض الحبشة وأنه انتشر من هناك فيما يليهم من الأقاليم والأقطار حتى انتهى إلى ديار مصر واتصل بالشام... ثم ترادفت الأخبار بنزوله بحصن قفا من معاقل الجنويين... ثم بأرض بيرة والقسطنطينية العظمى وجزر الرمانية من سواحل البحر الرومي وبلاد جنوه وأرض وغيرها وعم أكثر مملكة قشتالة حتى انتهى إلى إشبيلية من إفرنسة آخذا على ريف الأندلس فشمّل بلاد أرغون برجلونة وبلنسية أقصى المغرب واتصل مع ذلك بجزر البحر الرومي بجزيرة صقلية وسردانية وميورقة ويابسة وانعطف على سواحل العدو وبلادها من أرض إفريقيا إلى ما يلي المغرب. أنظر: ابن خاتمة، المصدر السابق، ص. 173.

<sup>2</sup> - عرفت البشرية ثلاثة أوبئة مست العالم بأكمله، الأول في القرن السادس الميلادي وهو المسمى طاعون جستينيان أما الثاني حدث في القرن الرابع عشر الميلادي وهو المسمى الموت الأسود، أما الوباء الثالث فقد وقع في القرن التاسع عشر الميلادي. أنظر:

Costas Tsiamis, Effie Poulakou and Eleni Petridou, The Red sea and the Port of A possible Gate of Justinian's Plague, Gesnerus, Swiss Journal, 66/2, 2009, p. 210.

<sup>3</sup> - الإمبراطور جستينيان الأول (Justinian I) (527-565) الذي حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية \* بيزنطة\* في الفترة الممتدة من 527 إلى 565م، كان من أقوى الأباطرة الذين حكموا بيزنطة تدعمه زوجته ثيودورا وقائدها العسكريان: هما نارسيوس وبيلاساريوس، تمكن في ظرف قصير من إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة، كما ساهم في تنظيم وتقنين المبادئ الرومانية في مدونته: (Corpus Juris Civilis). أنظر:

Retief Francois and Louise P. Cilliers. The epidemic of Justinian (AD 542): A prelude to the Middle Ages, Acta Theologica, Vol. 26:2, 2006, p. 115.

<sup>4</sup> - (Pelusium) حاليا هي تل القرم عند الدلتا الشرقي لنهر النيل تبعد مسافة ثلاثين كيلومترا عن مدخل قناة السويس ببور صعيد، في الفترة الرومانية كانت واحدة من الفروع الشرقية لدلتا النيل وتبعد أربعة كيلومترات عن سواحل البحر المتوسط وكانت السفن تبحر من مينائها باتجاه القسطنطينية كما كانت حلقة وصل لنقل البضائع إلى غزة وسوريا عبر البر أو للبحر مثل الأطعمة الملححة والزيت، وكانت تُعتبر من أهم الموانئ بالبحر المتوسط إلى جانب ميناء الإسكندرية. للمزيد أنظر:

Costas Tsiamis and others, op.cit., p. 110-111.

المتاخمة للبحر المتوسط<sup>1</sup> وكان يحصد من خمسة إلى عشرة آلاف شخص على الأقل في اليوم الواحد، فأضحت العديد من المدن في الشرق مهجورة وشاغرة من السكان، أما بإيطاليا فإن مناطق متعددة ذبلت محاصيلها ليتسبب الثلاثي (الحرب، الوباء، المجاعة) في التأثير على امبراطورية جستنيان حيث وُسم عهده بنقص كبير في العنصر البشري<sup>2</sup>.

وقد ابتليت القسطنطينية بوباء الطاعون أربع مرات في عهد جستنيان وبعد وفاته عصف بالعاصمة من جديد أكثر من مرة في حين ظل القرن السابع ميلادي خاليا من الوباء إلى غاية أواخره أين تفشى من جديد عامي 687 م و 697 م<sup>3</sup> وبعدها لم يُورد المؤرخون اليونان ذكرا للوباء إلى غاية سنة 1025م أين عاود بالظهور بالتوازي مع سلسلة من الكوارث الطبيعية ومن هذا التاريخ إلى غاية حلول وباء 1346<sup>4</sup>. فكان وباء القرن الرابع عشر على مرحلتين فالموجة الأولى شهدتها أوروبا في 1348، أما الثانية فكانت في 1360-1361م، وكذا سنتي 1369 و 1374م<sup>5</sup>.

#### 4-أسبابه:

اقتزن ظهور الوباء بحدوث سلسلة من الزلازل والبراكين والمجاعات سواء في المشرق أو بأوروبا، الأمر الذي جعل الكثيرين يُرجعون سبب تفشي الطاعون إلى هذه الظواهر الطبيعية وخاصة فساد الهواء. ففي سنة 1333م، شهدت الصين، موجة من الجفاف ثم تبعها هطول أمطار طوفانية معتبرة تسببت في هلاك 4000 شخص، ولم تكن سنة 1334م بأحسن من سابقتها حيث اجتاحت الفيضانات المناطق المجاورة للإمبراطورية، وتسببت الأمراض في حصد خمس ملايين من السكان، ليتضاعف العدد بعد بضعة أشهر إثر وقوع زلزال أسفر عن مقتل الآلاف من الناس، ناهيك عن أسراب الجراد التي أتت على كامل المحاصيل، وكنيجة لكل هذا حلت المجاعة التي تسببت في هلاك

<sup>1</sup> - أنظر: Lester (K.Little), Plague and the end of Antiquity: The Pandemic of 541-750, Cambridge University Press, U.K., 2007, p.03.

<sup>2</sup> - أنظر: Tytler ( J.), op.cit., p.14,15,16.

<sup>3</sup> - أنظر: Retief ( F.) and Louise P. Cilliers, op.cit., p.p.121-122.

<sup>4</sup> - أنظر: Tytler ( J.), op.cit., p.16.

<sup>5</sup> - أنظر: Hirshleifer (Jack), Disaster and Recovery The black death in the western Europe, édit. The Rand corporation, California – U.S., 1996, p. 04.

أربعة ملايين شخص، ومما زاد الأمر سوءً هو سقوط نيزك على الأرض نجم عنه تلوث الهواء بالغازات السامة<sup>1</sup>.

ونفس الوضع شهدته أوروبا التي عرفت سلسلة من الكوارث الطبيعية قبل سنة 1347م<sup>2</sup> واستمرت تلك النكبات إلى غاية ظهور الوباء، فمثلا في جانفي 1348م ضربت زلازل سواحل اليونان، إيطاليا والمناطق المجاورة فعانت من جراء ذلك كل من نابولي، روما، بيزا، بولونا، بادوا، البندقية ومدن أخرى حيث انهارت القلاع ودُمرت الكنائس والمباني، ومات المئات من السكان تحت الحطام، وحتى الجبال اكتُشف لاحقا أنها ترزحت عن موضعها، ودُكر أيضا أنه خلال هذا الزلزال حتى الخمور بالبراميل تعكرت مما يثبت أن هذه التغيرات كانت سببا في فساد الهواء<sup>3</sup>.

وامتدت هذه الزلازل إلى المدن التالية: بازل، ألمانيا، فرنسا، سويسرا، بولندا، إنجلترا، الدنمارك وتكرر حدوثها إلى غاية 1360م، ويُضاف إليها التغيرات المناخية وعدم انتظام الفصول والفيضانات التي تسببت في فشل المحاصيل الزراعية<sup>4</sup>.

وتبعاً لهذا فإن أغلب المعاصري للوباء الذي حل بأوروبا، يرجعونه إلى الظواهر الطبيعية والفلكية، وعلى رأسها فساد الهواء أو ما يُعرف بالميازما (miasma)<sup>5</sup>، فبوكاتشو الذي عاصر الوباء بفلورنسا رأى أن سبب هذه الكارثة التي ألت بمدينته هو كائنات سماوية<sup>6</sup> في حين ذكر الطبيب وعالم الطبيعيات جي دو شولياك (Guy de Chauliac) في كتابه الخاص بالجراحة أن الوباء سببه اقتران الأجرام الكونية الثلاثة: زحل (Saturne)، المشتري (Jupiter) والمريخ (Mars)، فينجم عن ذلك أمور مروعة كتغير الممالك ونزول الرسل وكذا حدوث الموتان (الوباء) وهذا طبقاً لوضعية وطبيعة

<sup>1</sup> - أنظر: Adrien Philippe, Histoire de la Peste noire (1346-1356) d'après des documents Inédit et augmentés, édit. a la direction de la publicité, Médicale, Paris, 1853, P.09, 10, 11.

<sup>2</sup> - عن الكوارث الطبيعية التي حلت بأوروبا خلال القرن الرابع عشر عد إلى الفصل الأول، ص. 25.

<sup>3</sup> - أنظر: Hecker, The Black Death in the Fourteenth century, op.cit, p.p.37-38.

<sup>4</sup> - أنظر: Ibid., p.p.39-40.

<sup>5</sup> - الميازما هي الأبخرة المتعفنة والهواء الفاسد، والقائلون بأن سبب الطاعون هو فساد الهواء، يُعرفون بأصحاب نظرية الميازما (miasmatic theory) أنظر: Aberth (J.), the Black Death, op.cit., Not 02, p.42.

<sup>6</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص. 40.

هذه الكواكب، فإذا كان اقترانها شديدا ودام مدة كبيرة فحتما سيحدث الوباء وستُصاب الإنسانية بأضرار جسيمة<sup>1</sup>.

في حين شرح الطبيب الأندلسي بن خاتمة الأنصاري في مقالته المشهورة "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" دور عامل تغير الهواء والأبخرة الفاسدة في إحداث الوباء، فذكر أن للوباء أسبابا عامة وخاصة. والأسباب العامة تنقسم بدورها إلى قسمين : بعيدة وقريبة. فحسب ما أورد فإن الأسباب القريبة تكمن غالبا في تغير الهواء المحيط بالإنسان الذي قد تنقسه ويرجع هذا التغير إلى اختلاط الهواء المعتدل بأبخرة حارة ويابسة، أما الأسباب البعيدة فهي حسب ابن خاتمة، ثلاثة أنواع<sup>2</sup>:

**النوع الأول :** " تغير الهواء من جهة اتصال الأشعة الفلكية والأنوار السماوية والنصب القلوية، وعلى التحقيق من قبل الأمر الإلهي الذي لم تتحصل أسبابه للبشر... وذلك بأن تستمر الفصول الأربعة على طبيعة واحدة تقتضي للهواء الحرارة والرطوبة حتى يكثر الدم في الأبدان وتزيد كميته على توالي الفصول... فتغلب الأمراض العفونية لغلبة الدم وفورانه... ويهلك الناس... وهذا النوع من التغير هو أعم الأسباب فسادا وأكثرها انتشارا في الأقاليم وأدومها بقاءً على تبدل الفصول، ويظهر أن الوباء الحادث في هذا التاريخ هو من هذا النوع " ويقصد وباء 1348 م

**النوع الثاني:** تَعَيَّرَ الهواء "من جهة الزمان والوقت وما يتعلق به من غزارة المطر وقلته أو عدمه وهبوب الرياح وركودها، وذلك بأن يتغير الفصل من فصول السنة عن كميته الطبيعية إلى ضدها، وذلك كأن يكون الربيع بارداً يابساً... أو أن يكون الصيف شتوياً لغزارة الأمطار فيه... أو أن يكون الخريف على طبيعة الربيع، أو الشتاء على طبيعة الصيف".<sup>3</sup> وهذا ما لاحظناه في القرن الرابع عشر اذ تغيرت الفصول تماما وقد سبق ايراد ذلك بالتفصيل في الفصل الأول من دراستنا للأوضاع العامة بأوروبا خلال القرن الرابع عشر.

**النوع الثالث:** تغير الهواء "من جهة المكان والموضع وما يتصل به، وذلك بأن ترتفع أبخرة فاسدة متعفنة من السَّبَاح والبطائح المتغيّرة المياه والخنادق... والنبات والبقول المتعفنة وأقذار الناس وفضلاتهم

<sup>1</sup> - أنظر:

De Chauliac( G.), op.cit.,P.171.

<sup>2</sup> -حسين بوجرة، المرجع السابق، ص.449

<sup>3</sup> -ابن خاتمة، المصدر السابق، نقلا عن محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص170.

وجيف القتلى في الملاحم والدواب التي أصابها الموتان ونحو ذلك ما يُحدث البخارات المتعفنة فيتغير الهواء منها ويتعفن ويحدث عنه الوباء"،<sup>1</sup> وهذا ينطبق تماما على الوضع الذي كان في أوروبا في هذه الفترة حيث كثرت الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية ذلك ما أثر على طبيعة الهواء بشكل كبير. ويُدعم هذا الرأي قول ابن خلدون من أن كثرة الموتان لها أسباب من كثرة المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يُخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الرّوح الحيواني ومُلايسه دائما فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين.<sup>2</sup>

إلا أن بوكاتشو يُضيف إلى ذلك قائلا، أن الوباء ما هو إلا عقاب من الرب حيث حل غضبه على البشر بسبب أعمالهم الجائرة<sup>3</sup> وهو ما ذهب إليه أيضا غابريال دي موسي مصورا ومجسدا ذلك في حوار بين الخالق والأرض، يتحدث خلاله الإله عن معاقبته للناس جراء ارتكابهم للمعاصي وبعدهم عن الإيمان<sup>4</sup>. ومن جهته لم يعترف ماتيو فيلاني (Matteo Villani) بالتفسير الفلكية إنما اكتفى بقوله أن الوباء هو جزء من أسرار الله في خلقه، أما كونراد (Konrad of Megenberg) الذي كان من بين رجال الدين الحاصلين على مؤهل علمي جامعي فقد شجب كلتا النظريتين سواء التي تأخذ بالأسباب الفلكية أو تلك الرائجة بشكل واسع والتي تقول بأن الوباء هو عقاب إلهي جراء آثام البشر وكان يُجذد أكثر التفسيرات الطبيعية من أن الوباء انبجس من الأرض بفعل الزلازل التي حررت الأبخرة السامة والفاسدة التي كانت بباطنها<sup>5</sup>.

في حين نجد تفسيرا آخر لدى بعض الفئات من المجتمع، والتي اتهمت طائفة اليهود بتسميم الآبار وأن لها اليد الطولى في سريان هذا الوباء وأنهم قاموا بتسميم العالم<sup>6</sup> وتمت مهاجمة أحيائهم في كل من الأراضي الألمانية وأيضا في بعض مدن كتالونيا، ولم يُصادف هذا الاتهام قبولا لدى البلاط البابوي في مدينة أفنيون الفرنسية وفند الشائعات حول مسؤولية اليهود وأعلن أن الوباء قد حل بسبب

<sup>1</sup> - ابن خاتمة، المصدر السابق، نقلا عن محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص. 171.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 2006، ص. 282.

<sup>3</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص. 40.

<sup>4</sup> - أنظر: Horrox Rosemary, the Black Death, Manchester University Press, Manchester and New York, p.15.

<sup>5</sup> - أنظر: Aberth (J.), op.cit., p.38.

<sup>6</sup> - أنظر: de Chauliac (G.), op.cit., p.171.

يتصل بالمجرات السماوية، أو بسبب الغضب الرباني من شرور هذا العالم ومن ثم توجب القصاص<sup>1</sup> . في حين هناك من حمل الفقراء مسؤولية ذلك ، أما البعض الآخر فقد ألقى اللوم على النبلاء، وتبعاً لهذا تم تخصيص حراس للمدن ومنع منعاً باتاً ولوج الغرباء عنها وإذا حدث أن وُجد مسحوق ما بحوزة أحدهم فإنه سيُتهم بتسميم الآبار<sup>2</sup> .

وعند المقارنة البسيطة بين رأي المسلمين والغرب المسيحي حول مسببات الوباء فإننا سنجد بعض التوافق النسبي بين التفسيرين، فبالنسبة للعالم الإسلامي الوباء عندهم ليس عقاباً من الله عكس المسيحيين، إنما هو ابتلاء وشهادة لكل مسلم استناداً لقوله صلى الله عليه وسلم " **المطعون شهيد**"<sup>3</sup>، أما نقطة الالتقاء فنجدها في فكرة أن الوباء هو نتيجة لفساد الهواء وهذا هو السبب الأرجح والمتفق عليه في تلك الفترة قبل اكتشاف السبب الحقيقي في العصر الحديث .

## 5- أعراضه:

اختلف وصف أعراض وباء الطاعون الذي شهدته أوروبا سنة 1348م اختلافاً طفيفاً عن الذي ظهر بالشرق، حيث كان نزف الدم من الأنف إشارة مؤكدة على الموت<sup>4</sup> فعلى حد وصف المقرئزي كان الإنسان يحس في بدنه بحرارة، ويجد في نفسه غثياناً، فيبصق دماً ويموت عقبه<sup>5</sup> أما بأوروبا فيصف بوكاتشو أعراض الوباء وفقاً لما شاهده بفلورنسا بقوله "يحدث مع بداية المرض ظهور دمامل لدى النساء والرجال على السواء عند أصل الفخذين وتحت الإبطين يصل حجمها أحياناً قدر تفاحة أو بيضة، وبعضها أكبر من البعض، شاع بين العامة تسميها البثور وخلال وقت قصير تظهر تلك الدمامل على الجسم كله، وسرعان ما تتحول إلى بقع سوداء أو بنفسجية تظهر على الأذرع

<sup>1</sup> -خوليو فالديون باروك، **الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر**، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون :البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، ص.254،256.

<sup>2</sup> -أنظر: de Chauliac (G.), op.cit.,p.171.

<sup>3</sup> - محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: محمد سيد عبد رب الرسول، ج.13، دار الإمام مالك للكتاب، الجزائر، 2006، ص.177.

<sup>4</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص.40؛ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج.04، ص.81؛ يذكر ابن الوردي أن الباصق للدم يسكن الأجداث (يموت) بعد ليلتين أو ثلاث، أنظر: ابن الوردي، تمة المختصر في أخبار البشر، ج.02، ص.351.

<sup>5</sup> - المقرئزي، المصدر السابق، ج.04، ص.86.

والسيقان وبقية أنحاء الجسم كبيرة ومتفرقة أو صغيرة ومتقاربة، وهكذا كانت الدمل الأولى ومازالت تعتبر إشارة إلى الموت الوشيك"<sup>1</sup>.

وهناك وصف آخر لأعراض الطاعون من قبل الطبيب الجراح جي دو شولياك (Guy de Chauillac) يشبه إلى حد كبير الوصف الذي قدمه المقريري، فيخبرنا أن المرض يأتي في شكلين، الشكل الأول يصاحب المريض حمى وتقيء للدم ويتبعه موت المصاب في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام، أما الشكل الثاني فإنه بالإضافة إلى الحمى، تظهر أورام وتفحم (اسوداد) لبعض المناطق وبشكل خاص تحت الإبط وعند أصل الفخذين، ليموت المصاب بهذه الأعراض خلال خمسة أيام<sup>2</sup> وهو ما جاء لدى الرازي في الحاوي من أن الطاعون يقتل في أربعة أيام أو خمسة.<sup>3</sup>

في حين قدم أجنولو دي تورا (Agnolo Di Tura) في حوليته وصفا للوباء جاء فيه أن المصاب بالطاعون يموت مباشرة، بعد ظهور تورمات تحت الإبط وعند أصل الفخذين... وأن المرض ينتقل من شخص لآخر بمجرد التنفس أو رؤية المصاب<sup>4</sup>.

اكتسب هذا الوباء على حد قول بوكاتشو قوة هائلة حيث ينقله المرضى للأصحاء حين يحتكون بهم مثلما تنتقل النار إلى الحطب الجاف حين يكون قريبا منها<sup>5</sup> وفي هذا الشأن يقول ابن الخطيب في مقالته \*مقنعة السائل عن المرض الهائل\* :وقد وجد ثبوت العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والأخبار المتواترة... هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالبا وسلامة من لا يباشره كذلك، ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب أو آنية حتى أن القرط أتلّف من عُلق بأذنه وأباد البيت بأسره<sup>6</sup>.

وهذه الرؤية (العدوى) تعتبر من أهم النقاط التي اختلف فيها المعاصرون للوباء في أوروبا ونظرائهم في المشرق الإسلامي، فابن الوردي ينفي وجود العدوى وجاء على لسانه : "فإن قال قائل

<sup>1</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص.40.

<sup>2</sup> - أنظر de Chauillac (G.), op.cit., p.170 .

<sup>3</sup> - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، الحاوي في الطب، ج.17، دائرة المعارف العثمانية، 1964، ص.04.

<sup>4</sup> - أنظر: Agnolo Di Tura, Sienese Chronicle, published by John Aberth, op.cit., p.81.

<sup>5</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص.41.

<sup>6</sup> - أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني، مقنعة السائل عن المرض الهائل، نقلا عن محمد العربي الخطاط، المرجع السابق، ص.187.

هو يُعدي ويُيّد قلت بل الله يُيّد ويُعيد، فإن جادل الكاذب في دعوى العدوى وتأوّل قلنا فقد قال الصادق صلى الله عليه وسلم فمن أعدى الأول استرسل ثعبانه وانساب<sup>1</sup>.

وبغض النظر عن قضية العدوى واختلاف الرؤى بين الغرب المسيحي والمشرق الإسلامي يبقى أن أعراض الوباء هي نفسها مع اختلاف بسيط في الوصف، ويمكن تلخيص أعراض الطاعون في النقاط التالية:

- 1- التهاب وتورم في الحنجرة والرئة
- 2- آلام شديدة بمنطقة الصدر
- 3- تقيؤ وبصق (نفث) الدم
- 4- انبعاث رائحة من أجساد ونفّس المرضى.<sup>2</sup>

## 6- أنواع الطاعون :

جاء في رسالة لويس سانكتوس (Louis Sanctus) الذي عمل في البلاط البابوي بأفنيون كموسيقي من جهة وكذا قيامه بعدة رحلات سواء للحج أو التجارة، مكتته من جمع معلومات وفيرة عن الوباء بحكم المشاهدة، وقد لاحظ أن الطاعون يأتي في ثلاثة أشكال: الدموي، الرئوي وطاعون الغدد اللمفية (الدبلي).<sup>3</sup>

### أ- الطاعون الرئوي (The Pneumonic Plague) :

في هذه الحالة يهاجم المرض الرئة مما يحدث التهابا بها، فيكون ذلك سببا في إحساس الشخص بآلام في رئتيه، وبضيق في التنفس، وهذا النوع لا يسلم المصاب به بل يموت في ظرف لا يتعدى يومين، فهو من أخطر أنواع الطاعون وأشدّه عدوى فالمرضى يبصق دما، وتجنّف حنجرتهم ولسانهم ويصير لونهما أسودا كما تتشكل دمايل وخراجات أعلى وأسفل الذراعين، لتظهر بعد مدة قصيرة على الفك العلوي (الحنك) وفي أجزاء متفرقة من الجسم، تكون مختلفة الحجم،

<sup>1</sup> - ابن الوردي، المصدر السابق، ج.02، ص.352.

<sup>2</sup> - أنظر: Gasquet (Francis Aidan), the Black Death of 1348 and 1349, 2<sup>nd</sup> edit., George

Bell and sons, London, 1908, P.P.08-09.

<sup>3</sup> - أنظر: Sanctus Louis, letter April 27, 1348, published by Aberth(J.) in black death

the Great Mortality, p.33.

أحيانا كبيرة وأحيانا صغيرة، وتظهر بثور (نقط) سوداء على كامل الجسم، فتكون هذه الأعراض إشارة ودليلا على الموت.<sup>1</sup>

فهذا الصنف من المرض لا علاج له لأن نفث الدم إنما يكون عن تَفَرُّق عروق الرئة وتَهْتِكها لحدة الدم المنبعث إليها<sup>2</sup> وهو معدٍ بخلاف الطاعون اللمفوي، فالعدوى تنتقل بفعل سعال الشخص المصاب، هذا السعال الذي يرافقه بصق للدم، ويشعر المريض بعدم القدرة على التنفس<sup>3</sup>، وتختلف درجة احتمال المرض من شخص لآخر وهذا بطبيعة الحال حسب مناعة كل واحد فيقول الإمبراطور البيزنطي كانتاكوزان (John VI Kantakouzenos) أن هناك من يموت خلال يوم واحد وآخر خلال ساعة رغم أن الأعراض هي نفسها<sup>4</sup> وهذا ربما قد يكون انعكاسا للمجاعات التي حدثت من قبل والتي تسببت في إضعاف مناعة الأشخاص الذين كانوا في تلك الفترة أطفالا.

أما الذين تقاوم أجسادهم المرض ليومين أو ثلاثة فإنهم يتعرضون أول الأمر إلى حمى شديدة، فيؤثر ذلك على الرأس فيعاني المريض عجزا في الكلام وفقدانا للإحساس والإدراك، ليدخل (ليغط) بعدها في غيبوبة (نوم عميق)، وإذا ما حاولوا من وقت لآخر التكلم فإنهم يبذلون جهدا كبيرا لتحريك ألسنتهم، فيتفوهون بكلمات غير مفهومة لأن أعصاب مؤخرة الرأس (قذال) تكون قد أُلِفَت، لتكون النتيجة وفاة المصاب بعد هذا مباشرة<sup>5</sup>.

#### ب- طاعون الغدد اللمفية أو الطاعون الدبلي (The Bubonic plague):

اشتق اسم هذا الصنف من الكلمة (Buboes) التي تعني الانتفاخ والتورم<sup>6</sup>، وهو أقل الأنواع فتكا، حيث يموت به ما يقارب 50% ومن أعراضه ظهور أورام تحت الإبطيين وعند أصل الفخذين<sup>7</sup> وأحيانا خلف الأذن وفي الحالات المستعصية يحدث نزيف تحت الجلد مما يتسبب في تغير لون

<sup>1</sup> - أنظر: John VI Kantakouzenos ,History of Byzantine Empire,Aberth, Op.cit.,p.p.35-36.

<sup>2</sup> - ابن خاتمة، المصدر السابق، نقلا عن محمد العربي الخطاب، المرجع السابق، ص.181.

<sup>3</sup> - أنظر: Kantakouzenos( John VI), op.cit.,p.36.

<sup>4</sup> - أنظر: Ibid.,p.35.

<sup>5</sup> - أنظر: Idem.

<sup>6</sup> - أنظر: Horrox (R.),op.cit., p.05.

<sup>7</sup> - أنظر: Hirshleifer Jack,Disaster and recovery :The Black Death in Western Europe ,the RAND Corporation ,Santa Monica-California,1966,p.p.04-05.

الجسم، وبعد ثلاثة أو أربعة أيام ينتقل المرض إلى الأعضاء الأخرى، كالرئتين والطحال وفي حالات نادرة إلى الدماغ<sup>1</sup>.

### ج- الطاعون الدموي (The Septicemic plague)

هذا النوع يسبب أضرار بليغة بالقلب وباقي الأعضاء الحيوية ويؤدي إلى نزيف في الأوعية الدموية<sup>2</sup>، فتظهر نفخات سود أو تضرب للحمرة كأنها تفقيع ناري في الجسد مع التهاب وحرارة ثم تنفجر تلك النفخات وت خلفها نكت سود وكثيرا ما تتورم المواضع حولها<sup>3</sup> وقد يموت خلال ساعات من الإصابة به<sup>4</sup>.

## II -انتقال وباء الطاعون إلى القارة الأوروبية

### 1- طرق انتقاله إلى أوروبا :

امتد الوباء من الصين إلى سائر العالم عبر الطرق والقوافل التجارية، فهناك الطريق الذي تسلكه القوافل انطلاقا من الصين باتجاه شمال بحر قزوين مروراً بآسيا الوسطى ووصولاً إلى جبال طوروس وعندها تكون سفنها جاهزة لنقل بضائعها إلى القسطنطينية مركز التجارة العالمية في ذلك الوقت وحلقة وصل بين آسيا، أوروبا وإفريقيا<sup>5</sup>.

أما بالنسبة للمعبر التجاري الثاني فهو من الهند إلى آسيا الصغرى مروراً بالمدن الواقعة جنوب بحر قزوين. أما آخر مسلك فهو بري ، ينطلق من بغداد ويمر على شبه الجزيرة العربية وصولاً إلى مصر ويضاف إليها المعبر البحري الذي يجتاز البحر الأحمر تجاه مصر<sup>6</sup>.

إن هذه المسالك التجارية كانت معبراً للوباء وبالأخص القسطنطينية وموانئ آسيا الصغرى التي اعتُبرت بؤراً للعدوى<sup>7</sup>، إذ اجتاحت الوباء سنة 1346م مدن عديدة ومنها مدينة سَراي (Sarai) (حاليا بالقرب من المدينة الروسية فولغوغراد (volgograd) التي كانت تعج بالتجار وكذا كانت

Horrox (R.), op.cit.,p.06.

Chipley Slavicker (L.),op.cit.,p.p. 34-35.

Aberth (J.), the great mortality,p.24 .

Hecker ,the Black Death in the fourteenth century,p.p.48-49.

Ibid.,p.49.

Idem .

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> -ابن خاتمة، المصدر السابق،ص182.

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> -أنظر:

<sup>7</sup> - أنظر:

عاصمة للقبيلة الذهبية (Golden Hord) المغولية، وقبل ثلاث سنوات أي في عام 1343م أقدم الجيش المغولي بضرب حصار على المحمية الإيطالية كافا (Caffa) <sup>1</sup> بشبه جزيرة القرم على البحر الأسود، فالقبيلة الذهبية كانت تسيطر على كامل القرم بما في ذلك كافا، وفي إطار تعزيز التجارة سمح المغول للتجار الإيطاليين القادمين من جنوة الإشراف على ميناء المدينة، إلا أن العلاقات ما بينهما كانت متوترة باستمرار، وتأزم الوضع بعد مشادات عنيفة وقعت بين بعض التجار الإيطاليين وسكان مدينة تانا (Tana) بشبه جزيرة القرم، أسفرت عن مقتل شخص من المغول، فتوعد المغول بقتل الفاعل، فدب الرعب في قلوب التجار الجنوبيين وفروا ملتجئين إلى اخوانهم الإيطاليين بمدينة كافا، ولما اكتشف المغول ذلك قرروا محاصرة المدينة واخضاع الإيطاليين لسيادتهم <sup>2</sup>.

وقد وصف غابريال دي موسي معاناة المسيحيين جراء هذا الحصار الذي دام ثلاث سنوات، فذكر أن الجيش التتاري حاصر المدينة بإحكام وكنم أنفاسهم <sup>3</sup>، وبينما كان المغول يُطوّقون المدينة، كان الوباء الذي حل بسراي يسري بين القبائل المغولية ومع نهاية 1346 وصل إلى الجنود المحاصرين لمدينة كافا فلقي العديد منهم نجبهم <sup>4</sup>. ففي اليوم الواحد كان يموت الآلاف، فكان هذا الوباء كالسهم التي أمطرت من السماء لتضرب وتسحق غرور التتار، على حد قول غابريال دي موسي وذكر أن وصفات الأطباء لم تنفع أمام هذا الوباء بل إن الموت كان مصير كل من بدت على جسمه الأعراض المتمثلة في أورام تحت الإبط أو على الأربية (أصل الفخذ) متبوعة بحمى شديدة <sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - كافا اليوم هي فيودوسيا بأوكرانيا، تم تأسيسها كمستوطنة من قبل الجنوبيين في 1266م وذلك بعد ترخيص من القبيلة الذهبية التي كانت تحكم تلك المنطقة آنذاك، فكانت من أهم الموانئ التجارية للجنوبيين، إلا أن العلاقة بين المغول والإيطاليين كانت متوترة فحدث أن أقدم خان القبيلة الذهبية (توكتاي) (Toqtai) سنة 1307م باعتقال الإيطاليين المقيمين بمدينة ساري (Sarai) بسبب المنافسة التجارية، فحاصر كافا وصمد الإيطاليون قرابة عام وبعدها أضرموا النار بالمدينة وتركوها. ولم يعرف التوتر بين الطرفين انفراجا إلا بعد وفاة هذا الخان عام 1312م، فتحسنت العلاقات بينهما ورحب الخان الجديد بعودة الإيطاليين إلى كافا، وتنازل لهم عن قطعة أرض بتانا (Tana) لتوسيع تجارتهم، فأصبحت كافا في سنة 1340م من أشد المدن تحصينا بفضل أسوارها المنيعة، وارتفعت نسبة سكانها المكونة أساسا من الجنوبيين، البنادقة، اليونان، الأرمن، اليهود، المغول والأتراك. للمزيد أنظر:

Wheelis Mark ,Biological Warfare at the 1346 siege of Caffa, Emerging Infectious Diseases, N 09, Atlanta ,September 2002, P.P.971-972.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.p.41-42.

Horrox(R.), op.cit., p.17.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.p.41-42.

Horrox (R.), op.cit., p.17.

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

دُهل المغول من هول ما أحدثه الوباء وفقدوا الأمل في النجاة، لذلك صرفوا اهتمامهم عن الحصار المفروض على كافا، ومع ذلك كله عملوا على جمع الجثث ووضعها بالمنجنيق ليتم قذفها داخل مدينة كافا على أمل أن تقتل الرائحة النتنة كل من يتواجد بالمدينة، والمسيحيون لما رأوا هذه الجثث لم يفروا منها وإنما طرحوا ما أمكنهم حمله من الجثث في البحر، فتسببت هذه الأجساد المتعفنة بعد فترة وجيزة في فساد الهواء وتسميم منابع المياه فاستشرى الوباء الذي كان ينتقل من شخص لآخر بمجرد النظر على حد قول غابريال دي موسي.<sup>1</sup>

يُعتبر ما أورده غابريال دي موسي في حوليته حول رشق الجثث الموبوءة ونقل الوباء من المحاصرين إلى المحاصرين من أولى الحروب البيولوجية حتى وإن لم تكن هناك استراتيجية محكمة لذلك من قبل المغول إذ بقيت المدينة بيد الإيطاليين في حين انسحب الجيش المغولي بسبب الوباء.<sup>2</sup> والأهم أن هذا الفعل كان واحدا من الأسباب التي ساهمت في نقل الوباء من الشرق إلى الغرب .

فمن كافا شق الوباء طريقه عبر البحر إلى أوروبا، وذلك بعد أن لاذ بالفرار بعض البحارة الحاملين للمرض (المبوءين) من كافا متوجهين بقواربهم إلى بلدهم إيطاليا<sup>3</sup> وقد ذكر ميشال دي بيازا في حوليته أنهم كانوا اثني عشر قاربا وأنهم حملوا معهم الوباء في عظامهم<sup>4</sup>، فبعض هذه السفن أبحرت إلى جنوة والبعض الآخر إلى البندقية ومختلف مناطق العالم المسيحي، وبمجرد وصول هؤلاء البحارة إلى هذه المناطق تفشى الطاعون بين الناس بعد مخالطتهم وكأنهم جلبوا معهم الأرواح الخبيثة على حد قول غابريال دي موسي، وهكذا سرت العدوى من مدينة إلى مدينة ولقي القاطنون بها نحبهم رجالا ونساءً، فمجرد ما يُصاب فرد واحد من العائلة فإنه ينقل العدوى إلى البقية.<sup>5</sup>

وبهذا عم الوباء كامل أوروبا في ظرف وجيز ما بين 1347 إلى 1349م محدثا الرعب والهلع وسط السكان، خلفا آثارا مفعجة على كامل المستويات.

Horrox (R.),op.cit.,p.17.

Wheelis Mark ,**Biological Warfare at the 1346 siege of Caffa**,p.974.

Horrox,(R.)op.cit.,p.18 .

Da Piazza (Michele),**Chronicole 1347-1361**,published by Aberth(J.) , the black death Great mortality,p.29.

Horrox(R.),op.cit.,p.p .18-19.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

## 2-انتشار الوباء بمدن أوروبا:

من السواحل الشرقية للبحر الأسود انتقل الطاعون إلى قبرص في 1347م وكذا صقلية، مرسيليا وبعض الموانئ البحرية الإيطالية، ليمتد بعدها إلى تباعا باقي جزر البحر المتوسط : سردينيا، كورسيكا ومايوركا، وبعدها انتقل إلى أكثر المناطق حيوية وهي السواحل الجنوبية لأوروبا فمس الوباء في جانفي من عام 1348م مدينة أفنيون وباقي مدن جنوب فرنسا وكذا بشمال إيطاليا<sup>1</sup> والإمبراطورية الألمانية. وفي ربيع سنة 1348م وصل الوباء الأسود إلى جزر البليار ومنها إلى شبه جزيرة إيبيرية، ليضرب كلا من ممالك أراغون، قشتالة، نافار والبرتغال، وفي سنة 1349م وصل الوباء إلى شمال أوروبا، وحط رحاله في روسيا سنة 1350م<sup>2</sup>.

## أ- بإيطاليا :

إن أول بقعة أصابها الوباء بأوروبا هي مسينا (Messina) شمال صقلية في أكتوبر سنة 1347م وهذا حسب ما أورده ميشال دا بيازا ( Michele Da Piazza ) في حويلته، ليقوم بعدها سكان مسينا بنقل العدوى إلى كامل جزيرة صقلية ، مما تسبب في قتل العديد من الناس في مدينة سرقوسة (Syracuse) ومدن أخرى كسيكا (Sicacca)، تراباني (Trapani) ومدينة أجرينيتو (Agrigento) ، وقد عانت كل هذه المدن من ويلات هذا الوباء وخاصة مدينة تراباني التي فقدت معظم سكانها<sup>3</sup>.

شعر سكان صقلية بالذعر الشديد فلابدوا بالفرار إلى المناطق المجاورة حاملين معهم المرض مما أسهم في تفشي الوباء، ففي ديسمبر ضرب كلا من سردينيا، كورسيكا وجزيرة إلبا (Ilba) بتوسكانيا<sup>4</sup>، وانتقل إثرها الوباء إلى أغلب موانئ المدن الإيطالية بما فيها جنوة، البندقية وبيزا (Pisa) وقد نُقلت العدوى إليها من طرف السفن التجارية القادمة من موانئ القرم والشرق الأوسط، وبحلول شتاء 1348م حل الوباء على فلورنسا وقتل بها ما يقارب 60000 شخصا<sup>5</sup>، ثم نزل بيسيينا

<sup>1</sup> -أنظر: Hecker, the black death in the fourteenth century, p.50.

<sup>2</sup> -خوليو فالديون باروك، الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر، ص.254. للتوضيح أنظر الخريطة رقم 07 ص.147.

<sup>3</sup> -أنظر: Da Piazza ( M.), op.cit., p.p.29-30.

<sup>4</sup> -أنظر: Benedictow Ole J., The Black death 1346-1353 The Complete History ,The

Boydell Press, Woodbridge-U.k., 2004, p.71.

<sup>5</sup> - أنظر: Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.44,45,46.

(Cesena) في الفاتح من شهر جوان، وبعد الانتشار في كامل ربوع إيطاليا امتد الوباء إلى فرنسا وألمانيا إنجلترا والسويد في نوفمبر من نفس السنة، وبولندا أيضا ضربها في 1349م ويُحتمل أنه انتقل إليها من ألمانيا أما روسيا فلم يظهر بها إلا في عام 1351م<sup>1</sup>.

#### ب - فرنسا:

انتقل الوباء إلى مرسيليا بجنوب فرنسا في جانفي 1348 عبر السفن التي أبحرت من ميناء جنوة باتجاهها، فكان عدد الموتى كبيرا حيث حصد الوباء خلال هذا الشهر سبعة وخمسين ألف شخصا من سكان مرسيليا وما جاورها<sup>2</sup>. ومن مرسيليا انتشر الوباء بسرعة متجها شمالا عبر نهر الرون وزحف غربا عبر منطقة لانجدوك ثم عرج على مدينة مونتيليبي (Montpellier) التي كان بها حجم الكارثة أكبر، فمن بين اثني عشر قنصلا كان يموت عشرة، وجماعة الدومينيكان (Dominicans)<sup>3</sup> التي كانت تضم 140 عضوا لم ينبج منهم سوى سبعة أفراد<sup>4</sup> وبمدينة أفنيون التي ظهر فيها الوباء في شهر جانفي من هذه السنة، ودام بها سبعة أشهر، ذكر الطبيب الجراح دو شولياك أنه خلال ثلاثة أيام فقط كان يموت ألفا وأربعمائة شخص<sup>5</sup>.

أما بمدينة نربون (Narbonne) جنوب فرنسا فقد جرف الوباء ثلاثين ألف نسمة، في حين هلك غالبية سكان مدينة أرل (Arles) وهكذا انتشر الوباء طولا وعرضا بكامل فرنسا غربا وشمالا، وقبل نهاية شهر أفريل وصل إلى مدينة تولوز (Toulouse) غربا، وفي أوت عانت مدينة بورردو هي الأخرى من ويلات هذا الوباء وقد صادف ذلك وجود ابنة الملك الإنجليزي إدوارد الثالث هناك، إذ كانت في طريقها للزواج ب بيدرو (Pedro) بن ملك قشتالة، لكن توفيت بهذه المدينة الموبوءة. أما شمالا فقد استمر الوباء بالتفشي في باقي مناطق فرنسا كبرغنديا، نورمادي، حاصدا المئات من

<sup>1</sup> - أنظر: Hecker, op.cit., p.p.50-51.

<sup>2</sup> - أنظر: Gasquet (F. A.), op.cit., p.39.

<sup>3</sup> - (Dominicans): أسس هيئة الدومينيكان القديس دومينيك (St Dominic) (1170-1221) سنة 1215 م وسميت بهيئة الرهبان المبشرين، كما أنهم يُعرفون ب:الرهبان السود، بعضهم مكرسين للتبشير بالإنجيل وكانوا يعملون بجد لمحاربة البدع والهرطقة، كما ركزوا أيضا على التعليم حيث يروونه ضروريا للتبشير وكذا من أجل المحادلات اللاهوتية، كانوا يُفضلون دائما الإقناع في تبشير الناس واعتناق المسيحية، في سنة 1219 التقى ملك اسكتلندة ألكسندر بالقديس دومينيك في باريس وعندها طلب منه إيفاد بعض أعضاء هيئته إلى اسكتلندة وفي 1221 قدموا لأول مرة إلى إنجلترا. أنظر:

Corèdon(Ch.) and Williams (A.) , a dictionary of medieval terms,p.105.

<sup>4</sup> - أنظر: Gasquet, op.cit., p.p.40,42.

<sup>5</sup> - أنظر: de Chauliac (G.), op.cit., p.169.

السكان، فنورماندي وصل إليها في الخامس والعشرين من شهر جويلية ليداهم بعدها مناطق أخرى كجاسكوني، بواتو، بريتاني وبيكاردي، متسببا في هلاك ثلثي سكان هذه المدن، ومدينة باريس جاوز عدد الموتى خمسين ألفا وكان من بينهم الملكة جونا دو نافار (Joan de Navarre) ابنة الملك لويس العاشر، وكذا الملكة جونا دو برغنديا (Joan de Burgandy) زوجة الملك فيليب دو فالوا (philip de valois). ومدينة سان دوني (St.Denis) بلغ عدد الموتى 16000 شخصا<sup>1</sup> وارتفع بمدينة أميان (Amiens) شمال فرنسا إلى 17000 فردا، والواضح أن نسبة الوفيات لم تصل إلى أعلى المستويات إلا في صيف العام الموالي من سنة 1349م، خاصة بتورناي بالفلاندرز التي وصل بها عدد الموتى إلى 25000 شخص. ومن صقلية، سردينيا وكورسيكا شد الوباء الرحال إلى جزر البليار حيث خلف دمارا بمايوركا التي مات جرّاءه 15000 شخص في أقل من شهر<sup>2</sup>.

### ج -إسبانيا :

حلت وباء الطاعون بإسبانيا في غضون عام 1348م، وكان أول ظهور له بها في ألميرية، في حين صارت كل أحياء مدينة برشلونة مهجورة بسبب هذا الوباء<sup>3</sup>، الذي عصفت بها في شهر مارس وفي الفاتح من شهر ماي أصاب مدينة تاراغونة (Tarragona) التي تبعد مسافة 85 كلم جنوب غرب برشلونة، وفي نفس الشهر اجتاحت أيضا كلا من جيرونة (Gerona) التي تقع شمال شرق برشلونة وتبعد عنها مسافة 90 كلم<sup>4</sup> وكذا بلنسية (Valencia) التي كان يموت بها في اليوم 300 شخص أما بسرقسطة (Saragossa) فإن الوباء عرف ذروته بها في شهر سبتمبر<sup>5</sup> وفي ربيع 1349م استمر الوباء بالانتشار في المناطق المتبقية ليحتل في أقل من عامين كامل شبه الجزيرة الإيبيرية التي تتربع على مساحة 600.000 كلم<sup>2</sup>.<sup>6</sup>

لقد عانت مدن وقرى إسبانيا الأمر جراء هذا الوباء إذ يبدو أن زيارته طالت كثير مقارنة بباقي المناطق الأوروبية، وكانت ملكة أراغون من أولى ضحاياه وملك قشتالة ألفونسو الحادي العاشر

Gasquet,op.cit.,p.p.,52,53,54.

Ibid., p.57 ,61,66.

Ibid.,p.66.

Benedictow Ole J.,op.,cit.,p.80.

Gasquet,op.cit.,p.67.

Benedictow Ole J.,op.,cit.,p.89.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> -أنظر:

<sup>6</sup> -أنظر:

(Alfonso XI) آخرهم وكان ذلك في مارس من سنة 1350 أين كان يضرب حصارا على منطقة جبل طارق (Gibraltar) وقد رفض رفع الحصار رغم تفشى الطاعون حينها بين جنوده، ليسقط فريسة للوباء ويفارق الحياة في يوم الجمعة السادس والعشرين من مارس سنة 1350م.<sup>1</sup>

ومن شمال شرق إيطاليا عبر الوباء الألب ودخل إلى سويسرا، أوستريا وجنوب ألمانيا لينتقل بعدها إلى وسط أوروبا ويحتاج هنجاريا<sup>2</sup> في ربيع 1348م وهي الأخرى ألحق بها الوباء العديد من الضحايا ليمتد بعدها إلى المناطق المحاذية لها حيث ضرب إستريا (Istria) وتسبب في هجر السكان لديارهم خاصة بمدينة بولا (Pola)، ومن البندقية تابع الوباء مسيرته شمالا باتجاه أستراليا (Austria) وهنجاريا (Hungary) فصرّب كلا من بادوا (Padua) وفيرونا (Verona) وامتد بعدها عبر نهر (Etsch) ليصل إلى ترانت (Trent) في الثاني من شهر جوان سنة 1348، ثم انتشر سريعا عبر بوتزن (Botezn) وبرينر (Brenner Pass) ويصل إلى (Muhldorf) بيفاريا في التاسع والعشرين من شهر جوان من نفس السنة<sup>3</sup>.

سويسرا (Switzerland) هي الأخرى انتقل إليها الوباء من شمال إيطاليا ومن جانب آخر عبر فرنسا، ومن جنيف (Geneva) وبعد عبور نهر الراين اجتاحت كلا من بازل (Basle) وكولمار (Colmar) وصل إلى ستراسبورغ (Strasbourg) و فرانكفورت في صيف 1349م، وفي شتاء العام نفسه، بالضبط في الثامن عشر من شهر ديسمبر ضرب كولونا (Cologne). وما بين عام 1349 و 1350م انتشر الوباء بمدن ومناطق متعددة من بروسيا (Prussia)<sup>4</sup>

#### د-الأراضي الإسكندنافية :

امتد الوباء عبر الفلاندرز في ديسمبر 1349م إلى هولندا (Holland) أما بالنسبة للدنمارك (Denmark) والنرويج (Norway) والسويد (Sweden) فقد انتقلت إليها العدوى عبر إنجلترا، فهذه الأخيرة كانت تربطها علاقات تجارية بحرية واسعة مع الدنمارك ومنها انتقل إلى باقي الأراضي الإسكندنافية: النرويج، السويد وكذا أيسلاندا (Iceland) ليحتل بعدها اسكتلندا (Scotland) في نفس العام حيث يُحتمل أنه انتقل إلى هذه الأخيرة من إنجلترا عن طريق الجنود

Gasquet, op.cit., p.67.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.48.

Gasquet, op.cit., p.p.69-70.

Ibid, p.72, 75.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

الاسكتلنديين، وفي العام الموالي أي 1350م وصل الوباء إلى غرينلاند (Greenland) وفي نفس العام أصاب الوباء ولأول مرة شرق أوروبا التي لم تشهد انتشارا واسعا له مقارنة بمناطق أخرى من أوروبا ذلك انما لم تكن على اتصال خارجي واسع، وفي أواخر عام 1351م ضرب الوباء روسيا للمرة الأولى وموسكو في عام 1352م<sup>1</sup>.

#### هـ- إنجلترا:

يُحتمل أن الوباء انتقل إلى إنجلترا عبر كالي (Calais) الفرنسية التي كانت في هذه الأونة بحوزة الإنجليز والتي كان قد اجتاحتها الوباء في شهر أوت من سنة 1348م، ومنها امتد إلى إنجلترا في الخريف إثر فرار بعض السكان منها قاصدين بقواربهم إنجلترا، فكانت أول بؤرة مسها الوباء هي ميناء دورسشير (Dorsetshire) ومنه دخل إلى المدينة وجردّها من السكان ثم امتد بعدها إلى دوفون (Devon)، سومرسات (Somerset) وبريستول (Bristol)<sup>2</sup>.

ويذكر أنه بمجرد وصول الوباء إلى المناطق المحاذية لانجلترا، بادرت السلطات الدينية بتقديم النصائح التي من شأنها أن تخفف من غضب الله، فقام الأساقفة بكتابة العديد من الرسائل باللغة الإنجليزية وبكلمات مبسطة حتى يتسنى للعامة فهمها، تحثهم فيها بضرورة التعجيل بالتوبة والإعتراف بخطاياهم، فكانت أولى هذه الرسائل التي كتبت في هذا الشأن في أواخر شهر جويلية 1348م من طرف رئيس أساقفة يورك (York) ولنكولن (lincoln)، وفي منتصف شهر أوت طلب الملك إدوارد الثالث من رئيس أساقفة كانتربري (Canterbury) أن يجمع الناس بمقاطعته ليصلوا ويتضرعوا للخالق حتى يصون إنجلترا من هذا الوباء إليها، ورد الفعل هذا تقليد متوارث في هكذا نكبات سواء حروب أو مجاعات أو أوبئة، ويعود إلى القرن السادس الميلادي، وقد وضحت هذه الرسائل سرعة إنتقال الوباء في أوروبا واحتمالية دخوله للأراضي الإنجليزية<sup>3</sup>، ووصفوا فظاعته وأنه غضب من الله على سيئاتهم. ونفس الشيء فعله أسقف باث (Bath) وويلز (Wells) إذ راسل كل أبرشياته يأمرهم بالتجمع سواء في مواكب أو أمام الأبرشية أو الكنيسة في كل جمعة والتوسل إلى الله ليحمي شعبهم

Slavicek(L.CH.),,op.cit.,p.48.

Gasquet,op.cit.,p.p. 82-83.

Hecker,the black death in the fourteenth century,p.109.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

من هذا الوباء القادم من الشرق إلى المناطق المحاذية لمملكتهم كما منح الغفران مدة أربعين يوما لكل من يشارك في هذا التجمع للصلاة والتصدق على أمل اتقاء غضب الله عليهم<sup>1</sup>.

وبهذا انتشر الوباء في كامل أوروبا مسببا الهلع والذعر وسط السكان ومخلفا العديد من الموتى الذين امتلأت الطرقات بجثثهم ولم يعد هناك من الأحياء من يتكفل بهذا الكم الهائل من القتلى، وحتى المقابر لم تعد تسعهم، فمن أسعفه الحظ في النجاة لاذ بالفرار تاركا وراءه خلائه وممتلكاته متخطيا بذلك كل العرى التي تربطه بأهله، لتدخل بذلك أوروبا في دوامة كبيرة لم تعرف أبدا طريقا للخروج منها فلا رجال الدين بصلواتهم وتضرعاتهم دفعت هذا الوباء ولا الملوك والحكام بتدابيرهم الوقائية وضعت حدا لانتشار هذا الشبح المميت ولا الأطباء بوصفاتهم العلاجية استطاعوا أن يقضوا على هذا المرض الخبيث، بل بقي الناس يتخبطون ويعانون من هجمات الطاعون التي لم تميز لا بين الصغير والكبير، ولا بين النساء والرجال، ولا بين الغني والفقير بل كل منهم تجرع مرارة وألم هذا الوباء المميت فكانت انعكاساته وخيمة جدا عليهم اجتماعيا اقتصاديا وثقافيا.

# الفصل الثالث:

## انعكاسات الوباء على الأوضاع

### العامة بأوروبا

#### I-انعكاسات وباء الطاعون على الجانب الاجتماعي

1-أثر الوباء على المجتمع الأوروبي

2-أثر الوباء على الأقلية اليهودية

#### II -الانعكاسات الدينية للوباء

1-المعتقدات الدينية ومرض الطاعون

2-حركة التوايين السائطين (Flagellants)

3-رد فعل الكنيسة والنبلاء وعامة الناس

4-تأثير الوباء على المؤسسات الدينية

#### III- انعكاسات الوباء على الجانب الاقتصادي

1-الزراعة

2-الصناعة والتجارة

#### IV-انعكاسات الوباء على الجانب الفني ،الثقافي والأدبي

1- الجانب الفني

2-الجانب الثقافي

3- الجانب الأدبي

## I-انعكاسات وباء الطاعون على الجانب الاجتماعي

### 1-أثر الوباء على المجتمع الأوروبي

أثار الوباء هلعاً كبيراً وسط المجتمع الأوروبي وتسبب في انخفاض محسوس لعدد السكان<sup>1</sup>، والحقيقة أنه يتعذر ضبط تعداد الوفيات جراء هذا الوباء، ذلك أن المعاصرين له لم يُحددوا بدقة عدد الضحايا باستثناء الإحصاءات التي قدمها البابا كلمنت، فأجنولو دي تورا (Agnolo Di Tura) ذكر أنه في سبتمبر من سنة 1348م توفي بمدينة سينا (Sienna) الإيطالية وحدها ستة وثلاثون ألف شخص، ليرتفع العدد إلى ثمانين ألفاً فيما بعد<sup>2</sup>، وبجنوة كان ينجو واحد من سبعة أشخاص، وبالبندقية تعدت نسبة الوفيات 70% أما باقي المناطق الإيطالية كصقلية وأبوليا فقد خلت من السكان تماماً<sup>3</sup>، أما بانجلترا فقد هلك ما بين 20 و 25% من سكانها أما الإحصائيات بألمانيا فتشير إلى أن نسبة الموتى في كل من مدائن هامبورغ، وبرمن، ومجدبورغ قد بلغت 50 %، كذلك كانت نسبة الوفيات مرتفعة في كل من بيرس، تورناي في فرنسا وفي باريس هلك ما يُقارب 25 % من سكانها<sup>4</sup>، فهذا الوباء حصد عدداً هائلاً من الناس من مختلف الأجناس والطبقات وهو على حد قول المؤرخ نيكفور (Nicephorus Gregoras) عن الوباء فهو "لا يُميز لا بين النساء والرجال، ولا بين الفقير والغني ولا بين الصغار والكبار"<sup>5</sup>، ومن شدة هول هذه الكارثة التي أملت بأوروبا عجز المعاصرون له حتى عن وصفه فيقول أجنولو دي تورا أن الكلمات لا يمكنها وصف فظاعة هذا الوباء<sup>6</sup>.

وحسب تقديرات الوكلاء الذين كلفهم البابا كلمنت السادس سنة 1351م بإحصاء تعداد ضحايا الوباء في كل أوروبا المسيحية فإن العدد بلغ 23,840,000 ضحية، فيما كان تعداد نسبة سكان أوروبا قبل الوباء قدرت ب 75 مليون نسمة أي أن الوباء حصد ما يقارب 31% من

<sup>1</sup>-أنظر: Byrne Joseph Patrick, the Black death, Greenwood Press, London, 2004, p.57.

<sup>2</sup>-أنظر: Jean de Venette, chronicle, published by Aberth(J) In Black Death the Great Mortality, p.82.

<sup>3</sup>-أنظر: Gabriele de' Mussis, Historia de Morbo, published by Horrox(R.), op.cit. p.20.

<sup>4</sup>-خوليو فالديون باروك، الوباء الأسود في عالم القرن الرابع عشر، ص.256.

<sup>5</sup>-أنظر: Nicephorus Gregoras, Byzantine History, published By Aberth(J.), op.cit., p.15.

<sup>6</sup>-أنظر: Agnolo Di Tura, Sienese Chronicle, published by Aberth(J.), op.cit., p.81.

مجموع سكان هذه القارة<sup>1</sup> وتتوافق هذه النسبة مع رواية فرواسار مفادها أن الوباء أتى على ثلث سكان أوروبا<sup>2</sup>.

غطى الوباء أوروبا بردائه الأسود، إذ امتلأت الطرقات بالجثث ولم تعد المقابر تسع هذا الكم الضخم من الموتى وتجاوز عدد الأحياء وصار الأب لا يجد من يقوم بدفنه، وخلت المدن من السكان<sup>3</sup>، بل إن بعضها اختفى من الوجود تماما وطُمت من الخريطة<sup>4</sup>. وقد غادر الكثير من الرجال والنساء مدنها، وهجروا أملاكهم وبيوتهم وأقربائهم باحثين في الريف عن ملاذ لهم<sup>5</sup> كما هو الشأن بسينا التي غادرها من بقي حيا وقُدرت بعشرة آلاف شخص، تاركين منازلهم وثرواتهم من ذهب وفضة<sup>6</sup>.

أما سكان مسينا (Messina) فإنهم امتنعوا عن دخول المدينة الموبوءة أو حتى المرور بقربها، فنصبوا خيامهم في العراء بعيدا عنها، في حين هاجر أغلبية سكانها إلى مدينة كاتانيا (Catania) لاعتقادهم أن العذراء المباركة أغاثا (Agatha) بكتانيا ستخلصهم من هذا الوباء، كما التمسوا النجدة من بطريك (Patriarch) المدينة عبر عريضة أبدوا فيها خضوعهم له، وطلبوا منه أن يذهب شخصيا إلى مدينة مسينا مصطحبا معه بعضا من رفاة القديسة أغاثا، إيقانا منهم أنه بمجرد وصول رفاتهما إلى المدينة سينجلي عنها الوباء نهائيا، إلا أن سكان مدينة كاتانيا رفضوا ذلك وتوجهوا كلهم إلى أسقف المدينة وأخبروه بأن ما سيُقدم عليه لا يسرهم، كما أنهم انتزعوا مفاتيح الكنيسة من حارسها ووبخوا أسقفها وخبروه الموت على أن ينقل رفاة القديسة إلى مسينا، وأمام هذا الوضع لم يكن بمقدور الأسقف فعل أي شيء، فقرر دخول الكنيسة أين ترقد القديسة أغاثا يرافقه بعض الرهبان، رتلوا الأناشيد الدينية وأقاموا الصلوات المقدسة، ثم غسلوا رفاة القديسة بماء مطهر، ثم حمل الأسقف ذلك الماء المقدس واستقل قاربا باتجاه مدينة مسينا وأخذ معه إلى هناك<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: Gottfried Robert S., the Black death Natural and Human Disaster in Medieval Europe , Free Press edition, New York, 1985, p.77.

<sup>2</sup> - أنظر: Froissart, Chronicles, p.111.

<sup>3</sup> - أنظر: Agnolo Di Tura, op.cit., p. 82.

<sup>4</sup> - أنظر: James Hanley and Elizabeth Turner , Age in medieval plagues and pandemics: Dance of Death or Pearson's Bridge of life ?, June 2010, p.85.

<sup>5</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص 42.

<sup>6</sup> - أنظر: Agnolo Di Tura , op.cit ., p.82

<sup>7</sup> - أنظر: Michele Da Piza , Chronicle, published by Aberth(J.) , op.cit., p.101.

وذكر دي بيازا أن هذا الماء المبارك شفى كل مريض رُش به بمدينة مسينا، وأن سكانها توجهوا بأعداد غفيرة لرؤية الأسقف لتقديم الشكر له والله<sup>1</sup>، أما عن صدق هذا فإنه لا يمكن لأحد الجزم به، فظاهرة التوسل للقديسين والاعتقاد ببركتهم في الشفاء من أي مرض كانت سائدة في أذهان الكثيرين سواء في أوروبا أو العالم الإسلامي. ولكن الحقيقة كانت أمر من ذلك لأن هذا الوباء لم ينحسر فهو كما قال عنه بوكاتشو "لم تُجدِ أية احتياطات أو عناية بشرية... أو الإبتغال لله في مواكب جماعية، أو بالتضرع للناس الأتقياء".<sup>2</sup>

تعتبر عادة التوجه إلى القديسين في أوروبا والتضرع إليهم موروثا عن الموجة الوبائية الأولى التي اجتاحت القارة في القرن السادس الميلادي زمن الإمبراطور جستنيان، فالبابا غريغوار الذي حمل على عاتقه مهمة حماية مدينة روما، شدد في خطابه الذي ألقاه في أبريل سنة 590م، أن الملاذ الوحيد هو الإقبال على التوبة، وأمر الناس بالخروج في موكب خاشع، وقد ذكر البعض أن البابا كان يحمل في هذا الموكب صورة مريم العذراء، وفي اعتقاده أن ذلك ما جعل الهواء الموبوء يتنحى عن الأمكنة التي ارتادتها المسيرة، وبفضل هذه اللوحة الزيتية استرجع الهواء كامل نقاوته، وبهذا احتلت مريم العذراء الصدارة في طرد طاعون القرن السادس، وكرر الناس اللجوء إليها إثر طاعون 1348م وقام الفنانون برسم عدة لوحات لها تُجسد قدرتها على حماية الناس وكف سهام الطاعون عنهم.<sup>3</sup>

ثم إن هناك شخصية أخرى رسخت في أذهان المسيحيين على أنها تدفع الوباء وهو القديس سباستيان (Saint Sebastian)<sup>4</sup>، الذي تجلت بركته في القضاء على الوباء الذي حل بروما سنة 680م، واستنجد به الناس مجددا لازاحة وباء عام 1348م، ولم تعد كنيسة تخلو من لوحات هذا القديس مجسدة إياه وهو يرشق سهامه في وجه الطاعون<sup>5</sup>، ولكن كل هذه التوسلات للقديسين لم تُجدِ نفعا بل ظل شبح الموت يطارد الناس من مكان إلى آخر. ولم يسلم السكان الفارين من مسينا

<sup>1</sup> —أنظر: Michele Da Pizza ,op.cit.,p.102.

<sup>2</sup> —بوكاتشو، المصدر السابق، ص. 40.

<sup>3</sup> — حسين بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون، ص. 477. أنظر الملحق رقم 03 ص 143.

<sup>4</sup> — كان سباستيان واحدا من الحرس الإمبراطوري في عهد الإمبراطور ديوقليسيانوس (Diocletian) (284-305م) وخلال اضطهاد المسيحيين سنة 288م. أبدى سباستيان تعاطفه معهم فاستغفر ذلك الإمبراطور وأمر بإعدامه، فُرِشق بالسهم، لكنه لم يمُت، وبعد فترة انتقد الإمبراطور على معاملته الوحشية للمسيحيين، عندها تم ضربه حتى الموت. وقد جُسدت هذه الحادثة في لوحات فنية في القرن التاسع عشر، معتبرين سباستيان شهيدا وشبهوا السهام التي رُشق بها بوخزات الطاعون. أنظر:

Armand P. Gelpi, **Saint Sebastian and the Black Death**, Vesalius, N 04, 1988, p.p.23-24.

<sup>5</sup> —بوجرة حسين، المرجع السابق، ص. 478.

من الموت الذي لحقهم إلى كتانيا، فبعضهم أدركه في الطريق والبعض الآخر لفظ أنفاسه الأخيرة بمستشفيات المدينة، والأدهى هو منع دفن هؤلاء اللاجئين بمدينة كتانيا، بل أُلقيت جثثهم خارج أسوارها، كما امتنع السكان أيضا عن التكلم مع القادمين من مسينا -خوفا من العدوى-، ورغم كل هذا فقد بسط الطاعون جناحيه على مدينة كتانيا وتمكن منها هي الأخرى.<sup>1</sup>

ثم إن المناطق الريفية لم تكن بأحسن حال من المدن، فهي أيضا مسها الوباء وأودى بحياة الكثيرين، حتى أن الأراضي الزراعية لم يعد هناك من يقوم بخدمتها، ناهيك عن فظاعة الوضع الذي كان سائدا هناك على حد قول أجنولو دي تورا في حويلته: "ليس باستطاعتي كتابة ما آل إليه الوضع هناك فالذئب وباقي الحيوانات البرية تنهش الجثث المدفونة، علاوة على ذلك هناك أمور مروعة وهرية يصعب على أي شخص الاطلاع (قراءتها) عليها في هذه الحولية (يقصد حويلته)<sup>2</sup>، وحتى وحوش البرية نزحت من الجبال وهاجمت من بقي حيا من سكان المدينة".<sup>3</sup>

وبخصوص ظاهرة الفرار من المناطق الموبوءة لم تكن شائعة بين العامة فقط بل حتى بين الملوك، فملكة صقلية لاذت بالفرار إلى كتانيا وأرسلت إلى ابنها السيد فريدريك (DonFrederick) ليلحق بها.<sup>4</sup> وهذا على عكس ما كان في العالم الإسلامي إذ نهي الرسول صلى الله عليه وسلم الفرار من المكان الذي يقع فيه الطاعون وفي ذلك حكمة بقوله: "إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فَرَاراً مِنْهُ".<sup>5</sup>

تأزم الوضع بأوروبا فقد كان الناس يموتون ولا يجدون من يقوم بدفنهم من الأصدقاء ولا حتى ممن يقوم بذلك مقابل المال<sup>6</sup>، ولا أحد يستطيع مساعدة الآخر سواء كان من الجيران أو

Gasquet(F.A.),op.cit.p.p.16-17.

<sup>1</sup> -أنظر:

Agnolo Di Tura ,op.cit .,p.82

<sup>2</sup> -أنظر:

Gasquet(F.A.), op.cit.,p.69.

<sup>3</sup> -أنظر:

Ibid.,p.16.

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> -أما نهي عن الخروج من بلده ففيه معنيان، أحدهما حمل النفوس على الثقة بالله والتوكل عليه والصبر على أقضيته والرضى به، أما الثاني ما قاله أئمة الطب: أنه يجب على كل محتز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات ويُقلل الغذاء ويميل إلى التدبير المحفف من كل وجه إلا الرياضة والحمام، ولا يُمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة وهي مضرة جدا وبهذا ظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي . أما في المنع من الدخول إلى الأرض التي وقع بها عدة حكم منها: تجنب الأسباب المؤذية والبعد منها، أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيمرضون، ألا يجاوروا المرضى فيحصل لهم مجاورتهم من جنس أمراضهم . أنظر: ابن قيم الجوزية، المصدر السابق، ص. 28، 32، 33.

Agnolo Di Tura ,op.cit .,p.81.

<sup>6</sup> -أنظر:

الأقرباء<sup>1</sup> فكثرت المآتم ولم تعد الأماكن تكفي لدفن هذا الكم الهائل من الموتى ولهذا كان الرجل وزوجته، الأب وابنه، الأم وابنتها يُدفنون في مكان واحد<sup>2</sup> فأجنولو دي تورا يتحدث عن نفسه قائلاً :  
"أنا أجنولو دي تورا قمت بدفن خمسة من ابنائي بيدي" <sup>3</sup> .

ومن شدة الذعر لم يكن أحد يتجرأ على مس أغراض الموتى أو استعمال ملابسهم، أو حتى لمسها بأيديهم<sup>4</sup> فهم يعتقدون أن تجنب المرضى والنفور منهم ومن أشياءهم يقيهم شر العدوى ويُقيهم على قيد الحياة<sup>5</sup> ليس هذا فحسب، بل إنهم امتنعوا حتى عن أكل الأسماك التي بالبحر والتوابل التي تم جلبها عبر السفن القادمة من الشرق بدعوى أنها موبوءة<sup>6</sup>، وبهذا غابت وماتت القيم الاجتماعية فلم يعد الأب يزور ابنه، والابن هو الآخر لا يزور والده<sup>7</sup>، والأم لا تزور ابنتها، والأخ كذلك بالنسبة لأخيه ولا الصديق لصديقه بل إن كل واحد تخلّى عن الآخر، فالآباء تركوا أبناءهم والنساء هجرن أزواجهن والأخ تخلّى عن أخيه، فالخوف من العدوى كان سبباً في هجر الناس لبعضها البعض<sup>8</sup>، وحتى الأطباء أحجموا على زيارة المرضى مخافة العدوى<sup>9</sup>، والكتّاب والقضاة الموثقين أيضاً امتنعوا عن تقديم خدماتهم التي تقتضي كتابة وصية المحتضرين، وحتى القساوسة لم يأتوا إلى المحتضرين للإصغاء لاعترافاتهم<sup>10</sup> .

لقد حل الوباء عُرى الوحدة بين الأسر والمجتمع وكشف الغطاء عن ما تكنه النفس البشرية من حب للذات وخوف من الموت، وطعنها بحق في الصميم وأفقدتها الشعور بأقرب الناس إليها، وقد قدم لنا بوكاتشيو من فلورنسا جانباً آخر عن الحالة التي آلت إليها الحياة الاجتماعية عقب الوباء، ذلك أن الخوف من العدوى والموت، ولّد لدى الناس هواجس عدة ترجموها في عدة سلوكيات، فالبعض اعتقد أن الاعتدال في العيش والابتعاد عن كل إفراط، سيعينهم على تجاوز هذه المحنة

Aberth(J.),op.cit.,p.15

Gabriele de' Mussis,op.cit.,p.19,21.

Agnolo Di Tura ,op.cit .,p.81.

Gabriele de' Mussis,op.cit.,p.20.

Gasquet(F.A.),op.cit.,p.48.

de Chauliac (G.),op.cit.,p.170.

Agnolo Di Tura ,op.cit .,p.81.

de Chauliac (G.),op.cit.,p.171.

Gasquet(F.A.),op.cit.,p.15.

<sup>1</sup> —أنظر:

<sup>2</sup> —أنظر:

<sup>3</sup> —أنظر:

<sup>4</sup> —أنظر:

<sup>5</sup> —بوكاتشو،المصدر السابق،ص.41.

<sup>6</sup> —أنظر:

<sup>7</sup> —أنظر:

<sup>8</sup> —أنظر:

<sup>9</sup> —أنظر:

<sup>10</sup> —أنظر:

الرهبة فراحوا يجتمعون في جماعات، يعيشون بعيدا عن الآخرين، يعتكفون في بيوت لا وجود لأي مريض بها ويستمتعون بالموسيقى، في حين نجد لآخرين رأيا مخالفا، إذ يرون أن الغرق في الملذات والإكثار من شرب الخمر والترويح عن النفس وإشباع الرغبات والضحك والسخرية هي العلاج الحقيقي لذلك الداء، فكانوا يقضون الليل متنقلين من حانة إلى أخرى، يشربون دون توقف، ويستلذون بما طاب تاركين أعمالهم وتجارتهم<sup>1</sup>.

في حين اعتقد آخرون لهول ما أحدثه الوباء من وفيات أنها نهاية العالم<sup>2</sup> وأنه عقاب من الله على أفعالهم المشينة، لذلك عزموا على اغتنام اللحظات الأخيرة من حياتهم في فعل الخيرات، فوزعوا الصدقات على الفقراء<sup>3</sup>، ولجأوا إلى الصلاة كأنسب حل، فتجمعوا في مواكب كبيرة قادها رجال الدين متضرعين لله، طالبين المغفرة وأن يزيح الوباء عنهم، و التّموا أيضا في مواكب للحج وأوقدوا الشموع في الكنائس تقربا من الله، في حين لجأ آخرون إلى الصوم أو جلد أنفسهم<sup>4</sup> وهي ما عرفت بحركة التوابين السائطين التي سنتناولها لاحقا بالتفصيل.

ويبقى أهم أثر هو فقدان أغلبهم للأمل في النجاة من هذا الوباء مما انعكس على معنوياتهم فساهم ذلك في اشتداد المرض وبالتالي التعجيل بالوفاة<sup>5</sup>.

ومن جهة أخرى وفي ظل جهل المتسبب في هذا الوباء، خُصص حراس للمدن والقرى وكان يُمنع من الدخول كل من يُجهل هويته<sup>6</sup>، كما حُمِّل اليهود في بعض المناطق مسؤولية تسميم الآبار والتسبب في نشر الطاعون بين المسيحيين، فشنت حملة شرسة ضدهم أسفرت عن مقتل وذبح وحرقت العديد منهم.

## 2-أثر الوباء على الأقلية اليهودية

تعرض اليهود إلى الملاحقة إبان فترة الوباء، وظاهرة اضطهادهم في أوروبا ليست بالأمر الجديد، بل تعود إلى القرن الحادي عشر، حيث هاجمهم الناس على أنهم قتلة المسيح

<sup>1</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص.ص. 40-41.

<sup>2</sup> - أنظر:

Agnolo Di Tura, op.cit., p.81.

Gasquet(F.A.), op.cit., p.14.

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر: Kelly Kate, The history of the Medicine The Middle Ages: 500-1450, Facts On File, New York, 2009, p.p.108-109.

Gasquet(F.A.), op.cit., p.13.

<sup>5</sup> - أنظر:

de Chauliac (G.), op.cit., p.171.

<sup>6</sup> - أنظر:

(Christ killers)، وأثناء الحرب الصليبية الأولى تعرضت الأحياء اليهودية في ألمانيا للاعتداء من قبل أفراد الشعب الذين قرروا تصفية أوروبا من كل الكافرين، كما تعرض اليهود في العديد من المرات إلى التعذيب والقتل جراء اتهامهم بجرائم شنيعة، ففي سنة 1235م أُحرق أربعة وثلاثون يهوديا في فولدا (Fulda) بألمانيا بتهمة قتل الأطفال، وفي سنة 1255م أُعدم تسعة عشر منهم بلنكولن (Lancoln) بإنجلترا، كما تعرضوا للقتل أيضا في كل من بوهيميا 1161م، وفيينا 1267م، وجنوب فرنسا 1321م وذلك بتهمة تسميم مياه الآبار<sup>1</sup>، ثم اتهموا في سنة 1321م إلى جانب المسلمين في كل من فرنسا وإسبانيا بتورطهم في تسميم الآبار بغية قتل المسيحيين<sup>2</sup>، ليشهد بعد ذلك هذا الوضع تصعيدا أكبر مع موجة الوباء الأولى سنة 1348 م في ظل جهل مسبباته الحقيقية، وخاصة بعد ظهور حركة التائبين أو ما يعرف بالسائطين (Flagellants).

فإثر تفشي الوباء بأوروبا وضع الوزر على عاتق اليهود إذ اتُهموا بتسمم الأطعمة والآبار ومنايع المياه، وتعرضوا للتعذيب للاعتراف بفعلتهم وأُبيدوا جماعيا بطريقة تشبه إلى حد كبير محرقة اليهود في القرن العشرين<sup>3</sup>.

كانت بداية الاعتداء على الأوساط اليهودية في ربيع 1348م وصادف ذلك وصول الوباء إلى كل من منطقة لانجدوك جنوب فرنسا وبكتالونيا (Catalonia) شمالي شرق إسبانيا<sup>4</sup>، ففي جنوب فرنسا قام الأهالي الغاضبون بإخراج الرجال والنساء والأطفال من بيوتهم بقوة وأحرقوهم وهم أحياء، لتمتد موجة إبادة شمال وشرق أوروبا<sup>5</sup>، وقد ذكر كل من الملك ألفونسو العاشر بقرطبة أن سبب التهجم عليهم راجع إلى إقدامهم على تسميم المياه والطعام والتسبب في إحداث الوباء وأنهم أعداء المسيحية<sup>6</sup>، فشاعت قصة تسميم اليهود لمياه الآبار في كل أوروبا، و أنهم لجأوا إلى السحر

Byrne (J.P.), op.cit., p.p.81-82.

Aberth(J.),op.cit.,p.117-118.

Samuel K. Cohn Jr, **the black death and the burning of Jews**, Past and Present, No. 196 (August 2007), The Past and Present Society, Oxford, 2007,p.04.  
Aberth(J.),op.cit.,p.139.

Slavicek (L. Ch.),the Black Death Great Historical Disasters, p.61.

Aberth(J.),op.cit.,p.139.

<sup>1</sup>—أنظر:

<sup>2</sup>—أنظر:

<sup>3</sup>— أنظر:

<sup>4</sup>—أنظر:

<sup>5</sup>—أنظر:

<sup>6</sup>—أنظر:

الأسود لإعداد هذا الوباء، مستخلصين السم من بعض الكائنات كالضفادع، العضاءات، العناكب، وقلوب المسيحيين الذين يتم قتلهم، وجلود الأفاعي<sup>1</sup>.

استمر التنكيل بهم في العديد من مناطق أوروبا، وحدث أن وجهت حكومة مدينة ناربون (Narbonne) بلانجدوك رسالة إلى نظرائها بجيرونا (Girona) بكتالونيا بتاريخ 17 أبريل 1348م، تعلمهم بأن فقراء العامة وكذا الشحاذين اعترفوا تحت ضغط التعذيب بأنهم أسهموا في تفشي هذا الوباء عن طريق تسميم المياه<sup>2</sup>، وطبقا لهذا أقدمت سلطات المدينة على إعدامهم، ورغم أن هذه الرسالة لم تحمّل اليهود مباشرة بهذه التهمة إلا أنها صرحت بأن أعداء فرنسا هم من دفعوا لهؤلاء للقيام بهذا الفعل<sup>3</sup>.

وفي سبتمبر وأكتوبر من سنة 1348م تعرض عشرة يهود (تسع رجال وامرأة) للتعذيب والتحقيق بشأن هذا الأمر بسافوي (Savoy) بفرنسا حتى اعترفوا بتسميم مياه الشرب بغية افشاء الوباء المميت بين المسيحيين، وفي نوفمبر أرسلت نسخة عن هذا التحقيق الذي أجروه إلى ستراسبورغ للتقصي عن كيفية تعامل المناطق المجاورة مع هذه الحالة، خاصة وأن المدينة تباينت فيها الآراء حول ما ستفعله باليهود القاطنين بها. وقد عرفت منطقة سافوي سلسلة من الاعتقالات لليهود بغية التحقيق معهم، وقد اعترف أغلبيتهم سواء تحت ضغط التعذيب أم لا بضلوعهم في تسميم مياه الآبار وحتى الأطعمة لذلك تم حرقهم<sup>4</sup>.

وفي فرنسا بتولون (Toulon) قُتل أربعون يهوديا وهم في فراشهم وُرميت أجسادهم على الطرقات، وفي شهر ماي 1348م إبادة اليهود في كل من كاراسون (Carcassonne) ونربون ، ومدينة بوم (Baume) قتل كل اليهود المقيمين بها وسلبت ممتلكاتهم<sup>5</sup>.

وتكرر اتهام اليهود بتسميم الآبار في خريف 1348م بسويسرا، وتواصل التنكيل بهم بسبب هذه التهمة في العديد من مدن أوروبا في فيفري من سنة 1351م وبشكل واسع في ألمانيا، حيث كان

Slavicek(L.CH.),op.cit.,p.60.

Byrne (J. P.),op.cit.,p.83.

Aberth(J.),op.cit.,p.145.

Ibid., p.p.145,148.

Byrne (J. P.),op.cit.,p.83.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> -أنظر:

يتم حرقهم على الأوتاد كالهراطقة والمرتدين<sup>1</sup>، ليس هذا فحسب بل إن سكان (Speyer) يجنوب غرب ألمانيا كانوا يتخوفون حتى من جثث اليهود ويعتقدون بقدرتهم على التسبب في نقل الوباء حتى وهم موتى لذلك كانوا يضعون تلك الجثث في جرار الخمر ويلقون بها في نهر الراين<sup>2</sup>.

أما في تاريغا (Tárrega) باسبانيا فقد قاموا بإلقاء الحجارة على منازل اليهود وكسروها، وتهجموا عليهم وأخذوا مؤونتهم وكل ممتلكاتهم كما قاموا بحرق سجلاتهم<sup>3</sup>، ولهذا يُرجح بعض المؤرخين سبب اضطهاد اليهود إلى تقديم هؤلاء خدماتهم للتجار والأسر الأرستوقراطية، كما أن قروضهم ومداخيلهم تساعدهم على تأسيس اقتصاد المدينة والتحكم في سياسة المدن وحتى تشكيل مقاطعات مستقلة، كما أن اليهود استغلوا الحرفيين عن طريق تقديم القروض لهم بفوائد كبيرة، في حين يرى البعض أن إبادة اليهود ناجمة عن انتقام الأشخاص الذين أفقرتهم الديون وغاضهم الامتياز الذي حازته صفوة من اليهود الصيارفة، فكان التخلص منهم وسيلة للتحرر من الديون والاستلاء على ثرواتهم<sup>4</sup>.

وفي ظل هذه الجرائم المقترفة ضد اليهود سعت السلطة الدينية إلى تخليصهم من ذلك، وفي هذا الصدد أصدر البابا كلمنت السادس مرسوما في 26 سبتمبر من سنة 1348م أمر فيه رجال الدين اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقاف هذه الاعتداءات على اليهود وألزم بتنفيذه في الفاتح من أكتوبر ومما جاء فيها مايلي :

"رغم أننا نبغض غدر اليهود، واستمرارهم في عنادهم ورفضهم تفسير أقوال الأنبياء بطريقة صحيحة... إلا أننا مدركين لواجبنا بإيواء اليهود... ومن العار أنه وصلنا مؤخرا أن البعض من المسيحيين المتهورين ارتكبوا إثم قتل العديد من اليهود دون أي اعتبار لا للسن ولا للجنس بعد أن ألقوا عليهم اللوم بهتاناً بالتسبب في التسميم والوباء وأنهم شكلوا عصابة مع الشيطان، والحقيقة أن الوباء جاء نتيجة لغضب الرب على المسيحيين بسبب خطاياهم... مع أننا نود معاقبة اليهود بشدة لاقترافهم لمثل هذه الجريمة النكراء... لكن لا يبدو أن اليهود في هذه الحالة مسؤولون على هذه

Aberth(J.),op.cit.,p.p.139-140.

<sup>1</sup> - أنظر:

Hecher, the black death in the fourteenth century, p.110; Slavicek (L. Ch.), op.cit.,p.62.

<sup>2</sup> - أنظر:

Aberth(J.),op.cit.,p.143.

<sup>3</sup> - أنظر:

Samuel K. Cohn Jr,op.cit.,p.13.

<sup>4</sup> - أنظر:

الجريمة أو متسببين فيها، لأن هذا الوباء مس العالم كله تقريبا وفقا لحكم الله الخفية وقد أصاب ويستمر في إصابة اليهود أنفسهم مثلهم مثل الأجناس الأخرى... بمختلف مناطق العالم... فنحن نأمركم كلكم بالكتابة الرسولية، وكل واحد منكم خاصة الذين يُطلب منهم القيام بذلك بأن تُحذروا رجال الدين والناس معا عند القيام بخدمتكم لهم بكنائسكم وبصريح العبارة اجعلوا تحت طائلة المطرودين(الحرمان الكنسي) (excommunication) الذين يقومون بالاستيلاء وضرب وجرح أو قتل اليهود ...<sup>1</sup>.

أكد البابا كلمنت السادس في مرسومه هذا أن عددا كبيرا من اليهود لقوا حتفهم جراء هذا الوباء على غرار باقي المسيحيين، وأنه من الغباء أن يكونوا قد ساهموا في تفشي هذا الوباء والتسبب في قتل بني جلدتهم، علاوة على ذلك فإن المسيحيين كانوا ضحايا للوباء في مناطق تخلو من اليهود كإنجلترا<sup>2</sup>، كما بعث برسالة إلى نظرائه بستراسبورغ في 12 جانفي 1349م يحثهم فيها على ضرورة توفير الآمان لليهود لأن اضطهادهم سيشعل فتيل الثورات الشعبية ويولع الشرارة<sup>3</sup>.

لقي قرار البابا كلمنت السادس بإيقاف أعمال العنف ضد اليهود إذعانا لدى عامة الناس في كل من فرنسا وإيطاليا، في حين تم تجاهله في كل من ألمانيا وسويسرا أين تواصلت الاعتداءات عليهم إلى غاية بداية انحسار الوباء سنة 1350م.<sup>4</sup>

وبإسبانيا أين تعرض اليهود لمذابح في العديد من المناطق بالأخص في مدينة تاريجا التي شُنق بها ثلاث مائة يهودي حتى الموت، وقد جاء وصف لذلك الهجوم الذي تعرضوا له بالمدينة آنفة الذكر في المرسوم الذي أصدره ملك أراغون بيدرو الرابع (Pedro IV) في 23 ديسمبر من سنة 1349 وقد أوصى في هذا القرار موثقيه بمساعدة الأقلية اليهودية على استعادة سجلاتها المالية التي أحرقت في ذلك الاعتداء<sup>5</sup>، كما أعرب عن تعاطفه معهم، وقد ثمن اليهود جهود الملك بيدرو من أجل حمايتهم وشهدوا له بالتسامح وأعربوا عن شكرهم له وهذا ما سجلته إحدى الرسائل التي

<sup>1</sup> - أنظر: Pop Clement VI ,Sicut Judeis(Mandate to protect the Jews ),published by

Aberth(J.), Op.cit.,p.158-159.

Samuel K. Cohn Jr,op.cit.,p.14.

Aberth(J.),op.cit.,p.141.

Slavicek (L. Ch.),op.cit.,p.62.

Aberth(J.),op.cit.,p.142.

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

تعود إلى سنة 1354 م والتي كتبها ثلاثة من اليهود وهي واحدة من أدق الرسائل التي تصور التسامح الكبير الذي كانت تنعم به الأقليات في ظل حكمه<sup>1</sup>، فهو شمل برعايته ليس فقط اليهود وإنما المسلمين أيضا.

كما حاولت الملكة جين (Jeanne) التي تحكم جزءاً من جنوب فرنسا حماية رعاياها اليهود إلا أن عامة الناس قاموا بقتل ممثليها، فنعتتهم بأبناء الشيطان.<sup>2</sup>

ونتيجة لهذه الحملة الشرسة ضد اليهود اضطر العديد منهم إلى قتل أنفسهم قبل أن يُفعل بهم ذلك<sup>3</sup> في حين فر آخرون إلى هنغاريا وبولندا<sup>4</sup>، هذه الأخيرة التي تعهد دوقها كاسمير الثاني (Casimir II) بالدفاع عن سكان مملكته من اليهود، و منح الآمان ووفر الملاذ لكل اليهود المضطهدين في مختلف مناطق أوروبا، وتبعاً لهذا هاجر العديد منهم إلى بولندا<sup>5</sup> أين وجدوا الملجأ الذي يكف عنهم من يتوعدهم بالقتل، كما هاجروا أيضاً إلى مناطق أخرى كإسبانيا التي تضاعف عدد اليهود بها وارتفع عددهم من 150 ألف إلى 250 ألف يهودي في القرن الخامس عشر<sup>6</sup>.

وواصلت المجازر المرتكبة في حق اليهود بمختلف مدن أوروبا رغم امتناع السلطات الدينية والزمينية وإدانتها لهذه الجرائم، ومع أن الإمبراطور شارل الرابع حذر ومنع الإساءة لليهود في أرجاء إمبراطوريته بعد حادثة بازل في جانفي 1349م التي تم فيها حرق مائتي يهودي، إلا أنهم اضطهدوا مجدداً في نوفمبر في كل من شتوتغارت (Stuttgart) وأكسبورغ (Augsburg)، وفي ديسمبر تعرضوا للحرق في هورو (Horw)<sup>7</sup>.

وعلى الرغم من أن الحقيقة تظل مجهولة في ظل انعدام دليل قاطع، وفضلاً عن بعض الكتابات التي سجلت اعتراف اليهود بالجرائم الموجهة إليهم إلا أن ذلك لا يعتبر حجة دامغة خاصة

Aberth(J.),op.cit.,p.p.143-144.

<sup>1</sup> -أنظر:

Byrne (J. P.),op.cit.,p.83.

<sup>2</sup> -أنظر:

Hecker, black death in the fourteenth century.,p.109.

<sup>3</sup> -أنظر:

Ibid,p.85.

<sup>4</sup> -أنظر:

Slavicek (L. Ch.),op.cit.,p.62.

<sup>5</sup> -أنظر:

Byrne (J. P.),op.cit.,p.85.

<sup>6</sup> -أنظر:

Ibid.,p.84.

<sup>7</sup> -أنظر:

إذا وضعنا في الحسبان الترهيب والتعذيب الذي تعرضوا له والذي قد يكون سببا ضاعطا في اعترافهم بتلك الجرائم المنسوبة لهم، ناهيك عن خلفيات المعاصرين وانتماءاتهم وكذا تعصبهم لبني جلدتهم .

## II - الإنعكاسات الدينية للوباء

### 1-المعتقدات الدينية ومرض الطاعون

على غرار المسلمين اعتقد مسيحيو أوروبا أن الوباء ما هو إلا عقاب من الله على شرورهم وآثامهم، لذلك اضطلعت بعض الشخصيات الورعة بمهمة تنبيه الناس ذكورا وإناثا في كل أبرشية، مدينة، قلعة وكل منطقة بوجوب التجمع في كنائسهم ثلاث أيام متتابة، وإيقاد الشموع وحملها بأيديهم وبكل خشوع يصغون إلى ترانيم أناستازيا المباركة (Blessed Anastasia)، والتي عادة ما يحيون ذكرها ويحتفلون بها في صباح عيد المسيح، كما وجب عليهم مناشدة الرحمة من القديسة بكل تواضع حتى تدفع عنهم الوباء، في حين توجه بعض الناس بصلواتهم إلى الشهداء المباركين، أما البعض الآخر فقد لجأ إلى قديسين آخرين إيمانا منهم بقدرة هؤلاء على كف الوباء عنهم<sup>1</sup>.

وفي 1350م أعلن البابا كلمنت السادس المغفرة لكل من اعترف بذنوبه وتاب عنها لمدة تدوم سنة، وتبع لهذا توجه الكثير من الناس رجالا ونساء في موكب حج لزيارة روما.<sup>2</sup>

في حين أحسن البعض الآخر الظن بالله وفهموا أن الله بإرساله الوباء لم يكن يبيغ من ذلك الاقتصاص من المذنبين والعاصين، وإنما كان ذلك تنبيها وتهديدا للغافلين حتى يتوبوا مما هم فيه من رذائل ويصلحوا أنفسهم<sup>3</sup>، وهذا ما صورته لنا غابريال دي موسييه في سياق الحديث عن سبب ابتلاء الله لعباده حيث أورد ذلك كحوار بين الرب والأرض، فيقول "ربما هذا الحدث أي الوباء هو تذكير دائم لكل واحد سواء كان على قيد الحياة أو لم يُولد بعد على قدرة الله ملك السموات، إله سيد الأحياء والأموات، المالك الذي يمسك كل شيء بين يده، يراقبنا ينظر إلينا من فوق السموات ويرى البشرية أجمع تتمرغ في وحل الشرور المتشعبة، المنغمسين في الآثام والمستمرين في الرذائل المتعددة، الغارقين في بحر الفساد بسبب الرغبة اللامحدودة لفعل الشر والمجردة من كل خير، وبسبب عدم الخوف من عقاب الله ويلهثون وراء كل ما هو خبيث بغض النظر عن مدى بغضه وكرهه،

Gabriele de' Mussis, history of the plague, published by Aberth(J.), op.cit., p.100.

Idem.

Horrox(R.), op.cit., p.34.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

وبرؤيته مثل هذه الأمور ( يقصد الله ) دعا الأرض قائلاً : ماذا تفعلين، محكومة الأسر من طرف هذه العصابة من الناس عديمي القيمة، مدنسة من قبل الخطائيين القذريين، هل أنت عاجزة تماماً؟ ما الذي تفعلينه؟ لِمَ لم تطلبِ دماء البشر انتقاماً لأفعالهم الشنيعة، لماذا تسامحتي مع أعدائي وخصومي وتحملتهم؟ عندما واجهتي مثل هذا الفسق كان من الواجب عليك ابتلاع معارضي. هيئي نفسك لتطبيق الإنتقام بما وسعت من قوة... وبعد هذا التحذير الذي وُجه للبشر تم تسليط الوباء عليهم ويستهدف رمح العلي القدير الكل ويُعدي البشرية بأكملها<sup>1</sup>.

وفي سبيل الوصول إلى مرضاة الله قرر البعض السير في مواكب تجوب المدن والقرى معلنين التوبة وطالبن المغفرة من الله، يضربون أجسادهم بالسياط لعل الله يرأف بحالهم ويدفع عنهم الوباء وقد عُرف هؤلاء بالتائبين أو الضارين أنفسهم بالسياط

## 2- حركة التوابين السائطين (Flagellants) :

تعتبر هذه الحركة من أغرب ردود الفعل النفسية والدينية جراء وباء 1348-1350م، وإذا جئنا إلى كلمة (Flagellants) فهي مشتقة من اللاتينية (Flagellum)، التي تعني السوط، كما أطلقوا على أنفسهم أيضاً تسمية (Cruciferians) أي حاملي الصليب أو الصالبن، لأنهم كانوا يحملون صليباً أثناء طوافهم ويجعلونه في مقدمتهم، أو لأنهم يتخذون شكل الصليب عند سجودهم، أو ربما بسبب شارة الصليب التي كانت على ملابسهم<sup>2</sup>.

وقد كان هؤلاء التوابون (Flagellants) يؤمنون بأن الوباء ما هو إلا عقاب من الله على خطاياهم، لذلك وجبت عليهم التوبة والإياب إلى الله، والتضرع إليه ليكفه عنهم وكان تكفيرهم عن ذنوبهم علناً عن طريق جلد أنفسهم بسياط محكمة الشد مصنوعة من الجلد وبها مسامير صغيرة<sup>3</sup>، وكان كل سوط يتألف من ثلاث حبال محكمة الربط في شكل عقدة، وبهذه السياط كانوا يضربون أجسادهم نصف العارية حتى تتورم ويصير لونها ضارباً إلى السواد والزرقة، والدماء تنساب منها<sup>4</sup>، والغريب في الأمر هو إقدام بعض النسوة على التقاط تلك الدماء والمسح على أعينهن بها، فهن

Horrox(R.),op.cit.,p. 14,16.

<sup>1</sup> -أنظر :

Heinrich of Herford, Book of Memorable Matters 1349-1355,published by

<sup>2</sup> -أنظر :

Aberth(J.),op.cit.,p.p.122-123.

Froissart,chronicles,p.111 .

<sup>3</sup> -أنظر :

Heinrich of Herford,op.cit.,p.123.

<sup>4</sup> -أنظر :

يعتبرها دماء خارقة وذو معجزة<sup>1</sup>، وكان هؤلاء يجلدون أنفسهم على الأقل مرتين في اليوم، في الصباح وفي المساء<sup>2</sup>. فالمسيح تعرض للجلد من طرف الجنود الرومان من قبل، لذلك اعتمدت الكنيسة الجلد كعقوبة لرجال الدين العصاة، حتى أن الرهبان كانوا يجلدون أنفسهم واعتبروا ذلك نوعاً من أنواع العقوبات التي تعبر عن الندم على الذنوب المقتربة، ويعتقدون بأن هذا العمل يجعلهم يشاركون المسيح عليه السلام ما عاناه ويحتملون ما احتمله من تعذيب<sup>3</sup>.

انطلقت هذه الحركة في أواخر سنة 1348م من أستراليا (Austria) أو هنغاريا لتنتقل في ربيع 1349م بعدها إلى ثورنجا (Thuringia) ثم فرانكونيا (Franconia) وسط ألمانيا، وبحلول الصيف عمت كلا من جنوب ألمانيا والأراضي المحاذية لنهر الراين، وامتدت إلى الأراضي المنخفضة<sup>4</sup>. ضمت هذه الجماعة أساساً الطبقة الدنيا، ثم اشتهرت هذه الجماعة وسموا أنفسهم إخوان الصليب (Brethren of Cross)، واكتسبت سمعة طيبة جعلت الناس يرحبون بها بكل إجلال ووقار، فانضم إليها العديد من النبلاء ورجال الدين<sup>5</sup>.

كانوا يتنقلون مشياً على الأقدام من مدينة إلى أخرى في صفوف منظمة، يضعون قلنسوات تغطي رؤوسهم وتتدلى على وجوههم إلى غاية العينين، وكانت رؤوسهم مطأطأة وأعينهم منصوبة نحو الأرض، ينتابهم الندم الشديد والأسى، وكانوا يرتدون ثياباً رثة عليها صلبان حمراء بمنطقة الصدر وكذا من الخلف على الظهر وعلى قلنسوة الرأس<sup>6</sup>، يحملون صلباناً بأيديهم، وكانوا يتوقفون عند محطات عديدة للعبادة وجلد أنفسهم<sup>7</sup> وعند وصولهم لهذه الأمكنة والتي تكون عادة خارج المدينة، يتجردون من ملابسهم ونعالهم ويبقون فقط بتنورات قصيرة أو يلفون المنطقة الممتدة من الخصر إلى القدمين بقماش أبيض، وعندما يصبحون جاهزين للمباشرة بتوبتهم يجلسون كلهم على الأرض مشكلين دائرة واسعة، ثم يتخذون وضعيات مختلفة حسب نوع الذنب المقترب، فبالنسبة للذي يكون قد حنث

<sup>1</sup>—أنظر: Froissart, chronicle, p.111 .

<sup>2</sup>—أنظر: Fritsche Closener, Chronicle 1360-1362, published by Aberth (J.), op.cit., p.127.

<sup>3</sup>—أنظر: Byrne (J. P.), op.cit., p.78.

<sup>4</sup>—أنظر: Aberth (J.), op.cit., p.118.

<sup>5</sup>— أنظر: Hecker, the black death in the fourteenth century, p.86.

<sup>6</sup>—أنظر: Ibid, p.87.

<sup>7</sup>—أنظر: Walsingham (Thomas), The Chronica Maiora (1376-1422) , Trans. By David Preest: The Boydell Press , Woodbridge –U .K. , 2005, p.315.

بقسم ما فإنه ينبطح على أحد جانبيه، ويرفع رأسه وثلاثاً من أصابعه، أما إذا حدث وأن كان بينهم من أخلف وعدا فإنه ينبطح على بطنه، وبعد ثبوت كل واحد منهم على الوضعية التي تحدد نوع الخطيئة، يقوم واحد منهم يكون بمثابة سيدهم يتفقددهم ويقيم الحد فيهم، وذلك بجلدهم الواحد تلو الآخر مع التنبيه عليهم في كل مرة بعدم العودة إلى ما ارتكبوه من معاصٍ وبعد ذلك يقومون ويتطوع منهم جماعة تجيد الغناء<sup>1</sup> فيرددون الأغاني المقدسة باللغة الإيطالية وكذا اللاتينية، وينشدونها بشجون وأصواتهم تتعالى بالبكاء تضرعا وطلباً للمغفرة والسلام<sup>2</sup> وفي نفس الوقت يضربون أجسادهم بالسياط حتى تنزف الدماء منها<sup>3</sup>، ثم في الأخير ينهض واحد منهم ليقراً على مسامعهم الرسالة التي زعموا أن ملكاً أتى بها من السماء إلى كنيسة القديس بطرس بالقدس، ومما ذكر في الرسالة أن المسيح مستاء من أفعال البشر وأنه سيمنح شفاعة العذراء المباركة والملائكة لكل من يجوب الأرض في ظرف ثلاثة وثلاثين يوماً ونصف يوم، يقوم خلالها بجلد نفسه فينال بذلك الرحمة الإلهية<sup>4</sup>، وهي المدة التي قضاها المسيح سائراً في الأرض ولم يعرف أبداً يوم راحة، بل عانى وهو على الصليب وأنتم لم تتوجهوا بالشكر إليه قطعاً، لذلك وإذا كنتم راغبين في تجديد العهد فعليكم المشي في مواكب حج لمدة ثلاث وثلاثين يوماً ونصف يوم تسفكون فيها دماءكم، دون أن تعرفوا الراحة ليلاً أو نهاراً، وإلى ذلك الحين سيزول غضبه عليكم.<sup>5</sup>

كان لهذا تأثير كبير على الناس مما شكل تهديداً حقيقياً للكنيسة، فقد ذاع صيت هذه الحركة وصارت أغانيهم تنتقل عبر أفواه العامة، فأتوا من مختلف الحارات لسماع ترانيمهم ومشاهدة طقوس توبتهم بكل خشوع وعيونهم تغمرها الدموع تأثراً بما رأوه، ورحبوا بهم ففي سنة 1349م دخل حوالي مائتي شخص من هؤلاء التوابين أو أصحاب السياط إلى مدينة ستراسبورغ أين استقبلهم سكانها بحفاوة وفرح كبيرين<sup>6</sup> وكان الناس يستضيفونهم في بيوتهم دون أن يسألوهم ذلك<sup>7</sup> فالواضح أن ترحيب الناس بهذه الجماعة كان مذهلاً وتعاطفهم معهم كان كبيراً وهذا يدل على تحلي الناس في هذه الفترة

Heinrich of Herford ,op.cit.,p.p.127-128.

Walsingham (Th.),op.cit.,p.315.

Heinrich of Herford ,op.cit.,P.128.

Hecker,the black death in the fourteenth century, p.p.96-97.

Fritsche Closener,op.cit.,p.p.129-130.

Hecker,op.cit.,p.88,97.

Fritsche Closener,op.cit.,p.127.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

<sup>7</sup> - أنظر:

بالإيمان ومدى تيقنهم أن الخروج من محنة الوباء لن يكون إلا بالإجابة إلى الله الذي عاقبهم ببلاء الطاعون لكثرة ذنوبهم.

وقد تطلبت جولاتهم وطوافهم من مدينة إلى أخرى اتمام ثلاثا وثلاثين يوما ونصف يوم وهي بعدد السنوات التي قضاها المسيح على الأرض حيث اعتبروا كل يوم يقابله سنة من حياة المسيح، وعند اتمام هذه الأيام تعود كل جماعة إلى المدينة التي أتت منها<sup>1</sup>. وأثناء هذه الأيام امتنعوا عن الاغتسال والحلاقة أو تغيير ملابسهم وكذا النوم على الأسرة<sup>2</sup> وإنما كانوا ينامون على القش<sup>3</sup> أما من كان يود الانضمام إليهم فعليه أن يجلب معه مبلغا من المال يكفيه لثلاثة وثلاثين يوما مدة جولاتهم<sup>4</sup>، والواقع أنهم لم يصرفوا كثيرا لأن الناس الكرماء كانوا يدعونهم للغداء والعشاء<sup>5</sup> في حين منحهم برجوازيو المدن التي زاروها المال لشراء الشموع والرايات<sup>6</sup>.

أما بالنسبة لقانونهم فإنه يحرم عليهم الدخول إلى أي منزل قبل تلقي الدعوة من أهل البيت، ومنع عليهم أيضا تبادل الحديث مع النساء، وإن خالف أحدهم هذه التعاليم وجب عليه الاعتراف بذلك للسيد الأعلى حتى يُطبق عليه العقاب جلدا، وفيما يخص رجال الدين المنضمين إلى هذه الجماعة فإنه لا يحق لهم في كل الأحوال أن يرتقوا إلى رتبة السيد<sup>7</sup>.

### 3-رد فعل الكنيسة والنبلاء وعامة الناس :

استفحل أمر هذه الحركة وذاع صيتها بين الناس فصارت مثل الوباء الذي صار يهدد سيادة الكنيسة في الغرب المسيحي، فهذه الجماعة لم تتوقف عند حدود التوبة بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد قام البعض منهم بعملية التبشير، والإصغاء إلى اعترافات الناس ويفرضون عليهم العقوبات، ومنهم أيضا من شكل جبهة ضد رجال الكنيسة وشرعوا في ضربهم بالحجارة على مرأى الجميع<sup>8</sup>، وهذا تحدٍ صاخر للكنيسة وتعدٍ على صلاحياتها وسلطتها، وإنقاص من هيبة رجالها، كما أن الناس صاروا

Froissart, op.cit., p.111.

Byrne (J. P.), op.cit., p.79.

Froissart, op.cit., p.111.

Fritsche Closener, op.cit., p.127.

Froissart, op.cit., p.111.

Fritsche Closener, op.cit., p.130.

Ibid., p.127.

Byrne (J. P.), op.cit., p.p.79-80.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

<sup>7</sup> - أنظر:

<sup>8</sup> - أنظر:

ييجلونهم وصارت دماؤهم التي تنزف بفعل ضربات السياط تجمع وكأنها دماء مقدسة<sup>1</sup>، فتبعاً لهذا كان على سلطة الكنيسة التدخل لردع هذه الحركة التي صارت تشكل خطراً كبيراً على عقول الناس، وعلى سلامة عقيدتهم خاصة وأنها شككت في بعض الأمور المتعلقة بعقيدة الدين المسيحي، فهي نفت وأنكرت حضور المسيح في القربان المقدس (Eucharist)<sup>2</sup> كما يدعون أيضاً أنهم مُكلّفون بالتبشير من طرف المسيح<sup>3</sup>.

ومع حلول صيف 1349م، بادرت كل من السلطتين الدينية والزمنية باتخاذ الإجراءات اللازمة للوقوف في وجه هذه الحركة، فقاموا بمنعهم من الدخول إلى أراضيهم، في حين أرسلت كلية الثيولوجيا (اللاهوت) بجامعة باريس في خريف نفس السنة إلى البابا شاهداً على ما افتعله أصحاب السياط بالفلاندر وهو الراهب يوحنا دو فايي (Jean de Fayet)، ومن جهته قام الإمبراطور شارل الرابع هو الآخر بمراسلة البابا كلمنت السادس بشأن هؤلاء<sup>4</sup>، ملتمساً المساعدة للحد من هذه الممارسات المارقة والتي جعلت تأثير رجال الدين يخبو في العديد من المناطق<sup>5</sup>، فأثت الجهود بثمارها حيث أصدر البابا مرسوماً في 20 أكتوبر من سنة 1349م يدين فيه هذه الحركة<sup>6</sup> ويعارض بشدة ممارساتهم ومنعهم من دخول مملكة فرنسا، كما أصدر في حقهم الحرمان الكنسي، أما بخصوص رجال الدين الذين رافقوهم في جولاتهم جردهم من رتبهم وحرّمهم من مداخيلهم<sup>7</sup>.

إلا أن هذه الجماعة لم تول اهتماماً للقرار الذي أصدره البابا ضدهم بل استمرت في ممارساتها وازداد أتباعها ففي كل أسبوع كانت تظهر جماعة تنضم إليهم فحتى النساء انضمن إليهم وصرن يجلدن أنفسهن كما انضم الشباب والأطفال أيضاً إلى هذه الموكب من التوابين، وتبعاً لهذا لم يعد الناس قادرين على استضافتهم في منازلهم كما كانوا يفعلون من قبل، ثم إن رجال الدين هاجموهم ودحضوا الأكاذيب التي روجوها بين الناس كما فندوا الرسالة التي بشروا بها<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: Froissart ,op.cit.,p.111.

<sup>2</sup> - أنظر: Byrne (J. P.),op.cit.,p.80.

<sup>3</sup> - أنظر: Heinrich of Herford ,op.cit.,P.125.

<sup>4</sup> - أنظر: Idem.

<sup>5</sup> - أنظر: Hecker,Black death in the fourteenth century, p.10.

<sup>6</sup> - أنظر: Byrne (J. P.),op.cit.,p.80.

<sup>7</sup> - أنظر: Froissart,op.cit.,p.112.

<sup>8</sup> - أنظر: Heinrich of Herford ,op.cit.,P.125.

وقف الناس في أول الأمر إلى جانب أصحاب السياط ولم يكن أحد يجرؤ على التكلم عنهم بسوء أمامهم، وقد لقي رجال الدين المناوئين لهم صعوبة في المحافظة على حياتهم، ولكن الأمر لم يبق على حاله لأن القساوسة تمكنوا من منع السائطين من تشكيل هذه الجماعات أو الأخيات (brotherhood) كما منعوهم من جلد أنفسهم علنا ومن رغب في جلد نفسه يقوم بذلك سرا في بيته<sup>1</sup>.

وبعد أقل من أربعة أشهر من إدانة البابا كلمنت السادس لحركة التوابين، قام الملك الفرنسي فيليب السادس هو الآخر بإصدار مرسوم في 15 فيفري 1350م يقضى بتوقيف هذه الجماعة<sup>2</sup> وقد سار على نهج ملك فرنسا كل من الإمبراطور شارل الرابع الذي قام بحظرهم على إمبراطوريته ومانفرد ملك صقلية (Manfred of Sicily) أوقف نشاطاتهم وتوعدهم بالقتل<sup>3</sup> فأدت هذه الإجراءات الردعية بالتعاون مع السلطة الدينية والزمنية إلى أفول نجم هذه الحركة من أوروبا مع نهاية سنة 1350م وزوالها حدث فجأة مثلما كان ظهورها كطيف الليل أو الأشباح<sup>4</sup>، إلا أنها عادت إلى الظهور في فترات لاحقة في القرن الخامس عشر بألمانيا فتم إحراق مابين ثمانين إلى تسعين شخصا منهم سنة 1414م، وبعد عامين أعدم منهم ثلاث مائة في يوم واحد بمدينة (Sangershausen)، لتكون سنة 1480م آخر مرة تظهر فيها هذه الطائفة<sup>5</sup>.

كشفت هذه الحركة عن مدى بعد الناس في هذه الفترة عن شريعتهم وعدم ثقتهم بالكنسية، فرغبتهم في الفرار من الموت جعلتهم يتشبثون بأي بصيص يبعث فيهم أمل النجاة من الوباء وهذا ما لمسناه أغلبيتهم في حركة التوابين، فهذه الأخيرة وفقت إلى حد كبير في جذب واستعطاف الناس إليها والتأثير على عقولهم بطقوسها وترانيمها الجياشة وكذا بوعودها التي تقضي بتخليص العالم من الشرور والوباء عن طريق التوبة التي تكون على شاكلة ما جاؤوا به من ممارسات.

<sup>1</sup> - أنظر: Fritsche Closener ,op.cit.,P.131.

<sup>2</sup> - أنظر: king Philip of France,Mandate to Supress the Flagellants,published by Aberth(J.), op.cit., p.39.

Byrne (J. P.),op.cit.,p.80.

<sup>3</sup> - أنظر :

Slavicek (L. Ch.),op.cit.,p.60.

<sup>4</sup> - أنظر:

Byrne (J. P.),op.cit.,p.81.

<sup>5</sup> - أنظر:

ثم إن هذه الحركة تمكنت من حشد الكثير من الأتباع في ظرف وجيز وكأنها الوباء بعينه، بل أنها تربعت على قلوبهم وأصبحت تنافس الكنيسة في سيادتها على الجانب الروحي للمسيحيين في أوروبا. فالكنيسة حتى وإن بذلت مجهودا لإبطال هذه الحركة ودحض ما جاءت به من تأويلات كاذبة، إلا أن الأحداث بينت مدى ضعفها وقلة حيلتها أمام هذه الطائفة حيث أنها لم تتمكن من إيقافها في مناطق عدة وخاصة بألمانيا.

#### 4- تأثير الوباء على المؤسسات الدينية

تعرضت الكنيسة لعدة أزمات قبل اجتياح الوباء لأوروبا، وتجلى في العديد من المرات ضعفها وتحكم السلطة الزمنية فيها، وبدى من الواضح أن تعرضها لأي نكبة أخرى سيحط من قيمتها وينقص من مكانتها، وفعلا هذا ما حدث بعد حلول معضلة الوباء، إذ لم تتمكن من احكام السيطرة على الناس بتشريعاتها الدينية ولم تستطع الوقوف بشكل حاسم في وجه الحركات التي ظهرت كرد فعل على الوباء، كحركة التوابين وحركة مطاردة اليهود وما انجر عنها من مذابح في حقهم.

ومن جهة أخرى وفي واحدة من أكبر الانعكاسات المخزية للوباء هو إظهاره لمدى تخاذل بعض رجال الدين الذين امتنعوا عن زيارة المناطق الموبوءة خوفا من الإصابة بالعدوى<sup>1</sup>، ففروا وتملصوا من واجباتهم التي تقتضي سماع اعترافات المحتضرين ومباركتهم لمنحهم الراحة، وحتى إن كان هربهم بدافع الخوف من العدوى إلا أنه من الناحية الأخلاقية لا يُغتفر<sup>2</sup>، وقد وجهت لهم عدة انتقادات في هذا الشأن ذلك أنهم فشلوا في تلبية حاجيات الرعية أثناء الوباء، كالإصغاء لاعتراقاتهم أو منحهم المباركة الأخيرة عند الاحتضار أو الدفن، وأمام هذا التصرف المشين من قبلهم أصدر رالف شريوز بوري (Ralph Shrewsbury) أسقف باث (Bath) وويلز (Wells) بإنجلترا مرسوما في 10 جانفي 1349م، تساهل فيه بشكل كبير مع رعاياه وسمح لهم بتولي سماع الاعتراف في ظل تعذر رجال الدين القيام بذلك نظرا لقلّة عددهم أو إصابتهم بالعدوى أو بسبب امتناع البعض عن أداء ذلك، في حين عاقب رئيس أساقفة كانتربري (Canterbury) سيمون إسليب (Simon Islip) القساوسة التابعين لمقاطعته على تخليهم عن رعاياهم<sup>3</sup> وعاتبهم على جشعهم المادي وطلبهم لأجور عالية

<sup>1</sup> - أنظر: Aberth(J), op.cit., p.95.

<sup>2</sup> - أنظر: Gottfried (R.), op.cit., p.84.

<sup>3</sup> - أنظر: Aberth (J.), op.cit., p.94-95.

مقابل خدماتهم<sup>1</sup>، وفي المقابل تحمّل هذا العبء جماعات الإخوان كالدومينكان وهيئات أخرى، حيث اهتموا بالمرضى وبقوا بجنبهم بالرغم من إدراكهم أن ذلك سيكلفهم حياتهم<sup>2</sup>.

ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى أن أغلب رجال الدين لقوا حتفهم جراء الوباء، ففي عام 1349م توفي خمسة وأربعون بالمائة من القساوسة بإنجلترا بعشرة أبرشيات و قارت الخمسين بالمائة في أبرشيات أخرى كنوريش(Norwich)، إكستير(Exeter) ووينشستر(Winchester)<sup>3</sup>.

أما بإسبانيا وبالضبط بأبرشية برشلونة وصلت بها نسبة الوفيات إلى ستون بالمائة مابين شهر ماي 1348م إلى أبريل 1349م، فهذه النسب توضح مدى مجازفة بعض رجال الدين بأرواحهم لأداء واجبهم على أكمل وجه<sup>4</sup>.

إن كثرة الموتى من جهة وتقلص بعض رجال الدين من تأدية واجبهم تجاه المحتضرين من جهة أخرى ويضاف إليهم نقص عدد القساوسة لأن أغلبهم توفي تأثرا بالعدوى صعب مهمة الاعتناء بالمصابين وتقديم السلوى لهم ومباركة الموتى لذلك سعى البابا كلمنت السادس إلى إيجاد حل لهذه المعضلة فقام بإصدار عفو شامل لكل من اعترف بذنبه<sup>5</sup>.

إضافة إلى فاجعة الموت التي أصابت الكثير من رجال الدين بسبب الوباء كان من المتوقع أيضا أن تحل بهم نكبة اقتصادية، فقبل فترة الوباء كانت البيوت الدينية بإنجلترا تشهد نوعا من الازدهار المادي لكن بدخول وباء الطاعون إلى أراضيها لم تعد تنعم بأي من هذه الرفاهية إذ لقيت صعوبات في جمع ايجاراتها كما تعذر عليها دفع مستحقات الملك وأحيانا أجبرتها الظروف التماس المساعدة على هذه المستحقات أو طلب تأجيل دفعها، لتغرق بعد مدة في الديون. ثم إن الدور الدينية كانت مجبرة على دفع المال لسد النقص بالخزينة الملكية الذي سببته الحرب بين فرنسا وإنجلترا<sup>6</sup>.

وبهذا جابهت الأديرة معضلتين الأولى تمثلت في النقص الفادح في عدد رجالها والثانية وقوعها في ضائقة مالية كبيرة ، ففقدانها لعدد كبير من رجالها بسبب الوباء، دفع بالقائمين على الكنيسة

Simon Islip, Effrenata(Unbridled), published by Aberth(J.), op.cit., p.105.

Gasquet, op.cit., p.15.

Aberth(J.), op.cit., p.95.

Ibid., p.94-95.

Ibid., p.95.

Peter George Mode : The Influence of the Black Death on the English Monasteries, The University of Chicago Libraries, 1916, p.20.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> -أنظر:

<sup>6</sup> -أنظر:

الكاثوليكية إلى تغيير سياسة الكنيسة فيما يتعلق بتجنيد وترسيم رجال الدين، فقبل هذا التاريخ لم يكن يُسمح لأحد تولي شؤون الكنيسة ما لم يبلغ من العمر خمسا وعشرين، لكن في أعقاب الموتان قام البابا كلمنت السادس بتخفيض سن الرسامة إلى سن العشرين فحسب، خاصة وأن الأغلبية الساحقة من الناس بأوروبا في العصور الوسطى لا يُجيدون القراءة بل كانوا يعتمدون على الرهبان ليترجموا لهم الكتاب المقدس<sup>1</sup>.

فالكنيسة حرصا منها على سد الفراغ الذي سببه الوباء تخلت عن المعايير القديمة المتوارثة في تعيين رجال الدين، فجندت رجالا أقل خبرة وأدنى تعليما، كما أن أكثرية رجال الدين المبتدئين كانت تنقصهم المعايير الأخلاقية العالية التي تحلى بها أسلافهم، ففي عام 1350م اتهم سيمون إسلاپ (Simon Islap) أسقف كانتربري (Canterbury) بإنجلترا، عددا من رجال الدين الجدد وبعضا من القدماء الباقين على قيد الحياة بجلب العار إلى الكنيسة جراء طمعهم الجامح، ومن جهته انتقد البابا كلمنت السادس عام 1351م رجال الدين الكاثوليك على حيدهم عن الأخلاق السامية التي تكون قدوة لرعاياهم<sup>2</sup>.

ونتيجة لهذا الفساد الذي استشرى بين رجال الدين، كثرت الانتقادات عقب فترة الوباء وهبت حركات مختلفة تدعو إلى إصلاح الكنيسة منها، حركة فراتيشيلي (Fraticelli) وهي جماعة الرهبان الفرنسييسكان (Franciscans)<sup>3</sup> الإيطاليين التي كانت ترى أن الزهد والتقشف هو جوهر الحياة المسيحية واستنكرت ثروات الكنيسة، إضافة إليها هناك حركة لولارد (Lollards)<sup>4</sup> وهي

<sup>1</sup> - أنظر: Slavicek (L. Ch.), op.cit., p.95.

<sup>2</sup> - أنظر: Ibid., p.96.

<sup>3</sup> - جماعة الفرنسييسكان: تأسست ما بين 1206م و1210م على يد القديس فرنسيس الأسيزي (St. Francis of assisi) بإيطاليا وتختلف هذه الهيئة عن باقي التنظيمات الدينية في كونها تُصر على اتباع حياة التقشف والزهد لها ولأتباعها اقتداءً بالمسيح، وهي توفر خدماتها للفقير والغني على حد سواء. للمزيد أنظر: Chester Jordan William, The middle ages : Vol.02, American Council of Learned Societies, USA, 1996, 124.

<sup>4</sup> - تسمية تُطلق على طائفة ظهرت في أواخر القرن الرابع عشر، وجهوا انتقادات جمة للكنيسة، وأبدوا استيائهم من خضوع كنيسة إنجلترا لكنيسة روما وهاجموا عقيدة الاستحالة (the doctrine of transubstantiation) وعزوية رجال الدين وكذا تحكم السلطة الروحية في الزمنية، تقديس الأشياء المادية، السير في مواكب الحج، وكذا تبجيل وعبادة الصور. وقد تم اصدار مرسوم بحرق هذه الطائفة سنة 1401م وقد استمر قمعهم بشدة في عهد الملك هنري الخامس. أنظر:

Corèdon (Ch.) and Williams (A.), A dictionary of medieval terms, p.179.

طائفة الإنجليزية قامت أساسا على تعاليم جون ويكلف (John Wycliffe) المدرس بجامعة أوكسفورد<sup>1</sup>.

لقد تسبب الوباء الذي حل بأوروبا (1347-1350م) في إحداث عدة تغيرات في مواقف وسلوكات الناس، خاصة وسط الطبقة الكادحة في المجتمع، فأنجلترا على الرغم من أن حركة التوابين لم تطفأ أرضها إلا أنها شهدت أكبر انتفاضة للفلاحين سنة 1381م بعد تأزم الأوضاع الاجتماعية جراء الحروب والمجاعات وكذا الوباء، فلم يعد الفرد قادرا على دفع أعباء كل هذا بل فضل التعبير عن رفضه عن طريق العنف، وقد ظهرت بإنجلترا شخصية روبين هود (Robin Hood) الخيالية واعتبر كبطل ومثالا للمحرومين الذين أثاروا القلاقل ما بين 1350م إلى غاية 1440م، فالثورة التي قام بها الفلاحون في 1381م أعقبتها العديد من أعمال الشغب والفوضى في كل من شيشتر (Chester) خلال السنوات، 1393، 1390، 1384، 1382م، أما بفرنسا فقد ثار الفلاحون المعروفون بجاكيري (Jacquerie) سنة 1358م، أما بفلورنسا فقد ثار صناع الصوف والذين عرفوا بالتشيومي (Ciompi)<sup>2</sup> وبالتالي تضاعف حجم الموتى بأوروبا وانهار الاقتصاد نتيجة لتداخل المحن والنكبات فيما بينها سواء حروب، مجاعات أو أوبئة .

### III- انعكاسات الوباء على الجانب الاقتصادي

#### 1- الزراعة

انهار الاقتصاد الأوروبي في القرن الرابع عشر بفعل الحروب، فأنجلترا مثلا تضررت كثيرا جراء المعارك التي خاضتها مع اسكتلندة وإسبانيا وكذا المنافسة مع العصبة الهانزية<sup>3</sup>، ناهيك عن الثورات التي اندلعت بها<sup>4</sup> والانتفاضات في كل من إيرلندا وويلز، وكذا نزاعها

<sup>1</sup> - أنظر: Slavicek (L. Ch.), op.cit., p. 97.

<sup>2</sup> - أنظر: Byrne (J. P.), op.cit., p. 86.

<sup>3</sup> - العصبة الهانزية هي فيدرالية أو اتحاد للمدن الألمانية تم تأسيسها في أواخر القرن الرابع عشر للحفاظ على الدور السياسي في التجارة الأوروبية وهي تشبه التكتلات التي كانت سائدة من قبل كتكتل المدن الفلمنكية بقيادة مدينة بروج في القرن الثالث عشر بلندن وعُرفت ب هانزا وذلك لتمثيل تجار هذه المدن أمام السلطات الإنجليزية لحماية مصالحهم وامتيازاتهم، كما كان هناك أيضا تنظيم هانزية كولونا لحماية المصالح التجارية بإنجلترا بعدها جاءت العصبة الهانزية وأصبح التعامل مع تجار شمال ألمانيا يعني التعامل مع جسد واحد ممثل في العصبة الهانزية واندجحت فيها عصبة كولونا وصارت كلها عصبة التجار الألمان بلندن. للمزيد أنظر:

Postan (M.M.) and Miller (Edward) The Cambridge economic history, Vol.2, 2nd edit, Cambridge University Press, London, 2008, p.p.273-274.

<sup>4</sup> - عن الحروب والأزمات التي شهدتها إنجلترا أنظر الفصل الأول، ص.34.

الميرير مع فرنسا، هذه الأخيرة هي أيضا لم تسلم من مخلفات الحرب وعانت الولايات من الجيش الإنجليزي<sup>1</sup> ليزيد الوباء من شدة هذه المحنة، إذ أصيب الاقتصاد بأوروبا بالشلل جراء ارتفاع نسبة الوفيات، فأغلقت الأسواق ولم يعد هناك من يعمل في الحقول<sup>2</sup>، ومن شدة هول الكارثة عجز حتى الأصحاء عن أداء واجباتهم المعتادة<sup>3</sup>.

وبذلك اتسعت الهوة بين العرض والطلب وعرفت الأسعار والأجور تذبذبا، مما أحدث تغيرا في العلاقة بين ملاك الأراضي والفلاحين العاملين بها، فبشمال إيطاليا أضحت زراعة الأراضي مشتركة، وبإنجلترا تحول الأسىء إلى عمال بأراضيهم لانعدام العمال، فتراءى للكثير أن الإقطاع يعيش آخر أيامه<sup>4</sup>، وبتوسكانيا وسط إيطاليا رفض الفلاحون العمل لدى ملاك الأراضي، أما ببعض المناطق بإنجلترا فإن أجور العمال عرفت زيادات مذهلة<sup>5</sup>، في حين ارتفعت الأجور بفلورنسا وباريس خلال موجة الوباء الأولى وازدادت ثلاث أضعاف في العام الواحد، حتى في المدن الصغرى بجنوب إنجلترا أيضا تضاعفت أجرة يوم العمال الحرفيين<sup>6</sup>.

ولتدارك الموقف، وفي محاولة لإنقاذ الاقتصاد سعت حكومات المدن الأوروبية إلى تنظيم أجور العمال والحد من هذه الزيادات الكبيرة، فبادرت مدينة سينا إلى عقد مجلس عام 1348 م، تمخض عنه مرسوم يرمي إلى التضيق على العمال وكبح رغبتهم في رفع الأجور، ومن جهة أخرى سعى المجلس إلى جذب اليد العاملة الفارة عبر تقديم وعود مغرية لهم في المرسوم الذي تمخض عنه، وقد شمل هذا المرسوم التشريعي (القانون الخاص بعمال سينا) كل من المدن التالية: البندقية، أوفيتو (Orvieto)، بيزا و راغوزا (Ragusa)<sup>7</sup>.

ونفس الإجراء اتخذه إنجلترا حيث أصدر الملك تعليمات عام 1349م تقضي بتثبيت الأجور على النحو الذي كانت عليه قبل الوباء، وفرنسا هي الأخرى اعتمدت هذا الإجراء<sup>8</sup> إلا أن العمال

Hirshleifer(J.),Black death in western europe,p.18.

Slavicek (L. Ch.),op.cit.,p.78.

Byrne (J. P.),op.cit.,p.57.

Slavicek (L. Ch.),op.cit.,p.82.

Jones( M.) ,The New Cambridge Medieval History, Vol.VI,p.200.

Aberth(J.),op.cit.,p.87.

Hirshleifer(J.),op.cit.,p.12.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

<sup>3</sup> -بوكاتشو،المصدر السابق،ص.45.

<sup>4</sup> -أنظر:

<sup>5</sup> -أنظر:

<sup>6</sup> -أنظر:

<sup>7</sup> -أنظر:

<sup>8</sup> -أنظر:

بقوا مصرين على طلبهم في زيادة الأجور وكانوا على ثقة أنهم إن تركوا العمل عند أحدهم فإنهم سيجدون بسهولة مستخدماً آخر يلي طلبهم ولم يذعنوا لقرار الملك بل تجاهلوه، ليضطر بعدها البرلمان إلى عقد جلسة أخرى عام 1351م أملاً في وضع قانون أكثر حزمًا من شأنه أن يعيد الأجور إلى ما كانت عليه قبل الوباء، ومن ضمن بنود هذا القانون هو إجبار العمال على القبول بالأجر الذي يحدده المستخدِم، ومن يرفض ذلك سيواجه غرامات مالية باهظة أو يتعرض للسجن، ولكن هذا القانون صُعِبَ تجسيده في ظل نقص اليد العاملة والحاجة الماسة لها، في حين نجحت فرنسا في تحديد سقف أجور العمال من خلال مرسوم 1349م وإعادة تأهيل ما كانت عليه قبل هجمة الوباء، وعلى نهج إنجلترا، فرنسا وإيطاليا سارت باقي المناطق الأوروبية وأصدرت قرارات مماثلة إلا أنها وجدت صعوبة بالغة في تجسيدها على أرض الواقع<sup>1</sup>.

وبالموازاة مع ارتفاع أجور العمال عرفت أسعار المحاصيل الزراعية انخفاضاً نظراً لقلة الطلب عليها، فالوباء تسبب في موت الكثيرين مما يعني تقلص المستهلكين، وهذا الأمر سبب خسارة مالية كبيرة للنبلاء وملوك الأراضي<sup>2</sup>. ولكن في بعض المدن بالرغم من انخفاض عدد قاطنيها بصفة مروعة كما هو الحال بمدينة فلورنسا، إلا أنها كانت تجد صعوبة في التزود بمحصول الحبوب المستورد من مناطق بعيدة وظلت عرضة للمجاعات وشهد الحزام الحضري كالي - كولونا Calais-Cologne بالطلب الواسع للحبوب وبالأخص الشيلم (Rye) المحلوب من مناطق البلطيق براندانبورغ (Brandenburg)، بومرانيا (Pomerania)، بولندا وبروسيا<sup>3</sup>، ومن جهة أخرى ازداد الطلب على اللحم وبخلاف الحبوب كانت تكلفة نقل اللحوم أقل ذلك أن المواشي كانت تُستورد وهي على قيد الحياة ليتم بعدها قتلها من قبل المستوردين ليستفيدوا من لحومها<sup>4</sup>.

## 2- الصناعة والتجارة

وبخصوص الصناعة لوحظ الإقبال المتزايد على الملابس الزهيدة المصنوعة من الصوف الخفيف وبطبيعة الحال نجم عن هذا توسع صناعة الملابس الرخيصة، حيث صُعِدَت لومبارديا من إنتاجها لمثل هذه الملابس وحذت حذوها العديد من المدن الصغيرة شرق الفلاندرز وشمال برابانت (Brabant)

Slavicek (L. Ch.), op.cit., p.82-83.

Ibid., p.87.

Jones (M.), The New Cambridge Medieval History, Vol.VI, pp..200-201.

Ibid. , p. 202 .

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

وقد كانت المصانع بحاجة إلى المواد الخام ومن أجل هذا رفعت من نسبة طلبها لاستيراد الصوف من قشتالة وأبوليا. كما ازداد طلب القطن الرخيص الذي يُصنَّع في البداية ب لومبارديا مستعنيين بقطن سوريا المستورد من طرف البندقية، كما ارتفع الطلب أيضا على الكتان والنسيج القطني **الفُستيان (fustian)** وقد كان التجار يشترون القطن السوري الخام من أسواق ميلانو والبندقية<sup>1</sup>.

أما بالنسبة للمورد الاقتصادي الآخر وهو التجارة فقد عرفت على غرار الزراعة والصناعة شللا تاما تسبب فيه خوف الناس من انتقال العدوى ، فمثلا بادوا الإيطالية فرضت حضرا على المدينة ومنعت الغرباء من دخولها، فلم يعد بإمكان التجار التنقل من مدينة إلى أخرى<sup>2</sup> في حين أبدى الناس بأفنيون الفرنسية تخوفا من استهلاك السلع التي تأتي من الشرق كالتوابل، ظنا منهم أنها موبوءة<sup>3</sup> وبالتالي كسدت السلع وأصبحت التجارة بعجز تام .

ومن جانب آخر ساهم الوباء بشكل كبير في التعجيل بزوال الإقطاع وتبدل حال العائلات الأرستقراطية وقد صور لنا ذلك بوكاتشو في روايته الديكامرون وهو يتحسر على ذلك فقال: "آه كم من القصور الفخمة والبيوت البديعة، وكم من المنازل النبيلة كانت تعج من قبل بأسر وسادة وسيدات تحولت إلى أماكن مقفرة، خلت حث من خدمها، وكم من الأسر العريقة وكم من الثروات الطائلة وكم من الأملاك ظلت دون ورثة شرعيين"<sup>4</sup>. فالمستأجرون فروا من منازلهم ذعرا من الوباء ثم لحقهم الوباء وماتوا كالذباب، تركوا الإقطاعات في صمت كالمقبرة، لتنهار الإيرادات فجأة وترتفع الأجور وتذوي الأرباح الإقطاعية، ليكسب الكادحون الذين تربطهم عهود بالأسياح حريتهم، وتوقفت الطاحونات عن العمل . ثم إن الأسواق والمعارض لم تعد تُقام بسبب الوباء والصيادون ماتوا على متن القوارب وانهارت إيرادات الدمغ ( ختم الطابع ) و انخفضت رسوم الطريق وانهارت المداخيل التي تأتي من مستحقات المرور ولم يعد موظفو الإدارة قادرين على جني محاصيلهم بعد أن تحرر المستأجرون.<sup>5</sup>

#### IV-انعكاسات الوباء على الجانب الفني ،الثقافي والأدبي

##### 1- الجانب الفني

Jones( M.) ,op.cit.,p.202.

Horrox(R.),op.cit.,p.35.

Ibid.,p.09.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - بوكاتشو،المصدر السابق،ص.45.

<sup>5</sup> - أنظر:

Peter George Mode, op.cit., ,p.37.

يعتبر الفن نافذة على الماضي فهو يصور الحياة اليومية للمجتمع على مر العصور من عادات وتقاليد وسلوكات وتطلعات، وقد احتفظت لنا اللوحات والرسومات الجدارية المنجزة خلال حقبة ما بعد الوباء بتفاصيل دقيقة عن تصورات الفرد في تلك الفترة .

فقد سجلت كيفية دفن ضحايا الوباء، كما رسمت الأطباء مع المرضى والمواكب الدينية مما أعطانا صورة واضحة عن الحياة اليومية للمجتمع الأوروبي أثناء وبعد الوباء، فهذا الفن يعرض لنا حالة الخوف والقلق التي كان يعيشها الناس في تلك الفترة وقد ظهرت أعمال الفنانين التي تجسد هذا الواقع في الكتب والكنائس وعلى الأضرحة، فالكثير من اللوحات جسدت صورة الله، الملائكة أو الشياطين وهي تلقي بالرماح وتقذف بسهام الطاعون على المدن أو الناس، فهذه اللوحات تعطينا واحدا من تفاسير حدوث الوباء لدى الناس في تلك الآونة<sup>1</sup>، فكان استخدام السهم في تلك الرسومات كرمز يدل على الطاعون أكثر شيوعا ثم يضاف إليه الرمح والسيف، وقد اتخذ السهم منذ القدم للدلالة على الجزاء الرباني، ففي فرنسا زُينت كنيسة القديس أندري ( ST. André ) بمدينة لافوديو (lavaudieu) بلوحة جدارية في 1355م، جسدت الطاعون على هيئة امرأة تمسك في قبضتها حزمة من السهام وعلى الجانبين يحيط بها الكثير من ضحايا الوباء من مختلف شرائح المجتمع<sup>2</sup> بالإضافة إلى هذا جسد لنا الفنانون في القرن الخامس عشر الكثير من الرسومات التي تحكي المأساة التي عاشها الناس في القرن الرابع عشر .

كما عرفت فنون النقش على المقابر تقدما ملحوظا، فكما هو معلوم أن الكثير من الناس تم دفنهم في مقابر لا تحمل أي علامة تدل على المدفون بها، بل إن البعض دفنوا في مقابر جماعية يصعب تحديد هوية من فيها، لهذا السبب ارتأى الناس بعد قرنين من الزمن تعليم (وضع إشارة ) مقابر موتاهم وذلك بنحت تماثيل لهم يضعونها فوق الأضرحة أو يدفونها مع الموتى<sup>3</sup>. و يُعتبر هذا نقلة نوعية في فن النحت الجنائزي بأوروبا حيث ظهر لأول مرة بفرنسا ثم انتقل إلى إنجلترا ومنها إلى ألمانيا، وتباينت هذه المناطق في طريقة تجسيدها للمنحوتات فبالإنجلترا مثلا كانت عارية تماما أما بفرنسا

Byrne (J. P.),op.cit.,p.p.89,90.

<sup>1</sup> -أنظر:

DesOrmeaux Anna L.,A Thesis the Black Death and its effect on Fourteenth and Fifteenth Century, Century Art,Louisiana Sate University,2007,p.p.29-30.

<sup>2</sup> - أنظر:

Byrne (J. P.),op.cit.,p.89,90,91.

<sup>3</sup> -أنظر:

وبرغنديا فكان جزء منها يغطي أما بألمانيا فكانت أشكال الثعابين والضفادع تلفها وعرف عندها بـ الفن الجنائزي وهي لوحات تصور مأساة الموت<sup>1</sup>.

إن أول ضريح انتقالي عُثر عليه يعود إلى أحد النبلاء السويسريين فرنسوا دو سارا (François de la Sarraz) والذي توفي حوالي 1363م بسويسرا بكنيسة لاساراز (la sarraz) التي بناها هو وزوجته سنة 1360م وقد أقام هذا الضريح حفيده سنة 1390م وكان التمثال المجسد له مغطى بالأفاعي والديدان والضفادع التي تلف وجهه<sup>2</sup>، وكانت هذه الديدان رمزا للفساد والتعفن مما يشير إلى الطاعون، فهذه الأضرحة يطلق عليها تسمية (Transi Tombs) حيث اشتقت كلمة (Transi) من اللاتينية (Transir) والتي تعني الانتقال، وهي عبارة عن تماثيل تعوض الجثث المتعفنة وتعتبر عن صاحبها، فـضريح فرنسوا السالف الذكر وكذا ضريح الطبيب وليم (Guillaume de Harcigny) بليون الفرنسية الذي يعود إلى سنة 1390م<sup>3</sup> يعطيان صورة واضحة عن هذا النمط من الفن الجنائزي<sup>4</sup>.

أما بتوسكانيا التي تقطنها الطبقة البرجوازية فقد تجلّى بها من قبل نوع جديد من الفن يبعث التفاؤل عرف بفن جيوتو: (Giotto)<sup>5</sup>، فهذا الفن يعكس الرؤية التفاؤلية لدى هذه النخبة الثرية فهي تدعو إلى الاستمتاع بالحياة والتمسك بها، إلا أن ما أحدثه الوباء من دمار وبهذه المنطقة بالذات وفقدان توسكانيا لنصف سكانها غير نظرة التفاؤل التي كانت سائدة من قبل لدى الطبقة البرجوازية، ونفس التغيير نجده لدى الفنانين، فالعديد منهم لقي نخبه، وبذلك فقدت أوروبا مواهب فذة في هذا المجال وانعكس هذا على الفن وطبعه بطابعه الخاص، فإذا كان الفن في القرن الثالث عشر وكذا قبل اجتياح الوباء لأوروبا عنوانه البهجة والتفاؤل. فإن ذلك قد ولى ومات مع موت فناني تلك

<sup>1</sup> - أنظر: Byrne (J. P.), op.cit., p.92.

<sup>2</sup> - أنظر: DesOrmeaux (A.L.), op.cit. p.p.49-50.

<sup>3</sup> - أنظر: Aberth (J.), op.cit., p.169.

<sup>4</sup> - لتوضيح أكثر أنظر الصورة بالملحق رقم 04 ، ص.144.

<sup>5</sup> - يُنسب هذا الفن للرسم الإيطالي جيوتو (Giotto di Bondone)، فقد وضع نمطا للرسم يحتذي به الفنانون في المستقبل، ولعل أهم اسهام له في فن الغرب هو استعماله لأسلوب إيمائي يحكي ويترجم أحاسيس الإنسان القوية، درس جيوتو الفن في فلورنسا، في عام 1330م دخل في خدمة الملك روبرت آنجو -حاكم فرنسي- الذي كان يحكم مدينة نابلي، وقد أحب جيتو كثيرا تعلم الفن القوطي الفرنسي، وبعد أربع سنوات عاد إلى فلورنسا كرئيس للمهندسين المعماريين بكاتدرائية فلورنسا وتبعاً لذلك صمم برج الكاتدرائية الشهير. للمزيد أنظر:

Chester Jordan (W.), The middle ages, Vol.02, p.164.

الحقبة، فالوباء بمخلفاته المروعة اقتلع بذور الأمل لدى المجتمعات الأوروبية وصار شغلها الشاغل هو كيفية النجاة من هذا الجحيم، لذلك لجأ الفنانون إلى رسم لوحات مأسوية<sup>1</sup>.

وقد ترك الوباء أثاره أيضا على المعمار ولُوحظ ذلك في العديد من المناطق ففي بعض الحالات لم يتم اتمام بعض البنايات، في حين أُكملت الأخرى بعد انجلاء الوباء مع تغير نمط وهندسة المباني، وبمأن الناس كانوا على يقين بأن الوباء هو عقاب من الله على سيئاتهم، فإن ظاهرة لجوئهم إلى القديسين ليشفعوا لهم أمام الله أو يرفعوا عنهم الوباء كانت الأبرز في هذه الفترة، فعمد هؤلاء إلى تصوير القديسين (كما فعل سكان سينا) والطواف بصورهم اعتقادا منهم ببركتهم وقدرتهم على تخليصهم من الوباء، فزينت جدران الكنائس والمنازل وأسوار المدن بصور القديسين بل حتى بوابات المدن كذلك، ومع الوقت انتقل دور القديسين من شفعاء إلى دافعي الوباء فصار الناس يتخذون صورهم كحرز من الوباء، فكان توجههم بكثرة إلى القديسة مريم العذراء والدة السيد المسيح، فتجلت للمسيحيين في صورة المخلص أو ما يعرف لديهم بصورة مريم الرحيمة (Misericordia).<sup>2</sup>

وقد تم رسم هذه الصورة المعبرة عن حماية مريم للناس من الوباء أول الامر سنة 1372م من طرف بارنبا مودينا (Barnaba of Modena) وذلك لصالح كاتدرائية جنوة، وفي هذه الصورة تظهر مريم العذراء وهي واقفة ترتدي عباءة واسعة (فضفاضة) وتبسطها على جماعة من الأفراد الراكعين لها، كتعبير على بسطها لحمايتها عليهم ومن الأعلى تظهر الملائكة والمسيح والشياطين وهم يلقون بسهام الطاعون، في حين ترفع مريم عباءتها لتصد تلك السهام<sup>3</sup>، كما رسمت لوحة أخرى تعبر عن نفس الفكرة من طرف بينديتو بونفيجلي (Benedetto Bonfigli) سنة 1464م أظهر فيها العذراء وهي تحلق في السماء فوق المدينة الموبوءة وهي تردع بعباءتها سهام الطاعون عن البشر المغلوب على أمرهم، كما صورها محاطة بالقديسين، أما فوق رأسها فقد رسم المسيح وهو يمسك بثلاث سهام ويرافقه على الجانبين ملكين يحمل كل منهما سيفاً، ومن الجانب الآخر يُصور الشيطان وهو يطعن الناس بالسهم فلجئوا للاحتماء بعباءة مريم العذراء<sup>4</sup>.

Gottfried (R.),op.cit.,p.90.

Byrne (J. P.),op.cit.,p.93.

Ibid.,p.94.

DesOrmeaux (A.L.),op.cit.p.p.92-93.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> -أنظر:

أنظر الملحق رقم 03، ص 143.

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

وقد أحدث هذا التجسيد لمريم العذراء كحامية للناس إشكالا، فهو من وجهة نظر أخرى يعني أنها قادرة على عرقلة مشيئة الله، لذلك فرضت الكنيسة الكاثوليكية حجزا على هذه الصورة بعد مجمع ترانت (Trent) بإيطاليا في منتصف القرن السادس عشر<sup>1</sup>.

دون أن ننسى الدور الذي لعبه كل من القديس سيباستيان (Saint Sebastian) وسان روك وسان ميشال في وباء 1348م أين استنجد الناس بهم وآمنوا بقدرتهم على تخلصهم من الوباء، وقد جسدت العديد من اللوحات لهؤلاء القديسين.

وقد كان استشهاد القديس سيباستيان من بين أكثر المواضيع الراسخة في الفن الديني بالغرب الأوروبي، فأغلب ما عُرف عن حياة القديس سيباستيان كان أسطوريا، وقد كان عضوا هاما ضمن الحرس الإمبراطوري خلال فترة حكم الإمبراطور ديوقليسيانوس وفي عام 228 م. فترة اضطهاد المسيحيين أبدى سيباستيان تعاطفه معهم، كما صرح باعتناقه للديانة المسيحية وهو الأمر الذي حرض الإمبراطور على الأمر بإعدامه، فتم رشقه بالسهم وتُرك حتى يموت، إلا أنّ معجزة حدثت فأنقذته حيث أسعفته امرأة قديسة اسمها إيرين (Irene)، وبعد نقاهة سيباستيان قام بإلقاء اللوم على الإمبراطور ديوقليسيانوس وعاب عليه معاملته الوحشية للمسيحيين، ليتم الإمساك به وتنفيذ حكم الإعدام فيه ولكن هذه المرة ضُرب حتى الموت<sup>2</sup>.

وقد تضمنت أعمال بعض أبرز فناني النهضة الأوروبية لوحات للقديس سيباستيان وعلى رأسهم تيتان (Titian)، تينتوريتو (Tintoretto)، دال سارتو (del Sarto)، مانتيجنا (Mantegna) ودال كاستاغنو (del Castagno) وهي تدل على أن صورة القديس سيباستيان نصف العارية هي من بين الأنماط القليلة المسموح بها في الفن المسيحي الباكر، ومن بين العديد من صور القديس خلال عصر النهضة تُعتبر لوحات كل من الفنانين، بيروجينو (Perugino)، سودوما (Sodoma) وفرانسيا (Francia) الأفضل من باب الجمال الظاهري ودقة التجسيد<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: DesOrmeaux (A.L.), op.cit.p.p.92-93.

<sup>2</sup> - أنظر: Armand P. Gelpi, Saint Sebastian and the Black Death, Vesalius, IV USA., 1998, p.24.

<sup>3</sup> - أنظر: Armand P. Gelpi, op.cit., p.p.23-24.

وقد وُجدت الكثير من الرسومات الرمزية التي تُصور ضحايا الطاعون كجرحى وموتى تحت وابل من السهام المرمية من طرف جلادين من السماء، وترمز هذه السهام إلى وباء الطاعون، ويعود هذا التشبيه لأساطير قديمة إذ كان الناس يؤمنون بأن الإله يُنزل العقاب على المذنبين وهو بالنسبة للإغريق الإله أبولو (Apollo)، ليأتي القديس سيباستيان كشفيع لضحايا الوباء. وقد أظهرت مجدا فسيفساء بكنيسة سان بياترو (San Pietro) الواقعة ب فينكولي بروما (Vincoli) سيباستيان في صورة جندي روماني لكن مع وصف جاء كالآتي :

"لسباستيان، الشهيد، مكافح ودافع الوباء، في عام الخلاص 680 م اجتاحت مدينة روما وباء شديد وخبيث... هكذا كان عدد الموتى كثيرا حتى أن النعش الواحد ضمن الآباء وأبنائهم، النساء وأزواجهن، الإخوة مع أخواتهن، كلهم دوفنوا في أماكن مملوءة بالجثث وبالكاد تكفيهم... انتشر الوباء طوال الوقت حتى أُعلن عن رجل قديس وضع حدا لهذه النكبة. وكان من الواجب أن يُكرس للشهيد سيباستيان مذبح بكنيسة القديس بطرس (St Peter)، لكن أثناء الشروع في إقامته انحسر الوباء فجأة وبالتالي أمر بالتوقف عن اتمامه".<sup>1</sup>

وبغض النظر عن حياة القديس سيباستيان وما يحوم حولها من أساطير وبالرغم من أن حكايته ضاربة في القدم إلا أنها رجعت للأذهان بتجدد الوباء بأوروبا عام 1348 م .

ومع نهاية القرن الرابع عشر برزت تجسيدات لا تُحصى للقديس سيباستيان سواء على الألواح الخشبية أو على الجبس وكانت هناك كنائس ومصليات مكرسة لتعليق صورته، والكثير منها زُينت بالدمى المجسدة لهذا القديس من بينها المصلى (chapel) الذي لا يزال قائما ب (Lansvillard) بفرنسا ويتضمن هذا المصلى سبعة عشر لوحة جدارية تروي حياة القديس واثنين منها تُعنى مباشرة بدور القديس سيباستيان في دفع الوباء.<sup>2</sup>

## 2- الجانب الثقافي

إنعكس الوباء على الناحية الثقافية حيث لوحظ تغير و بروز للكتابات باللغة المحلية، الأمر الذي جعل الكنيسة تعتبره حركة تقدمية مناهضة لها وللغة اللاتينية، و علاوة على هذا ظهرت

Armand P. Gelpi, op.cit., p.26.

Ibid., p.24.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

مدارس وجامعات<sup>1</sup> جديدة فتم تأسيس معاهد بجامعة كامبريدج، ك: (Gonville) ما بين 1348-1350م، و(Trinity Hall) في 1350، (Corpus christi) في 1352م و(Clare Hall) في 1362م، أما جامعة أكسفورد فقد تدعمت بكليتين جديدتين: كانتربري (Canterbury) سنة 1362م والكلية الجديدة (New college) في 1372م، كما ازداد عدد الجامعات في القارة الأوروبية، ففي 1348م منح الإمبراطور شارل الرابع الميثاق للجامعة الجديدة ببراغ (Brage) والتي لازلت إلى يومنا هذا تحمل اسمه، وقد استقطبت العديد من الطلبة الألمان والتشيك الذين كانوا فيما سبق ينتقلون إلى جامعة بولونا (Bologna) وباريس (Paris) للدراسة، كما تم أيضا إقامة جامعات في كل من فينا (Vienna) وكراكوا (Cracow) سنة 1364م وأخرى في (Funfkirchen) بهنجاريا سنة 1367م، وكذا ب (Heidelberg) سنة 1385، وفي المجموع فإن كل جامعات شرق نهر الراين وشمال الألب تم تأسيسها بعد هجمة الوباء، وقد كان سبب تأسيسها هو النقص الفادح في رجال الدين وانحطاط التعليم بعد الوباء، أما إيجابية تأسيسها فتكمن في تقويض هيمنة المراكز الجامعية العريقة كباريس وبولونا<sup>2</sup>.

أما بخصوص الكفاءة فإنه يصعب تقييم جودة التعليم في هذه المدارس الجديدة، إلا أن الأكيد أن مناهجها الدراسية تحررت من ثقل المواضيع التقليدية، فمثلا بجامعة فلورنسا التي تم تأسيسها في 1350م حلت الدراسات الإغريقية والبلاغة مكان المنطق في برنامج الفنون الحرة، ليمتد الإصلاح بسرعة ويشمل باقي الجامعات بإيطاليا وأعطت دفعا قويا لإحياء الدراسات الكلاسيكية، ومن جهة أخرى خففت هذه الجامعات الجديدة تماسك وترابط ثقافة العصور الوسطى ومهدت الطريق لإحداث إنشقاق ثيولوجي، وبالتالي أدخل هذا الوباء أوروبا في عصر الثقافة الوطنية المحلية وقد لوحظ هذا التأثير في التعابير اللغوية إذ أدى تراجع عدد المعلمين الذين يجيدون اللاتينية إلى ضرورة وحتمية استعمال اللهجات العامية (المحلية) وهذا الأمر خفض من مستوى الجامعة من جهة ومن جانب آخر حث الانحدار في اللاتينية الجامعة على شحذ الهمم خاصة بإيطاليا لإعطاء دفع جديد للغة<sup>3</sup>.

Byrne(J.P.),op.cit.,p.p.57-58.

<sup>1</sup>-أنظر:

Herlihy (David),The Black Death and the transformation of the west,edited

<sup>2</sup>-أنظر:

by Samuel K.cohn,Harvard University Press and Cambridge ,London-England,1997, p.71.

Herlihy (David),op.cit.,p.p.70-71.

<sup>3</sup>-أنظر:

أثر الوباء على التعليم بأوروبا بما فيه الطب، حيث راجت في هذه الآونة مؤلفات طبية حول الوباء كُتبت باللغة العامية (المحلية) كنقيض للغة اللاتينية، فقبل هذه الفترة كان النبلاء ينجحون متأثرين باللغة الفرنسية وكانت هذه العينة تتحدث بها، وحتى الأطفال بالمدارس كانوا يتلقون دروسهم بهذه اللغة، لكن بعد الوباء قامت مدرسة كورنوال (Cornwall) للمرة الأولى بإدخال الإنجليزية ضمن منهج تدريس التلاميذ، ليتم لاحقاً اتباع هذا المثال بمدارس أخرى في حدود عام 1385م<sup>1</sup>.

### رقصة الموت (Dance of Death):

ومن جانب آخر كان الوباء سبباً في ظهور ما عرف بـ: "رقصات الموت"، حيث تقوم إحدى النساء بتمثيل دور الموت أو الهيكل العظمي، ثم تدعو المشاركين في الموكب إلى مراقبتها، وتعود هذه الرقصة إلى القرن الثاني عشر وكان لها شعبية عريضة وراح الناس يتغنون بها في مجاهلتهم للوباء، وكان عنوان الأغنية "الغضب الرباني"<sup>2</sup>.

استقطبت رقصة الموت (Danse Macabre) أو (Dance of Death) كل فئات المجتمع من الملوك إلى العبيد، من النبلاء إلى الفلاحين، رقصوا إلى جانب هياكل عظمية باسمه وإلى جانب الجثث المتعفنة، وكانت رسالة هذه الرقصات واضحة فهي تُعبر على شمولية الموت لكل المستويات، إذ أخذ الغني والفقير، المتعال والمتواضع<sup>3</sup>. وفي سنة 1374م تجمع النساء والرجال بمدينة إكس لاشابيل (Aix-la-Chapelle) والذين قدموا من خارج ألمانيا يربطهم نفس الوهم مجسداً في استعراض غريب قدموه لعامة الناس سواء في الطرقات أو الكنائس، حيث شكلوا دوائر يُمسك كل واحد منهم يد الآخر، يستمرون في الرقص والهديان لساعات دون مبالاة بالمارة<sup>4</sup>، أدوا رقصات حزينة ونادراً ما كانوا يتوقفون عن الرقص للراحة أو الأكل، كانوا يرقصون لساعات أو حتى لأيام متتابة، وفي ظرف أسابيع فقط اجتاحت رقصة الموت (dancing mania) مناطق واسعة شمال شرق فرنسا والأراضي المنخفضة وذلك بعد شهور فقط من انحسار الوباء<sup>5</sup>.

Gasquet, op.cit., p.234.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - حوليو فالديون باروك، الوباء الأسود في القرن الرابع عشر، ص. 254.

Slavicek (L. Ch.), op.cit., p.99.

<sup>3</sup> - أنظر:

Hecker (G.F.C.), the Black death and the dancing mania, translated by

<sup>4</sup> - أنظر:

Babington (B. G.), Cassel's National Library, London, 1888, p.106.

Waller (John), looking back: Dancing Plague and mass hysteria, the British

<sup>5</sup> - أنظر:

Psychological Society, The Psychologist, vol.22, No7, July 2009, U.K., p., 645.

فمن إكس لاشايل انتشرت في كل من ليج (Liege)، أوترخت (Utrecht)، (Tongres) والعديد من المدن الأخرى ببلجيكا، وقد كان المترنحون يظهرون بأكاليل فوق رؤوسهم وخصرهم مطوق بحزام من القماش، وبعد شهور ظهرت هذه الرقصة العليلة بمدينة كولونا (Cologne) أين تجاوز عدد المشاركين خمس مائة شخص لتنتقل في نفس الوقت إلى طرقات مدينة متر (Metz) حيث امتلأت بألف ومائة راقص، فالفلاحون تركوا حراثتهم، والحرفيون ورشات العمل، وريات البيوت تملصن من واجباتهن المنزلية كل هذا للانضمام إلى هذا التمرد الحاصل، لتتحول هذه المدينة التجارية الغنية إلى مسرح للاضطرابات المدمرة، فالأبناء هجروا آباءهم والعبيد تهربوا من أسيادهم لئیسلوا أنفسهم بهذه الرقصات وتجرعوا سم فساد العقول، ليتفشى هذا المرض المثير للاشمئزاز مثل الوباء. وقد توجب وضع حد لهؤلاء الضيوف المؤذين واقتلاعهم، ولم يتم ذلك إلا بعد أربعة أشهر من استفحالهم حيث تمكنت مدن الراين من إيقافهم<sup>1</sup>.

وخلال القرن الموالي ظهرت هذه الرقصة من جديد وانبجست من مدينة ستراسبورغ عام 1418 وقد أشار المؤرخون أنه لاحقا استقطبت هذه الظاهرة حوالي 400 شخصا رجال، نساء وأطفال وتسببت في قتل العشرات منهم، وعلى مر مائتي سنة الموالية هوت في هذا الهذيان الراهبات في كل مكان من روما إلى باريس أين كانوا خلالها يصرخون وينتفضون ويرادون جنسيا<sup>2</sup>.

وقدم المؤرخون آراء متباينة تترجم هذه الظاهرة الغريبة والنكبة القاتلة في بعض الأحيان، وقد رجحوا أن رقصة الموت التي تداولت عام 1374م وعام 1418م كانت جزءا من عبادة رقص مهرطقة مبتدعة، و أوضح المعاصرون أن هذه الرقصة عبارة عن مرض. كما أن الدارسين في مجال علم النفس، التاريخ وعلم الإنسان وفروا دلائل مقنعة بأن رقصة الموت هذه وكذا سطوة الأوبئة على أديرة الراهبات بأوروبا ما هي في الحقيقة إلا حالات تعود إلى القدم بظواهر جد مختلفة وهي أمراض نفسية في الأصل وتعود بالأساس إلى عدم السيطرة على النفس. ويصعب تخيل هؤلاء الناس يترنحون لأيام عدة وأقدامهم تنزف وعليها كدمات وهم بكامل وعيهم، وتوجد شواهد بأنهم لم يكونوا بوعيهم التام حيث تحدث أحد المتفرجين عن رقصات 1374م أنهم كالوحوش المسعورة وأورد آخر بأنهم حينما

Hecker (G.F.C.), the Black death and the dancing mania,p.p.107,110,111.

<sup>1</sup> - أنظر:

Waller (John),op.cit.,p.644.

<sup>2</sup> - أنظر:

يرقصون تكون عقولهم مغطاة وتحديث آخر عن كيفية انهاك أنفسهم عن طريق الرقص والقفز والتصادم على الأرض مثل الوحوش<sup>1</sup>.

تم التوصل إلى أن الضغوطات هي سبب هذا المرض النفسي فالأعوام التي سبقت ظهور هذه الرقصات الوبائية كانت جد قاسية فالمناطق التي انطلقت منها الرقصات عام 1374م كانت قد ابتليت في نفس العام بأفطع فيضانات خلال القرن الرابع عشر حيث ارتفع منسوب مياه نهر الراين 34 قدما وانسابت المياه عبر أسوار المدن لتغمر المنازل والمحلات. أما بالنسبة لرقصات الوباء التي تجددت عام 1418م فإن العقد الذي سبق هذا التاريخ كانا حافلا بالمجاعات، الأوبئة والبرد الشديد تسببت بحالة من اليأس الشديد لسكان مدينة ستراسبورغ والمناطق المجاورة لها إذ ارتفعت أسعار الخبز إلى أعلى مستوياتها، وتجمع الفلاحون الجياع ومزارعو العنب عند بوابة المدينة وتفشيت الأمراض الفتاكة كالجدام والطاعون لتنضم إليهم مصيبة جديد مروعة وهي داء الزهري (syphilis) وبالتالي كانت فترات حالكة، أما بالنسبة للراهبات فهن أيضا مررن بأوقات عصيبة فرغم أن مجتمعاتهم كانت منظمة إلا أن بعضهن كن غير سعيدات فعلى الأغلب أودعت الأخوات الأديرة تلبية لرغبة أهلهن أكثر من رغبتهم هن وكان من الصعب عليهن الخروج من الدير بعد دخوله، وحتى الذين اعتنقوا الحياة الروحانية برغبتهم كن الأكثر كآبة يُعذبن الشعور بالتقصير في أداء الالتزامات المقدسة الصارمة والمفروضة عليهم من قبل هيئاتهم الدينية فانعكس عليهم ذلك سلبا<sup>2</sup>.

### 3- الجانب الأدبي:

من ناحية أخرى تم تأليف كتب عدة تناولت موضوع الوباء سواء من الناحية الطبية أو الاجتماعية تحكي ضراوة الوباء الذي حل بأوروبا وتصور مأساة وانعكاساته على الناس، وتروي بحزن ما عاشته من معانات وتكشف الغطاء عن بعض التصرفات المشينة لبعض الأفراد، كل هذا رسمته في مؤلفات أدبية نثرية كانت أو شعرية، وأعطت دفعا قويا لترسيخ اللغة المحلية التي كانت في بدايات ظهورها، كما تعتبر هذه الكتابات مرجعا أساسيا للتعرف على تلك الفترة لأنها مرآة صادقة تعكس لنا حوادث الزمن الغابر وتعرفنا به، ومنها كتابات جيوفاني بوكاتشو وجيوفري شوسر.

Waller (John), op.cit., p.644.

Ibid., p.p. 244-245.

<sup>1</sup>-أنظر:

<sup>2</sup>-أنظر:

كان بوكاتشو (Giovanni Boccaccio) <sup>1</sup> شاهد عيان على اجتياح وباء الطاعون لمدينته فلورنسا فسرد في كتابه المسمى الديكامرون (Decameron) والذي ضم مجموعة قصص قصيرة تفاصيل هذا الوباء، ضحاياه وردود فعل سكان مدينته اتجاهه <sup>2</sup>، فبوكاتشو الذي فقد العديد من أصدقائه المقربين وأفراد من عائلته بسبب هذا الوباء أورد تفاصيل عنه تقشعر لها الأبدان وذلك في مطلع كتابه الديكامرون حيث خصص له مقدمة طويلة ابتداءً بكتابته <sup>3</sup>.

إضافة إلى المشهد الروائي في عصر بوكاتشو فقد صارت أعماله ولاسيما الديكامرون نموذجاً يُحتذى به للرواية الحديثة وجعلت بذلك إيطاليا مهداً لفن السرد القصصي ولم تكن قصص الديكامرون هي وحدها التي أمتعت سهرات البرجوازيين الأغنياء، فبوكاتشو قبل خمس سنوات من كتابته كوميدياه الإنسانية كان قد ضبط اللغة الإيطالية العامية (الآخذة بالإنشقاق عن اللاتينية) لتتوافق مع منهج السرد القصصي فكانت رواية فيلوكولو (Filocolo) التي تعتبر أول محاولة في الرواية الفنية بتطلعات سيكولوجية ومحاولة لدراسة الطباع واكتشاف الأعماق الحميمة للشخصيات، إضافة إلى عمله الفني كورباتشيو (Corbaccio) أو متاهة الحب وقد نال هذا العمل الفني نجاحاً يُقارن بنجاح الديكامرون فهو يُظهر للمرة الأولى إلى أي حد يمكن للغة العامية التوسكانية التي يتجادل بها

<sup>1</sup> - ولد جيوفاني بوكاتشو عام 1313م بقرية شارتالدو (Certaldo) التي تبعد بـ 19 ميلاً عن مدينة فلورنسا، كان والده تاجراً غنياً بفلورنسا وكان ابناً غير شرعي من أم باريسية، كان بوكاتشو يميل إلى الأدب منذ طفولته، تلقى بفرنسا قسطاً من تعليمه، تمرن على التجارة مدة ست سنين وخلالها لم يبد أي كفاءة في التجارة، وبعدها ضيع تقريباً ست سنين أخرى وهو يحاول إبداء جدارته في دراسة القانون الكنسي، إلا أنه أخفق وتخلّى عنه ليعود مرة أخرى إلى التجارة، ثم درس الإغريقية واستقر بنابولي وهناك استدعاه الملك روبرت دأنجو إلى بلاطه، وقد برز بفضل ماريّا ابنة الملك روبرت دأنجو وكانت مثل بوكاتشو ابنة غير شرعية من أم فرنسية، وكانت ماريّا هي فياميتا التي تغني بها في أشعاره وكانت فيسيد هي أولى الأشعار التي تحكي قصة حب، وعند بلوغه سن الثامن والعشرين استدعاه أبوه إلى فلورنسا وهناك كتب نثراً ممزوجاً بآيات، وفي سن الواحد والثلاثين عاد بوكاتشو إلى نابولي عام 1344م ووقتها كان الملك روبرت قد توفي، مكث بنابولي حتى عام 1350م، وبعد وفاة والده أصبح حراً في إطلاق العنان لشعره وصار من أشهر الشعراء في بلاط حفيده الملك روبرت دأنجو "جيوفانا"، ومن أجل تسلية جيوفانا كتب مجموعة القصص التي ضمها كتابه الديكامرون والذي تم نشره عام 1353م وبعد إعادة نسخه انتشر بسرعة أوروبا، وفي عام 1360م غادر بوكاتشو إلى قريته شارتالدو بفلورنسا، وبعدها تقلد عدة مناصب، وفي عام 1373 استلم أول محاضرات متخصصة لدراسة دانتي بفلورنسا، وفي هذه الفترة ساءت حالته الصحية لتوافيه المنية في 21 ديسمبر عام 1375. أنظر:

Giovanni Boccaccio, the Decameron, introduced by Henry Morley, George Routledge and Sons, 6<sup>th</sup> edit, London, 1889, p.p. 5-6-7.

Byrn (Joseph p.), Daily life during the black death, The Greenwood Press, <sup>2</sup> - أنظر : London, 2006, p. 216.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p. 103. <sup>3</sup> - أنظر :

الناس في الأسواق أو يُعبرون بها في أحاديثهم متحررين من اللغة اللاتينية، أن تكتسب جمالا لدى انتقالها دون تزيين وسط نسيج نشري محكم يبدعه الكاتب<sup>1</sup>

وتعني الديكامرون باليونانية : ديكا" العدد عشرة " وهيميرا "يوم" أي الأيام العشرة، ويضم الديكاميون مائة قصة تُروى خلال عشرة أيام على السنة عشرة شباب، أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين منهم سبع نساء وثلاث رجال يلتقون في كنيسة سانتا ماريا الجديدة ويتفقون على الهرب من هلع وباء الطاعون الذي اجتاح فلورنسا ويذهبون للعيش في قصر فخم في الريف على مقربة من المدينة. الديكامرون<sup>2</sup> وقد حذى حذوه وتأثر به شوسر (Geoffery Chaucer) الذي كتب مجموعة قصص تضمنها كتابه المسمى كانتربري تالز (Canterbuey Tales) أي حكايا أو قصص كانتربري.

يُعتبر هذا الكاتب الإنجليزي أبا للغة الأدبية الإنجليزية والقصة البريطانية، كتب في حوالي العام 1389م مجموعة القصص المذكورة أعلاه، وكان مثل بوكاشيو أحد المبشرين بعصر النهضة ولكنه أقرب إلى ذهنية العصور الوسطى من المعلم الإيطالي، وقد وضع قصصه هذه في وقت كانت فيه اللغة الإنجليزية الأدبية لا تزال بدائية<sup>3</sup>، فقد كانت اللغة الفرنسية تحتل الصدارة بإنجلترا فبعد حملة 1066م انتشرت الفرنسية بشكل واسع وسط كل فئات المجتمع الإنجليزي، فخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم يكن يُنظر إلى الشعر الفرنسي كأدب أجنبي وكان الأطفال حتى عهد ادوارد الثالث يدرسون إلى جانب اللاتينية اللغة الفرنسية اجباريا، وشيئا فشيئا ومع مرور الوقت جاء ادوارد الثالث وألغى استعمالها فتوقف الناس عن التكلم والكتابة بها، ومذ عهد ادوارد ورينشارد الثاني لم تُكتب أي أغنية أو قصيدة باللغة الفرنسية بإنجلترا، ورغم ذلك فإن اللغة الفرنسية ظلت لمدة قرنين لغة رسمية بإنجلترا وظل اللسان الإنجليزي في بداياته ولا يزال أمامه الكثير ليتطور. فإنجلترا ظلت لفترة طويلة حبيسة اللغة الفرنسية إما تكتب بها أو تُترجم عنها، لكن في القرن الرابع عشر وبافتراق الأمتين -بسبب الحرب بينهما- انفصلت اللغة الإنجليزية عن الفرنسية وصارت هذه الأخيرة تُعتبر لغة أجنبية وبدأت الإنجليزية تعرف انتعاشا وتطورا مع ظهور شوسر<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - بوكاتشيو، المصدر السابق، ص. 15، 19، 20.

<sup>2</sup> - نفس المصدر، ص. 21.

<sup>3</sup> - نفسه.

<sup>4</sup> - أنظر:

Borghesi (Peter), Boccaccio and Chaucer, Bologna, 1903, p.8-9-10.

فشوسر الذي كان أشهر كاتب في هذه الفترة حاول هو الآخر من خلال مؤلفه كانتربيري تالز (Canterbury Tales) <sup>1</sup> تحقيق المتعة والتسلية لقرائه<sup>2</sup>، والحكايا التي أوردتها في كتابه تقوم أساسا على الواقع، فالحج كان في الفترة الوسيطة من بين الفرص القليلة التي يلتقي فيها الناس فيروي بعضهم لبعض القصص لتمضية الوقت خلال رحلتهم إلى مدينة كانتربيري (Canterbury) وتستند هذه القصص بالأساس إلى الواقع المعاش، ولم يصف لنا شوسر مسيرة الحج إلى كانتربيري وإنما استوحى فكرة الرحلة كناية عن العالم، وقد نقل شوسر ما شاهده وسمعه، وكانت الحكايا مترابطة ويصعب فهمها إذا تم فصل قطعة عن الأخرى<sup>3</sup>.

ورغم أن شوسر كان طفلا لما ضرب الوباء إنجلترا إلا أنه استخدم كتابه كانتربيري تالز لنقد مارآه من تدنٍ للأخلاق لدى أغلبية رجال الدين الكاثوليك وسخر منهم<sup>4</sup>، ورغم أنه عاصر حدوث أربعة أوبئة، الأول في 1348 و1349م، الثاني في 1361 و1362م، والثالث عام 1369م، أما الرابع فكان في 1375 و1376م، إلا أنه أشار إلى الوباء مرتين فقط خلال عمله<sup>5</sup> وذلك في جزء "Pardoner's Tale" الذي تقوم فيه الحكاية على خطبة تتناول ذنب الجشع يُمثلها ثلاثة شبان يقتلون بعضهم البعض من أجل حيازة مقدار من الذهب، وقد أقيمت القصة على خلفية وباء الطاعون وما أحدثه من تسيب أخلاقي<sup>6</sup>.

ويشبهه عمل الكانتربيري إلى حد كبير الديكامرون فهذه الأخيرة هي مختارات كوميدية وكذلك هي الكانتربيري وأهداف الديكامرون هي نفسها مرامي الكانتربيري ثم إنهما لا يتشابهان في الفكرة

<sup>1</sup> - يحتوي الكتاب كما هائلا ومتنوعا من المواضيع والأغراض الأدبية، تم سردها وصياغتها بترايط، ويقوم عمله هذا على عشرة أقسام أو قطع، وقد منح الحج فرصة لشوسر لجمع العديد من الحكايا وسردها في سلسلة مترابطة ولم يُعرف بالضبط متى بدأ شوسر في قصصه، والأكد أن الحج كتقليد يعود إلى سنة 1387م ولكن هذا التاريخ تحوم حوله الشكوك، وقد فرغ من كتابة قصصه عام 1390م ثم إنه لم يتمم كتابه لأسباب غير معروفة وتركه دون نتيقيح نهائي. أنظر:

Cannon (Christopher), The riverside Chaucer, Oxford University Press, 3<sup>rd</sup> edit, UK, 2008, p.04.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.103.

Cannon (Ch.), op.cit., p.05.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.103.

Borghesi (P.), op.cit., p. 47.

Horrox(R.), op.cit., p.346.

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

العامّة للعمل فقط وإنما نجد العديد من القصص التي احتوتها الكانتري تشبه كثيرا الحكايا التي أوردها بوكاتشيو في الديكامرون ويبقى الاختلاف في كون قصص بوكاتشيو أكثر مجونا من قصص شوسر<sup>1</sup>. وعلاوة على بوكاتشو وشوسر لا ننسى الشاعر بتارك، صديق بوكاتشيو الذي فقد بسبب الوباء الكثير من أصدقائه وقد كتب عنهم يرثيهم، وفي مقدمتهم حبيبته لورا (Laura)، كما رثى بقية أصحابه مثل سينوتشيو (Sennuccio) الذي قال فيه : "أيها الصديق ! تركت هنا حاجا بئسا، تركته يطوف في عزلة، يمكنني إقامة الحداد لأنك وجدت منزلك؟، فوق جناح الملاك ينقلك إلى مستقبل مشرق...أيها الصديق بلغ سلامي إلى جيتون (Guition)، سينو (Cino)، دانتي (Dante) والبقية، وأخبر لورا أنني أقف هنا، أذرف الدموع ... في حين حسنها وجمالها المبارك يحتل تفكيري..."<sup>2</sup>

Borghesi ( P.), op.cit.,p. 53.

Petrarch, the sonnets, triumphs and other poems, Sonnet XIX, translated by various hands, George Bell and Sons, York street, London, 1857, p.249.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

# الفصل الرابع:

## التدابير الوقائية والعلاجية لمجابهة الطاعون

### I- الطب والكتابات الطبية في القرن الرابع عشر

#### 1- الطب والأطباء في القرن الرابع عشر

#### 2- المقالات الطبية حول وباء الطاعون في القرن الرابع عشر

##### أ- المقالات اللاتينية

##### ب- المقالات العربية

### II- التدابير الوقائية

#### 1- الحماية الغذائية

#### 2- النوم

#### 3- مقر الإقامة

#### 4- المعنويات والحالة النفسية

### III- الطرق العلاجية

#### 1- الفصد

#### 2- الترياق

### IV- التطورات في ميدان الطب

#### 1- التغيرات في وسائل العلاج

#### 2- تدابير المدن للحد من الوباء

#### 3- الحجر الصحي

#### 4- انحسار الوباء

#### 5- كشف الوباء من وجهة الطب الحديث

## I-الطب والكتابات الطبية في القرن الرابع عشر

## 1-الطب والأطباء في القرن الرابع عشر

تعود جذور النظريات الطبية التي اتبعتها الأطباء في أوروبا إبان فترة الوباء إلى القرن الحادي عشر ميلادي، حيث أنها استمدت من المدارس الطبية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت في كل من صقلية وجنوب إيطاليا، أين كانت الثقافة العربية الإسلامية والبيزنطية تنشط العقول الأوروبية، فتعليم الطب في أوروبا الغربية انطلق من جامعة سالرنو جنوب إيطاليا حيث التقت الثقافة اللاتينية، البيزنطية والعربية الإسلامية إذ استفاد الطلبة والمعلمون الأوروبيون من تواجد المدارس الطبية الإسلامية وقاموا بترجمة نصوصهم إلى اللاتينية، وكان من بينهم قسطنطين الإفريقي (1020-1087م)، بالإضافة إلى العديد من المترجمين العاملين سواء بصقلية، القسطنطينية، سوريا أو طليطلة بإسبانيا، وبفضلهم أنشأت مكتبة تضم النصوص الطبية التي كانت العمود الفقري لتعليم الطب في أوروبا في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، ثم إن التأسيس المبكر لمدارس الطب في سالرنو ومناطق أخرى من جنوب أوروبا كسر هيمنة رجال الدين في هذا الميدان<sup>1</sup>.

ففي عام 1180م أنشأ الكونت وليم السابع مدرسة الطب بمونبولي وفتحت أبوابها لليهود والمسلمين والمسيحيين على السواء، وفي هذه الفترة المبكرة كان الطب يُدرس كفرع من فروع الفلسفة أو الثيولوجيا في العديد من مدارس الطب التي كانت منتشرة في (Charters)،(Rheims) بفرنسا و (Padua) بإيطاليا وبولونا التي أسست بها كلية الطب في 1260م، وباريس هي الأخرى صار لها كيلة طب سنة 1352م، وبأفنيون في 1303م، لتقام فيما بعد جامعات أخرى ومدارس للطب في شمال أوروبا ك فينا التي أنشأت بها كلية الطب في 1365م وفتحت في 1399م، لتلحق بها جامعة كامبريدج وتفتح كلية للطب في 1423م<sup>2</sup>.

أما بالنسبة لبرنامجها التعليمي فقد ظل يعتمد بالأساس على الموروث القديم والإسلامي لذلك كان على الطالب تعلم اللاتينية، ففي سن الرابعة عشر يلتحق بالجامعة ليدرس الفنون الحرة السبعة في كلية الفنون، وبعد أربع أو خمس سنوات يكتسب درجة البكالوريا أو ربما الماجستير وبكلية الطب يستمر لأربع أو خمس سنوات يدرس خلالها النظام الغذائي عند أبقرات، جالينوس وابن سينا، يتخلله

Byrn (Joseph p.),Daily life during the black death, p.13,18.

Ibid.,p.p.18-19

<sup>1</sup>-أنظر:

<sup>2</sup>- أنظر:

الأعمال الإسلامية المترجمة باللاتينية، ويعمد الطلبة إلى تقييد كما ما يقوله الأستاذ وكل ما يتلقاه الطالب هو آخر ما توصل إليه الطب في تلك الفترة أما ما لم يتلقوه فيعتبر ظاهرة طبية جديدة<sup>1</sup> مثل وباء الطاعون الذي وقفت المصالح الطبية عاجزة أمامه عند قدومه لأوروبا في القرن الرابع عشر، فأغلب الأطباء قالوا بالفكرة الشائعة بين العامة من أن الوباء هو عقاب من الله، كما تبناوا أيضا رأي الأطباء القدماء كأبقراط وجالينوس من أن الوباء راجع إلى عوامل طبيعية<sup>2</sup>.

ووفقا لما جاء به كل من أبقراط وجالينوس، فإن الوباء ناتج عن فساد الهواء أو ما يُعرف بالميازما (Miasmas)<sup>3</sup>، فهذه الأبخرة السامة تنبعث على الأرجح من المستنقعات القذرة ومن الفضلات المتراكمة وكذا من تحلل جثث الحيوانات ومن جثث البشر غير المدفونة<sup>4</sup>، وهذا التفسير نجده أيضا لدى ابن خلدون الذي يذكر أنه من أسباب حدوث الأوبئة هو فساد الهواء<sup>5</sup>، ومن جهة أخرى وإضافة إلى ما أورده كل من أبقراط وجالينوس هناك من أطباء القرن الرابع عشر في أوروبا من أعزى سبب الوباء إلى تغيرات في مواضع الأجرام السماوية أمثال الطبيب الفرنسي جي دو شولياك<sup>6</sup> وهو ما أكدته كلية الطب بجامعة باريس حيث صرحت بأن سبب الوباء متعلق بالظواهر الفلكية، في حين أبدى بعض الأطباء شجبهم لهذه النظرية مؤكدين أن الوباء هو عقاب رباني ولا دخل للظواهر الفلكية والطبيعية<sup>7</sup>.

## 2-المقالات الطبية حول وباء الطاعون في القرن الرابع عشر

ظهرت عدة كتابات طبية سواء لدى المسيحيين أو المسلمين ما بين 1348 - 1350م تناولت هذا الوباء بالدراسة، فكتب الأطباء العديد من المقالات حول الطاعون تطرقوا فيها إلى أسبابه وسبل الوقاية منه وكذا العلاج أو التخفيف من مضاعفاته، ومن أهم هذه المقالات التي تناولت الوباء وكتبت عنه في هذه الفترة نجد :

<sup>1</sup>-أنظر: Byrn (Joseph p.), Daily life during the black death, p.19.

<sup>2</sup>-أنظر: Chipley Slavicker (L.), the Black death the great disaster,p.64.

الميازما هي الأبخرة المتعفنة والهواء الفاسد والقائلون بفساد الهواء هو سبب الطاعون يُقال لهم أصحاب نظرية الميازما

Aberth (J.), the Black Death, ,op.cit.,Not 02,p.42 .

(miasmatic theory) أنظر :

Chipley Slavicker(L.),op.cit.,p.64.

<sup>4</sup>- أنظر:

<sup>5</sup>- ابن خلدون، المصدر السابق،ص.282.

de Chauliac (G.), la Grande Chirurgie, P.170.

<sup>6</sup>-أنظر:

Aberth (J.), op.cit.,p.38.

<sup>7</sup>- أنظر:

أ- المقالات اللاتينية:

- Jacme d'Agramont, Regiment de preservació de pestilencia (Lerida, April 24 1348)
- Gentile da Foligno, Consilium contra pestilentiam (perugia, before 18 June 1348)
- Giovanni della Pelma, Consilium in magna pestilentia (Napies, - 1348)
- Collegium Facultatis Medicorum Parisius, Compendium de epidimia paris, October 1348
- Alfonso de Córdoba, Epistola et regimen de pestilentia (Montpellier, c 1348-1349).
- Quidam practicus de Montepessulano, Tractatus de epidemia '  
(Montpell ier, 19 May 1349)

تعتبر مقالة الطبيب الكتالوني داجرامونت (Jacme D'Agramont) المعنونة ب: حماية وقائية ضد الوباء (Regiment de preservació de pestilencia) أولى الأعمال الطبية التي جاءت كرد على وباء 1348، وفي الوقت الذي فرغ من كتابتها في 24 من شهر أبريل تولى منصب محاضر بالمعهد الطبي لمدينة لاردة (Lerida) بمملكة أراغون (Aragon) وبعد فترة وجيزة وقع ضحية الوباء الذي كتب عنه.<sup>1</sup>

قدم داجرامونت من خلال مقالته نصائح وقائية لاغير، وقال بوجوب الانابة إلى الله إن لم تنفع هذه التدابير لأن فساد الهواء حسب رأيه جاء نتيجة للخطايا،<sup>2</sup> ثم إنها جاءت على شكل رسالة مكتوية بالكتالانية وموجهة إلى أعضاء مجالس مدينة لاردة اثر تصاعد الأخبار التي تُحذر من وصول الوباء القاتل إلى مناطق قريبة من المدينة وقد ذكر داجرمونت أن رسالته جاءت لمساعدة عامة مدينة لاردة وليس لتثقيف الأطباء، ولعل هذا ما يُفسر كتابته لها بالكتالانية وليس باللاتينية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - أنظر: Luis Garcia-ballester, Roger French, Jon Arrizabalaga and other, Practical medicine from Salirno to the Black death, , Cambridge University Press, Cambridge, 1994, p.p.239-240.

<sup>2</sup> - أنظر: DesOrmeaux (Anna L.), A Thesis the Black Death and its effect on Fourteenth and Fifteenth century Art, p.15.

<sup>3</sup> - أنظر: Luis Garcia-ballester and others, op.cit., p.240.

اشتملت رسالته على مقدمة وقسمين رئيسيين، القسم الأول يحتوي على فصلين، حاول من خلال الفصل الأول تزويد قرائه بمفاهيم أولية عن الفلسفة الطبيعية حتى يتمكنوا من فهم باقي المقالة، لأن الوباء كان في الجو توجب على العامة التعرف على خصائص الهواء، في حين تطرق في الفصل الثاني إلى أشكال تغير الهواء أما في القسم الثاني فقد تعامل مع الوباء وتضمن ستة محاور هامة :

1- طبيعة وتسمية الوباء، 2- أسباب الوباء، 3- أعراض الوباء، 4- تأثير فساد الهواء على الكائنات الحية والأشخاص، 5- النظام الوقائي ضد وباء الطاعون، 6- طبيعة الوباء: دراسة معنوية<sup>1</sup>.  
ثم هناك مقالة جانتل دا فوليجانو (Gentil Da Foligano) من أشهر الأطباء في هذه الفترة، إذ تطرق في مقالته المسماة : إرشادات ضد الوباء (Consilia Contra Pestilentiam) إلى أصول الوباء، وقدم نصائح استمدتها من خبرته في التعامل مع ضحايا الطاعون، أما تعليقاته حول الأسباب الفلكية لحدوث الوباء فقد كانت محدودة ناقلا عن ابن سينا تأثير الأجرام السماوية على الحياة فوق الأرض، كما أدرج فساد الهواء كأبرز عامل لحدوث الوباء<sup>2</sup>.

كان جانتل دافوليجانو محاضرا بكلية الطب ب:بيروجيا (Perugia) عندما ضرب الوباء هذه المدينة الإيطالية وقد كتب مقالته استجابة لطلب من جامعة ومدينة بيروجيا مع بداية اجتياح الوباء للمدينة، وقد قسم مقالته إلى أربع أجزاء، تطرق في الجزء الأول إلى الأسباب المؤدية إلى الوباء، وفي الجزء الثاني النظام الوقائي أما الثالث فتناول النظام العلاجي، وفي الجزء الرابع والأخير من المقالة ذكر سبعة عشر ارتيابا حول الوباء والتي كُتبت حسب رأيه لاثارة وتحفيز عقول، طلبة كلية الطب وهو الأمر الذي يبقّي مقالته محررة من المجادلات النظرية، أما عن المقالات الثلاث القصيرة فقد كتبها بعد المقالة الكبرى وحينها كان الوباء قد اشتد، وهو ما جعل جانتل يكتب معارف أكثر حول هذه النكبة، وقد قام بإرسال المقالة الأولى وهي أقصرهم إلى معهد الأطباء بحنوة، أما الثانية فلم يذكر إلى أين أرسلت وإنما أشار فيها إلى مدينة نابولي التي كانت تعاني من ويلات الوباء في ذلك الحين، أما بخصوص المقالة الثالثة وهي أطولهم فقد بعث بها إلى معهد الأطباء ببيروجيا وقد حررها ابنه

Luis Garcia-ballester and others,op.cit.,p.240.

<sup>1</sup> - أنظر:

Frances Vanneste Sarah, The Black Death and the Future of Medicine,  
WayneState University Theses,paper29,2010,p.43.

<sup>2</sup> - أنظر:

فرانسيسكو دافوليغانو (Francesco da Foligno) ويبدو أنها كُتبت قبل وفاة جانتل، و ضمت هذه المقالة نظاما وقائيا مقتضبا واختتمت بثلاثة تساؤلات مختصرة من طرف عامة الناس<sup>1</sup>.

ومن الأطباء أيضا الطبيب جيوفاني ديلا بينا (Giovanni della Penna)، كان محاضرا بكلية الطب بنابولي وقد كتب مقالته المسماة: ارشادات حول الوباء الأعظم أو الوباء الكبير (Consilium in magna pestilentia) سنة 1348 م كرد على مقالة جانتل دافوليغانو، وقد أشار هو الآخر في مقالته هذه إلى تواجد الوباء بمدينة نابولي، ورغم اختلاف البناء والتركيب لكلتا المقالتين إلا أنهما تتشابهان في المحتوى، فجيوفاني ديلا بينا أعاد تأكيد فكرة جانتل القائلة بأن سبب الوباء راجع إلى التعفن والتسمم الذي يحدث قرب القلب والرئة كما أنه وسع انتقاداته خطوة بخطوة فتناول أسباب الوباء، الاحتياطات والعلاج<sup>2</sup>.

ثم إن من أهم المقالات حول الطاعون هي التي أصدرتها كلية الطب بجامعة باريس في السادس من أكتوبر عام 1348م وذلك بطلب من الملك الفرنسي فيليب السادس، تضمنت قسما رئيسيا يتحدث عن أسباب الوباء وقُسم إلى ثلاثة فصول، الأول حول الأسباب البعيدة، الثاني حول الأسباب القريبة والثالث فهو تشخيصي يتحدث عن أعراض الوباء، أما القسم الثاني من المقالة فقد تضمن الوقاية والعلاج<sup>3</sup>.

وقد كُتب هذا العمل من وجهة نظر فلسفية حيث تم فيها شرح مسببات الطاعون وكذا طرق تفادي هذا المرض، فبالنسبة للأسباب فإنهم أدرجوا اثنين، الأول سماوي وهو يتعلق باقتران الكواكب الثلاثة: المشتري، زحل والمريخ، أما ثاني الأسباب فهو متعلق بالأرض وفساد الهواء، فاقتران الكواكب الثلاثة ضغط على كوكب الأرض فنتج عنها تلك الأبخرة السامة التي تسببت في تلويث الجو<sup>4</sup>، وقد ذكر الطبيب شولياك أن هذا الالتصاق حدث في 20 مارس من سنة 1345 م على الساعة الواحدة

Garcia-ballester( L.) and others,op.cit.,p. 241.

Idem.

Aberth (J.), ,op.cit.,p.41.

Frances Vanneste (S.),op.cit.p.41.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> -أنظر:

<sup>4</sup> -أنظر:

زوالاً<sup>1</sup>، وقد حدث ذلك جنبا إلى جنب مع اقترانات وكسوفات أخرى وبالتالي خرجت كلية الطب بباريس بخلاصة وهي أن الوباء ليس بفعل بني البشر وإنما يرجع إلى قوى الطبيعة<sup>2</sup>. ومن قرطبة كتب ألفونسو القرطبي (Alfonso of Cordoba) رسالة عن الوباء (Epistola et Regimen de Pestilentia)، ويبدو أنها حُررت في مونبولي بفرنسا لكن دون تحديد تاريخها ويُعتقد أن تاريخ كتابتها إما في 1348 أو 1349م، وقد كانت جامعة مونبولي في هذه الفترة تتزعم المدارس الطبية في أوروبا وكانت قرطبة متصلة بها، وقد تفحص ألفونسو القرطبي كأستاذ متخصص في الفنون الحرة والطب، من خلال دراسته المكثفة لطبيعة وأسباب الوباء<sup>3</sup>، وقد ميز بين ثلاثة أوبئة حدثت عام 1348م، تختلف في مسبباتها، وقد خص رسالته بالحديث عن الوباء الثالث وذكر أن سببه هو مكر الإنسان وليس الطبيعة<sup>4</sup>، أما الوباء الأول فقد جاء بفعل الطبيعة وسببه هو خسوف القمر الذي وقع سالفا في 23 جويلية و 22 أوت بالتزامن مع اقتران قوي للكواكب المشؤومة. أما الوباء الثاني حسب رأي ألفونسو فإنه حدث بسبب زلزال عنيف، وهذا الوباء حدث بمناطق من إيطاليا<sup>5</sup>.

أما بخصوص الوباء الذي نحن بصدد دراسته فقد ذكر ألفونسو أن أسبابه غير طبيعية وإنما هو مكر الإنسان وأن إشفاقه على العالم المسيحي الذي كان يعاني من ويلات هذا الوباء دفعته لكتابة رسالته، فذكر أن الأشخاص الأتقياء والصالحين يمكن أن لا يتعرضوا للعديد من الأخطار كما يمكن أن يُدركوا كيف يتجنبون الشرور التي تواجه العالم المسيحي خاصة في ظل هذا البلاء<sup>6</sup>.

## ب-المقالات العربية

أما من أهم المقالات التي كتبت باللغة العربية في هذه الفترة فهي مقالة ابن خاتمة الأنصاري المعنونة بتحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، وهي مقسمة إلى عشرة فصول أو مسائل كما سماها:

de Chauliac( G.), op.cit.,p.170.

Frances Vanneste ( S.),op.cit.p. 41.

Aberth( J.),op.cit.,p.45.

Garcia-ballester (L.) and others,op.cit.,p. 242.

Aberth( J.),op.cit.,p.p.45-46.

Ibid.,p.46.

<sup>1</sup> -أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

**المسألة الأولى:** في حقيقة الطاعون والكلام فيها، وهي في فصلين، الفصل الأول هو "في التعريف به على العموم" وهو في قسمين، "القسم الأول في معناه لغة" و"القسم الثاني في معناه بحسب القول الطبي"، أما الفصل الثاني فهو "في التعريف به على الخصوص"، اعتماداً على التجربة، وتحديدًا على "المرض الحادث ببلدنا".

**المسألة الثانية:** في "أسباب الوباء العامة والخاصة"، وتتمحور حول فصلين، الأول في الأسباب العامة (أسباب عامة قريبة وبعيدة)، والثاني "في سببه الخاص بهذا الطاعون الحادث بهذا التاريخ الذي وقع السؤال عنه".

**المسألة الثالثة:** "ما باله خص قوما دون آخرين على قرب الجوار".

**المسألة الرابعة:** في "ما ظهر من عدواه"

**المسألة الخامسة:** "كيف التحفظ والإحتراز منه"

**المسألة السادسة:** "ما علاجه إذا نزل".

**المسألة السابعة:** "ما جاء عن الشارع فيه". وقد أنهاها بمجموعة حكايات متعلقة بالطاعون وأهواله.

**المسألة الثامنة:** مخصصة لحديث النهي المضاعف "ما معنى حديث النهي عن القدوم على أرضه أو الخروج عنها فرارا منه".

**المسألة التاسعة:** في "ما معنى قوله عليه السلام لا عدوى ولا طيرة".

**المسألة العاشرة:** "كيف الجمع بين الحديثين" أي بين حديث "لا عدوى" وحديث "النهي عن القدوم على أرض الطاعون أو الخروج عنها فرارا".<sup>1</sup>

ولدينا أيضا مقالة ابن الخطيب، مقنعة السائل في تفصيل المرض الهائل.

## II-التدابير الوقائية

آمن عامة الناس في القرن الرابع عشر بنجاعة بعض التدابير وحمائتهم من المرض مثلا الاستحمام ببول الانسان، والإبقاء على الحيوانات النافقة بالمنزل وشرب الذهب المنصهر والزمرد المسحوق، كما قاموا بقتل الكلاب والقطط المحلية معتقدين أنها تساعد بطريقة أو بأخرى على

<sup>1</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (مخطوط)، ورقة 48 وجه، نقلا عن بوجرة حسين، الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب، ص.ص. 337-338.

استشرء الوباء كما أدركوا أن عدم الاحتكاك بالمصابين سيققل من احتمالية اصابتهم بالعدوى لذلك كانوا يتجنبون الجلوس قرب المرضى قدر الإمكان وقاموا بعزل الموبوءين في منازل خاصة بعيدا عنهم، في حين لاذ البعض بالفرار من المناطق الموبوءة<sup>1</sup>، فالناس كانوا يأخذون بالأسباب المتاحة وتفكيرهم كان رهنا للتقاليد والعادات المتداولة حتى وإن كانت في الأصل خاطئة، أما بالنسبة للأطباء فإن التدابير الوقائية التي أوصوا بها كانت نتاجا للموروث الطبي القديم في أغلبها مع بعض الاجتهاد والاضافات من طرفهم بحكم التجربة .

وبما أن السبب الأرجح والغالب لحدوث الوباء لدى الأطباء هو فساد الهواء، فإنهم أوصوا بتفادي استنشاقه قدر الإمكان، وقد قدمت كلية الطب بباريس في هذا الشأن مجموعة من الاقتراحات والتدابير الوقائية التي من شأنها تنقية الهواء<sup>2</sup> فأوصت بضرورة البقاء في مكان يكون فيه الهواء نظيفا وأن لا يكون رطبا، وهجر الأماكن التي يكون فيها الهواء ملوثا، وإن تعذر ذلك فعليهم اختيار مسكن يكون بعيدا عن قنوات الرياح المحملة بالأبخرة الفاسدة، وقد أشارت بأفضلية البيوت المنخفضة، كما اقترحت بأن تكون المساكن بعيدة عن المستنقعات والمناطق الموحلة وكذا التي بها رائحة نتنة أو مياه راكدة، أما بالنسبة للنوافذ فقد أوصت بأن تكون بجهة الرياح الشمالية مع الحرص دائما بأن لا تكون هذه الرياح تهب من المناطق الموبوءة والتأكد من إغلاق النوافذ المقابلة للجهة الجنوبية. أما إن تحتم فتحها فلا بد أن يكون ذلك قبل شروق الشمس<sup>3</sup>.

وحسب الكلية المنافسة مونبولي فإن الأبخرة الفاسدة والمسببة للمرض تهب من جهة الجنوب لذلك نصحت بفتح النوافذ والأبواب المقابلة للجهة الشمالية، فالاعتقاد الشائع في هذه الفترة هو تسبب هواء الصيف الدافئ في فتح مسام الجلد مما يزيد في فرص دخول الهواء الفاسد وتسربه إلى الأعضاء الداخلية، لذلك توجب تجنب هذا الهواء، ونفس الشيء بالنسبة للاستحمام فهو الآخر يفتح المسام ولا بد من تفاديه<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: Kelly( K.),The history of the Medicine The Middle Ages,p.p.108-109.

<sup>2</sup> - أنظر: Chipley Slavicker (L.), the Black death the great disaster,p.67.

<sup>3</sup> - أنظر: Frances Vanneste ( S.),op.cit.p.p. 41-42.

<sup>4</sup> - أنظر: Milli Gupta,the bLack death: catastrophe or new start?, in the procceedings

Of the 13th Annual history of medicine days,edited by Whitelaw (William A.) , University of Calgary , March 2004,p.104.

علاوة على هذا يُعد تعطير الهواء كواحدة من أنجع الطرق التي تدفع الوباء فالطبيب شولياك أوصى بتلطيف الهواء بالنار وتقوية القلب بالترياق (therique) والتفاح وأي شيء ذو رائحة طيبة زكية<sup>1</sup>، وقد ذكر بوكاتشيو أن سكان فلورنسا كانوا يخرجون للمشبي وهم يحملون في أيديهم أزهارا أو أعشابا عطرة أو أنواعا من التوابل، اعتقادا منهم أنه من المفيد إنعاش الدماغ بهذه الروائح العطرة لمكافحة الهواء العابق ببتانة الجثث والمرض<sup>2</sup>، وهذا ينطبق تماما مع ما أورده ابن سينا في كتابه في باب علاج الطاعون، حيث أوصى بالإقبال على القلب بالحفظ والتقوية بما فيه تبريد وعطرية مثل حماض الأترج والليمون وربوب التفاح والسفرجل ومثل الرمان الحامض وثم مثل الورد والكافور والصندل<sup>3</sup>.

فالروائح الملطفة اعتبرت أمرا هاما لإبعاد أبخرة الوباء الضارة أو ما يعرف بالميازما (miasma) لذلك قام الناس بحرق الأخشاب اللينة العطرية مثل العرعار (juniper)، البلوط (oak)، الصنوبر (pine)، الروزميري (rosemary)، الألوة (aloe)، العنبر والمسك، كما نُصح بغسل اليدين والرجلين بماء الرزوي ميري والخل أيضا وأن يكون ذلك بشكل منتظم<sup>4</sup>، وتبعاً لهذا قاموا بحرق كل ما يمكنه تعطير الهواء، وكذا اتخذ بعض الاحتياطات كتنظيف المدينة على يد عاملين مكلفين لهذا العمل أو منع دخول أي مريض إلى المدينة<sup>5</sup>.

كما أوصت كلية الطب بباريس أيضا بالتقليل من الحركة والاستحمام، فبالنسبة لغير المعتادين على ممارسة الرياضة فالأحسن ألا يباشروا بها في فترات الوباء، أما المعتادون عليها فعليهم التقليل منها ، وبهذا لن يزدوا من حاجتهم إلى التنفس، أما إذا كان الهواء ملوثا فيُنصح بعدم الخروج من السكن بل ممارسة التمارين داخل الغرفة ،و بالنسبة للاستحمام فإنه من الأفضل تفادي الحمام الساخن لأنه يرخي الجسم ويرطبه<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - أنظر: de Chauliac (G.), la Grande Chirurgie, op.cit., p.17.

<sup>2</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص.42.

<sup>3</sup> - ابن سينا، القانون في الطب، ج3، المقالة الأولى، ص.122.

<sup>4</sup> - أنظر: Milli Gupta, op.cit., p.p.105-106.

<sup>5</sup> - بوكاتشو، المصدر السابق، ص.40.

<sup>6</sup> - أنظر: Frances Vanneste (S.), op.cit. p. 42.

كما أكدت كلية الطب بباريس على ضرورة الحفاظ على النظافة الشخصية، التي تقتضي الاستعمال الخاص للحمامات وكذا اتباع نظام غذائي معين<sup>1</sup>.

وإذا كان بعض الأطباء قد اقترحوا حرق بعض الأعشاب العطرية لتزكية الهواء فإن البعض الآخر أوصى باتباع التدابير الوقائية المرتبطة بتغيرات في الأطعمة والمشروبات، الأكل والصوم، الاستحمام، النوم والاستيقاظ، نوعية الهواء وكذا الاهتمام بالحالة النفسية العاطفية، وتغيرات في مقر الإقامة والأدوية الوقائية.

### 1-الحمية الغذائية

أوصت كلية الطب بباريس بعدم الإكثار من الأكل والشرب لأن الأشياء الرطبة تكون معرضة للإصابة بمرض الطاعون، فعلى الشخص أن يأكل الشيء الخفيف مع اختيار أطعمة سهلة الهضم وقادرة على إثراء الدم، مثل الخبز المصنوع من دقيق القمح الرفيع وأن يكون مطهوا بطريقة جيدة، مخمرا بما فيه الكفاية لمدة يوم أو يومين على الأكثر وتُمزج معه القليل من الشعير والنخالة. وبالنسبة للحوم فيتعين اختيار الخرفان الصغيرة التي عمرها حول وكذا قطع من لحم العجل، لحم الجدي، الأرانب، فراخ الدجاج، الحجل (partridges)، الدراج أو التدرج (pheasant)، الزرزور (starlings)، الديكة (Capons) وكذا الطيور الصغيرة مثل القُبْرَة أو قُبْرَة (طير الحقول المغرد) (Lark) وغيرها. وبخصوص لحم الضأن إذا تم سلقه فلا بد أن يكون مملحا بيوم قبل سلقه، ثم إن اللحوم المسلوقة لا بد أن تُتبّل بتوابل عطرية مثل القرنفل والفلفل، الهيل، جوزة الطيب والصوبجان وبالأخص الزعفران والقرفة وقليل من الخل أو عُصارة الحِصْرَم (Verjuice)<sup>2</sup>.

ولابد للوجبات أن تكون خفيفة وأن تُأكل ببطء حتى يتسنى هضم الطعام جيدا، كما يجب تجنب اللحوم ومشتقات الألبان وكذا الأسماك، وأيضاً تجنب التحلية لأنها تُؤخر من عملية الهضم وتعويضها بالجوز. كما أن ممارسة الجنس والاستحمام تضر بالجسم لأنها تفرط في مزاجات الأورام مما يتسبب في زيادة انفتاح المسامات<sup>3</sup>.

Chipley Slavicker (L.),op.cit.,p.67.

Frances Vanneste (S.),op.cit.p.p. 42-43.

Milli Gupta,op.cit.,p.p.105.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

ومما جاء في رسالة ألفونسو القرطبي "يجب على المرء الحرص على أن لا تكون الأطعمة والمشروبات موبوءة وسامة خاصة المياه الراكدة التي تنتقل إليها العدوى بسهولة"، في حين أوصى جانتل دافوليجانو أول الأمر باستهلاك أطيب وأجود الأطعمة والأشربة وذلك بقدر وتجنب تناول السمك ويُنصح بتناول الخس، ومن بين مختلف الأطعمة أوصى بتناول اللحوم المفيدة بما فيها الدجاج، الزرزور، الماعز المرضعة، لكن بخصوص اللحم البقر فإنه نصح بالأبقار الخصية، العجول كما أوصى بتحضير الخبز بعناية وكذا انتقاء النبيذ، وبهذا يمكن للناس أن يعيشوا في مزاج جيد ويُنفسوا عن خوفهم<sup>1</sup>.

وقد تحدث بدوره الطبيب داجرامونت حول الأطعمة والأدوية التي تحفظ الجسم ضد الوباء : "إن حمية الأغذية والأدوية التي تقي الجسم من الأمراض الوبائية يجب أن تكون كالتالي: يتعين على الشخص تناول أقل قدر ممكن من الأطعمة والأشربة، خاصة بالنسبة للشراب لا بد أن يكون معتدل الحرارة كما يُنصح بالتحكم في عطشه، ويتوجب على الواحد أيضا أن يستعمل في كل الأطعمة الكثير من الخل، الحُميض (sorrel)، عصير البرتقال والليمون وأشياء حامضة أخرى لأنها نافعة كثيرا، ومن الواضح أن النبيذ الطازج أفضل من النبيذ الحلو، لأن الخمر الذي يحتوي على الحلاوة يفسد ويتعفن بسهولة، ثم يتعين على الواحد تجنب الطيور التي تتغذى بالقرب من المياه الراكدة مثل الإوز والبط وباقي الحيوانات التي لها لحوم رطبة طبيعيا مثل الحملان والخنازير الرضيعة، كذلك في مثل هذه الأوقات يجدر الإمتناع عن الأسماك الرقيقة مثل الأنقليس ( lampreys )، الثعابين وكذا الأسماك الكبيرة مثل الدلفين، القرش، سمك التونة. أما الأسماك الأخرى فمن الواجب تفادي تناولها اذا كانت فاسدة أو رائحتها نتنة ، وإن اضطر أحدهم إلى تناولها فعليه أن ينتقي أفضل ما يُوجد في المنطقة كالسلمون، سمك الحفش (sturgeon)، البوري (mulletts)، السمك المفلطح (flounder)، الحدوق (haddock) وما شابهها من أسماك، كما يجب أن تُحفظ بالخل أو الملح. ويُفضل في مثل هذه الفترات السمك المقلي أو المشوي على الفحم. أما الفواكه خلال هذه الفترات فأفضلها هي التوت الأحمر، الرمان الحامض و نبات الكبر (capers)<sup>2</sup>.

Aberth( J.),op.cit.,p. 46,48.

Ibid.,p.p.52-53.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

وبخصوص حمية ابن خاتمة الأنصاري التي تخص الأطعمة والأشربة، فالمطروح عموماً اجتناب الأطعمة الثقيلة والغنية مثل "العصايد والثرايد والإسفنح والكعك والمجبتات"، وتعويض خبز الذرة بخبز الشعير، والإقلاع تماماً عن اللحوم، أو على الأقل الاقتصار على لحوم الحيوانات صغيرة العمر، مع طبخها بخل اللّيم، وفي الأخير يوصي بعدم الشبع وبعدم النوم مباشرة بعد الأكل.<sup>1</sup>

أما من حيث الأطعمة الوقائية فإنه يُنصح بتناول التين و البندق قبل فطور الصباح أي على الريق ، وفي النهار لا بد من أخذ بعض التوابل كالمريمية (myrrh) والزعفران والفلفل مع البصل والكراث والثوم ، فكل هذه العلاجات تؤثر على الأورام ولكن إن تم أخذها بإفراط يمكن أن تزيد من حرارة الأورام، كما كان يُعتقد أيضاً أن الجسم يمكنه مقاومة الطاعون عن طريق تطهيره بمدرات البول والتي تساهم في الاسهال.<sup>2</sup>

## 2- النوم

إن كثرة النوم بعد الأكل وكذا في منتصف النهار غير صحي كما أن النوم على الظهر هو الآخر غير مفيد لأن تلك الوضعية تسهل من وصول ودخول الهواء الموبوء إلى الخياشم والرئتين، في حين نُصح بالنوم على الجنب،<sup>3</sup> وهو ما ذهب إليه ابن خاتمة وأوصى بالاعتصار على النوم ليلاً لأنه "أصلح النوم" وأن يكون في المناطق الشمالية التي تخترقها الرياح<sup>4</sup> وهو ما أوصى به أيضاً داجرامونت من لزوم اختيار غرفة توافق ما أوصى به سابقاً عندما تحدث عن الهواء.<sup>5</sup>

## 3- مقر الإقامة

إن المدن المحاطة بالمياه الراكدة أو الأشجار العالية أو التي تقع في المناطق المنخفضة بين الجبال تكون عرضة للوباء بسبب قلة التهوية في هذه المناطق. والرطوبة لا بد من تفاديها (لأنها الجو المفضل لنمو البراغيث). اشعال النار (فهو تجفف الهواء) يلجأ إليه عادة للتقليل من فرص انتقال العدوى. كما كان يُعتقد أيضاً بأن المناطق القذرة تصعد من تعرضها للوباء ويرجع ذلك إلى الميازما<sup>6</sup>، ونصح

<sup>1</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (مخطوط)، الورقات 19-23، نقلاً عن بوجرة حسين، المرجع السابق، ص. 454.

<sup>2</sup> - أنظر:

Milli Gupta, op.cit., p.106.

<sup>3</sup> - أنظر:

Ibid., p.105.

<sup>4</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، الورقات 19-23، نقلاً عن بوجرة، المرجع السابق، ص. 454.

Aberth (J.), op.cit., p.53.

<sup>5</sup> - أنظر:

Milli Gupta, op.cit., p.106.

<sup>6</sup> - أنظر:

جانتل بإيقاد النار في المنازل والأماكن التي يعيش فيها الناس وأن يرتاحوا بهدوء، وعليهم حرق أي نوع من النباتات العطرية في البيوت كما يجب تطهير المنازل والمدن من الأغراض التينة<sup>1</sup>.

و يقول داجرامونت بخصوص نصائحه لتطهير الهواء: "إذا كان تلوث الهواء يأتي من الأرض أو الماء في هذه الحالة على المرء أن يختار العيش في الأماكن العالية والجبال، أما إن كان التعفن بتأثير من اقتران بعض الكواكب فإنه هي هذه الحالة يتعين على المرء اختيار المناطق المنخفضة وغرفا تحت الأرض للعيش فيها، وكذا يجب ابقاء النوافذ مغلقة بإحكام. كما يجب على المرء إيقاد النار بالغرفة بالحطب مثل الروزميري (إكليل الجبل)، الآس (myrtle) و السرو (cypress) وكل منها موجود بوفرة، أو من العرعر (juniper) أو من الخزامى (lavender) "ثم قدم داجرامونت خلطة للتبخير خاصة بالأسياذ والتي يُطلق عليها (Gallia muscata). أما بالنسبة للعامة فيمكنهم استعمال النظام الآتي: " يستطيعون إيقاد النار في أكواخهم وغرفهم من الروزميري والعرعر، وتحضير البخور من اللبان والمر (myrrh)، أو من أشياء أخرى يمكن الحصول عليها بثمن بخس، كما يجب أن أقول بأنه من المفيد جيدا رش أرضية الغرفة بماء الورد أو الخل<sup>2</sup>. في حين أوصى ابن خاتمة ب"فراش البيوت بالرياحيين... والمواظبة على شتمها وشم الأرج واللّيم وأزهار الورد والبنفسج ".<sup>3</sup>

#### 4- المعنويات والحالة النفسية:

من التأثيرات الواجب تجنبها بصفة خاصة الخوف والتوهم، لأن هذه الأخيرة هي مصدر أي مرض فالكثير من الناس ينهارون فقط من جراء الوسواس، ومن الواضح أنه من الخطير التفكير في الموت في الفترات الوبيئة فذلك يحدث الرعب واليأس، فالخوف يسبب ضررا كبيرا ولا خير فيه على الإطلاق، ولهذا الأسباب نُصح في مثل هذه الأوقات بعدم قرع الأجراس في حالة الوفيات لأن المرضى معرضون إلى أسوء التخيلات عندما يسمعون ناقوس الموت،<sup>4</sup> وقد أكد ابن خاتمة على بسط النفس

Aberth (J.), op.cit.,p.49.

<sup>1</sup> - أنظر:

Ibid.,p.52.

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (مخطوط)، الورقات 19-23، نقلا عن بوجرة حسين،

المرجع السابق، ص.454.

Aberth (J.), op.cit.,p.p.54-55.

<sup>4</sup> - أنظر:

وإدخال المسرات عليها، بالإقبال مثلاً على "كتب التاريخ وخصوصاً أخبار الفكاهات ومناشدة الأشعار الغزلية"<sup>1</sup>

وأيضاً لابد من ممارسة النشاطات التي تبعث على الانبساط والسرور ولا بد من الابتعاد عن الغضب والقلق والحزن<sup>2</sup> أما الطبيب جانتل دافوليجانو-الذي توفي متأثراً بالطاعون في 1348م-، فإنه أدرك مدى تأثير الحالة النفسية على المريض فأوصى بتناول الخمر حتى يبقى الإنسان مبتهجا وينسى الخوف والرعب الذي يحدثه الوباء<sup>3</sup> في حين أوصى الطبيب شولياك بالطين الأرميني لتهدئة الأمزجة، كما أوصى بالحوامض لمقاومة التعفّنات<sup>4</sup>.

### III-الطرق العلاجية

#### 1-الفصد

اعتمد الأطباء بالأساس على عملية الإستفراغ والفصد لعلاج الأورام الطاعونية، وقد أشار ابن خاتمة فيما يخص بالاستفراغ والاحتقان أنه من الضروري أولاً العمل على إخراج أقصى ما يمكن من الفضلات وبأسرع ما يمكن، وهو ما سماه "تسهيل الطّبع"، ولا يكون ذلك إلا بالافراط في تناول العصير والأشربة، ولا بد ثانياً من التخلص من الاحتقان بالاعتماد على "تخفيف الدم بشق العروق والحجامة"<sup>5</sup>.

تُقام عملية الفصد (bloodletting) من أجل الحفاظ على توازن الورم وهذا مهم جداً للقضاء على مرض الطاعون<sup>6</sup>، وقد ذكر بن خاتمة الأنصاري في هذا الشأن أن رجلاً قدم إليه من إحدى قرى ألميرية فراراً من هذا المرض لما نزل بهم وشكالي ما يجد من الشدة وثقل الصدر وانقباض العروق، وذلك لأول استشعاره المرض فأشرت بفصده في الحين، فأقلع عنه ما كان يجده

<sup>1</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد عن المرض الوافد (مخطوط)، الورقات 19-23، نقلاً عن بوجرة، المرجع السابق، ص.454.

<sup>2</sup> - أنظر: Milli Gupta, op.cit., p.106.

<sup>3</sup> - أنظر: DesOrmeaux Anna L., op.cit. p.16.

<sup>4</sup> - أنظر: de Chauliac (Guy), op.cit., p.172.

<sup>5</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (مخطوط)، الورقات 19-23، نقلاً عن بوجرة حسين،

المرجع السابق، ص.454.

<sup>6</sup> - أنظر: Milli Gupta, op.cit., p.106.

بالجملة كأن لم يكن به بأس<sup>1</sup>، فعملية الفصد تُظهر الجسم من السموم المسببة للوباء، حيث يتم شق الأوردة بسكين حاد لإخراج الدم الفاسد<sup>2</sup> وجانتل هو الآخر مثل بن خاتمة أوصى بأن تُوضع الكأس المستعملة في ذلك فوق التورمات وتُفتح بسكين في اليوم الموالي، وبعدها أوصى بكيّها ولفها بالجبس لاستخلاص ومص السم، كما أنه أوصى بأدوية معينة (البعض منها صُنع من معادن الأرض) تُعطى للمريض لتقوية جسمه والتعجيل في تعافيه<sup>3</sup>.

وبالنسبة للدمامل الخارجات (les apostemes) الخارجية المتقيحة فكانت تُنضج بالتين والبصل المطبوخ، تُسحق وتخلط مع العجين المخمر والزبدة ثم تُفتح الدمامل وتُعالج بدواء التقرح، تُحجم الدمامل، تُشرط وتُكوّى<sup>4</sup> وفيما يتعلق بالتطهير والفصد فإن داجرمونت نصح الذين يأكلون ولا يقومون بأي تمرين أن يطهروا أبدانهم برفق وليس بقوة لأن في ذلك خطراً عليهم، ولأن الكثير من العوامل تؤثر على عمل الطبيب فإنه نصح أن يُستشار طبيب ماهر، لأن التطهير قد لا يكون مناسباً لكل الأجسام، ومن المهم ألا يجامع الرجل المرأة لأن الغلو في هذه المسائل يشكل خطراً عظيماً... كما نُهى عن الاستحمام في هذه الفترات، لأن الاستحمام يفتح مسام الجسم ومن خلال هذه المسامات يدخل الهواء الفاسد الذي له تأثير قوي على الأبدان والأمزجة<sup>5</sup>.

ويتبين أن هذه الطرق العلاجية متوارثة عن الأطباء الأوائل مثل ابن سينا الذي قال بضرورة الاستفراغ بالفصد مما يُخرج الخلط العفن فهو واجب ثم يجب أن يقبل على القلب بالحفظ والتقوية بما فيه تبريد وعطرية مثل حمض الأترج والليمون وربوب التفاح والسفرجل ومثل الرمان الحامض وثمر مثل الورد والكافور والصندل، والغذاء مثل العدس بالخل ومثل المصوص الحامض جداً المتخذ من لحوم الطياهيح والجداء ويجب أن يكلل مأوى العليل بالجمد الكثير وورق الخلاف والبنفسج والورا والنيلوفر ونحوه وتجعل على القلب أطلية مبردة مقوية مما تعرف من أدوية أصحاب الخفقان الحار وأصحاب الوباء وبالجملة يدبر تدبير أصحاب الهواء الوبائي وما الطاعون نفسه وما يجري مجراه مما يسمى فيعالج في البدء بما يقبض ويبرد وباسفنجة مغموسة في ماء وخل أو في دهن الورد أو دهن التفاح أو شجرة

<sup>1</sup> - ابن خاتمة الأنصاري، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، نقلاً عن محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص. 158.

<sup>2</sup> - أنظر: Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.p. 71-72.

<sup>3</sup> - أنظر: Frances Vanneste (S.), op.cit., p.p. 45-46.

<sup>4</sup> - أنظر: de Chauliac (G.), op.cit., p. 172.

<sup>5</sup> - أنظر: Aberth (J.), op.cit., p.p. 53-54.

المصطكي أو دهن الآس، هذا في الابتداء ويعالج بالشرط إن أمكن ويسيل ما فيه ولا يترك أن يجمد فيزداد سمية وإن احتيج إلى محجمة تمص باللفظ فعل، وما كان خراجي الجوهر فيجب أن تشتغل عند انتهائه أو مقارنة الانتهاء بالتقييح وإن كان هناك حمى فتأت في التبريد لئلا ترد المادة إلى خلف والتقييح يكون بمثل الطل(المطل) بماء البابونج والشبث وسائر المقيحات اللطيفة.<sup>1</sup>

## 2-الترياق

وفي سبيل إيجاد مستحضر علاجي لوباء الطاعون أوصى الطبيب جانتل بفاعلية استعمال مسحوق الزمرد ( طحن حجر الزمرد)، في حين اقترح بعض الأطباء استعمال الترياق الذي تختلف وصفاته فهناك المستخلص من لحوم الثعابين التي تكون عادة مشوية ومفرومة فرما ناعما، وهناك ترياق آخر يحضر من قلب الأيول(الظبي) والفضة والمرجان وكذا الطين الأرمني.<sup>2</sup>

أما الطبيب شولياك الذي قال بأن الترياق يُقوي القلب وأنه حضره كدواء من ماء زهر الأريغارون شيخ الربيع (scabieuse) وماء الورد مع قليل من الكافور<sup>3</sup>، كما باشر ألفونسو القرطبي بتقديم بعض الوصفات لتحضير الترياق وقال بأن استعمالها يمكن أن يقي الشخص من السم، أما الطبيب جانتل دافوليجانو أوصى بأن يُأخذ الترياق على الأقل مرة أو مرتين في الأسبوع حتى نهاية شهر ماي 1348م وهذا بالنسبة للمريض إن كان ذكرا يتراوح عمره ما بين الرابعة عشر وإحدى وثلاثون أما إن كانت امرأة فيمكن إعطاؤها نفس الجرعات أو أكثر وهذا إن كان عمرها يتراوح ما بين الرابعة عشر والثلاثين ونصف (أي وستة أشهر) أما بالنسبة للرضع ممن هم في عامهم الأول فلا يُمنح لهم هذا المقدار.<sup>4</sup>

وبالتالي تبين عدم وجود علاج يقضي على هذا الداء وقد أكد أغلب الأطباء أن الشفاء لن يكون إلى بمشيئة الله، فأغلبهم كان يوصي مرضاه بالصلاة وطلب المغفرة من الله وقد أوصى الطبيب داجرامونت الأطباء بضرورة رفع معنويات المريض قبل البدء في العلاج وتشجيعهم على الاعتراف بخطاياهم<sup>5</sup> وحتى الطبيب شولياك الذي أُصيب بعدوى المرض أعزى شفاؤه إلى قدرة الإله وليس

<sup>1</sup> - ابن سينا، القانون في الطب، ج3، المقالة الأولى، ص.122.

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

Chipley Slavicker (L.),op.cit.,p.73.

de Chauliac (G.),op.cit.,p.p.172-173.

Aberth (J.), op.cit.,p.46,49.

Chipley Slavicker (L.),op.cit.,p.71.

لدوائه حيث يسرد قصة مرضه بقوله: "وأنا لتفادي العار لم أجراً على التغيب (يقصد الفرار من أفنيون بسبب الوباء) لكن مع الخوف المستمر تحرّزت قدر المستطاع، قمت بوقاية نفسي عن طريق العلاج الذي أوردته آنفا وبالرغم من ذلك أُصبت عند نهاية الوباء بحرارة مستمرة و دُملة عند أصل الفخذ وبقيت مريضاً لما يُقارب الستة أسابيع وكنت في خطر كبير حتى اعتقد كل أصدقائي أنني سأموت، لكن الخراج تقيحت وعالجتها كما قلت (سابقاً) ونجوت بقدرة الإله. بعدها في عام الستين وفي عهد البابا اينوسنت السادس حل بألمانيا وأجزاء من المناطق الشمالية وعاد الموت إلينا ... مع تورمات، خراجات ودُمّل يزداد حجمها شيئاً فشيئاً وفي بعض المرات يسترد عافيته، حتى أواسط عام 1361م ثم دام هذا الغضب أي الوباء نحو ثلاثة أشهر متتالية ولم يذر في العديد من المناطق إلا نصف السكان، وهو يختلف عن الوباء السابق في أن هذا الأخير قتل الكثير من الناس من بينهم الكثير من الأثرياء، النبلاء وعددا لا يُحصى من الأطفال وبعض النساء. خلال هذا الوباء جمعت وصنعت دواء ترياق... حُضر الدواء من ماء زهر الأريغارون شيخ الريع (scabieuse) وماء الورد مع قليل من الكافور، ويُأخذ كترياق وأقدمه مع مساعدة الرب تبارك اسمه قرونا بعد قرون".<sup>1</sup>

وهو نفسه ما أقر به ابن خاتمة حين تحدث عن وسائل بسط النفس واعتبر أنه "لا جليس أحسن من كتاب الله تعالى"، سعياً إلى توفير الإطمئنان للنفس وإلى ترويضها على القبول بالموت دون خوف أو وجل "ثم إنه ختم قائمته التي تخص ما يقتضيه التحرز من واجبات بملاحظة نهائية تحت عنوان "تنبيه" نبّه فيها إلى ضرورة التمسك بـ "مصباح الدنيا" دون التفريط في "مصباح الآخرة".<sup>2</sup>

في حين رأى بعض الأطباء أن أفضل طريقة لتفادي هذا الوباء هو الفرار من المنطقة الموبوءة، فالطبيب جاننل دافوليجانو أوصى الناس بمغادرة المناطق التي مسها الوباء والبقاء بعيداً عنها لمدة أطول، وقد اتبع العديد من سكان أوروبا نصيحة هذا الطبيب وهاجروا تاركين منازلهم وثرواتهم، ولكن هو لم يعمل بنصيحته وإنما بقي ببلدته بيروجيا (Perugia) يواجه الخطر، ملتزماً بواجباته تجاه مرضاه وتوفي بها في جوان من سنة 1348.<sup>3</sup> ونفس الشيء نجده لدى شولياك الذي ذكر أنه من باب الاحتياط لا يوجد أفضل من الفرار من المنطقة الموبوءة قبل الإصابة بالعدوى<sup>4</sup>

<sup>1</sup> - أنظر: de Chauliac (G.), op.cit., p.p.172-173.

<sup>2</sup> - ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، الأوراق 19-23، نقلاً عن بوجرة، المرجع، السابق، ص. 454.

<sup>3</sup> - أنظر: Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.p.80-81.

<sup>4</sup> - أنظر: de Chauliac (G.), op.cit., p.172.

وألّفونسو القرطبي هو الآخر صرح بأن أنجع علاج لهذا الوباء هو الفرار منه، لأن الوباء لا يلحق بالفارين أو أخذ الإحتياطات بقدر الامكان ضد أي عدوى تصيب لوازمهم<sup>1</sup>، في حين يتنافى هذا مع ما أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام حيث نهى عن الفرار من المناطق الموبوءة، والحقيقة أن ردود الأفعال لم تكن تستجيب دائماً إلى تعاليم السنة فقد كان من الناس من يفر من المدن فينقل المرض إلى البوادي والقرى<sup>2</sup>.

ويتبين أن المسلمين والمسيحيين كانوا متقاربين في نظرهم إلى وباء الطاعون وكان المسيحيون يزيدون على المسلمين اتحاذاً لأسباب الوقاية من العدوى إذ كانوا أشد خوفاً منها، لكن لم تكن لهم حيلة في آخر المطاف غير الدعاء بأن يرفع الله عنهم البلاء، والذي كان المسلمون يتلقونه مبدئياً بكثير من السكينة<sup>3</sup>، فالطاعون كان بالنسبة للمسلم شهادة ورحمة.

ولعل سبب عدم قدرة ونجاعة الأطباء في معالجة الطاعون راجع إلى اليأس من الوضعية فالوباء حصده ثلث سكان أوروبا في أربع سنوات (1347-1351م)، ضف أن مثل هذا الوباء لم يُشهد له مثيل عبر التاريخ وهذا ما جعلهم يجربون أي شيء بما في ذلك التقاليد الطبية المتوارثة دون أي فهم كلي أو ادراك لتشعبات اقتراحاتهم العلاجية، ثم أفضت الرغبة في تقصي العلاج إلى ميلاد مناهج وطرق علمية حديثة واحداث تغييرات في مجال الطب<sup>4</sup>.

#### IV- التطورات في ميدان الطب

##### 1-التغيرات في وسائل العلاج

يُقسم ممارسو الطب في مجتمع العصور الوسطى إلى أربع مجموعات :

المجموعة الأولى علماء الطبيعيات (Physicians): فهم يملكون شهادات جامعية ويفقهون في النظريات الطبية وعادة ما يكونون من رجال الدين، غير أن دورهم محدود في الاعتناء بالمرضى، أما المجموعة الثانية فهم الجراحون (suregeons) وهؤلاء صقلوا مهاراتهم بالتمرس ولهم دور أساسي في

Aberth (J.), op.cit.,p.46.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> -روز نيرجي برنار وحيد التركي، المجاعات والأوبئة، المرجع السابق، ص.206.

<sup>3</sup> - نفسه

Milli Gupta, op.cit., p.106.

<sup>4</sup> - أنظر:

الاهتمام ورعاية المرضى، وكُلفوا بجبر الكسور والفصد والكّي<sup>1</sup> أما ثالث مجموعة هي الحلاقين (Barbers) : وهم مختضون في إجراء الجراحات البسيطة كالفصد، ورابعاً ممارسي الطب الشعبي وهذا الفريق يشغله بصفة أكثر النساء<sup>2</sup>، لا يملكون رخصة لذلك ويمارسون مهنتهم غالباً في القرى الريفية ويقومون بكل شيء، ومعظمهم تعلم بحكم التجربة، وكانت لهم شعبية كبيرة<sup>3</sup>.

وبما أن كليات الطب فشلت في إيجاد العلاج أو حتى السبب الحقيقي للوباء، فإن أغلب الناس لجأوا إلى الجراحة كحل عملي وأجريت الكثير من التشريجات، وبفضل تنامي المعرفة اكتسب الجراحون احتراماً أكبر، ووطدت العديد من المستشفيات علاقتها بالأطباء والجامعات المحترمة، وكنتيجة لذلك تحسن التعليم الطبي بفضل تكثيف التعامل مع المرضى في مرحلة التبرص، كما تم كسب معارف أكثر في التشريح عن طريق مشاركة الجراحين في مناهج التعليم الطبية، وهذا غيّر نظام التعليم من الفلسفة إلى علوم الطب التطبيقية، حيث تم وضع الفرضيات وتسجيل الملاحظات واكتمل جمع النتائج، وكل هذا نبأ عن بداية طريق علمي ممنهج<sup>4</sup>.

ثم من بين التغيرات التي شهدتها ميدان الطب هو ترجمة المعارف الطبية إلى اللغة العامية وبرز الجراحين وظهور دور استشفائية جديدة وتغير في أنظمة التربية، تطور وظهور أدوار جديدة للمستشفيات، فقبل الوباء كانت المستشفيات تستخدم لعزل المصابين بدلاً من معالجتهم، فكان المريض عند دخوله المستشفى يعامل معاملة المحتضر ويتم التخلص من كل حاجياته، أما بعد الوباء فقد تم الإبقاء على غرف حجز المصابين في المستشفيات لكن مع السعي ومحاولة علاجهم حتى وإن كان العلاج في حد ذاته أسوأ من المرض، وهذا يسجل نقلاً نوعياً في دور المستشفيات، ومما استجد كذلك هو الحاق مكاتب طبية بالعديد من المستشفيات حتى يُتاح للأطباء الممارسين اكتساب معارف جديدة<sup>5</sup>.

وقد كان الأطباء يحتاطون عند معالجة المرضى وذلك بارتداء عباءة جلدية طويلة وتغطية وجوههم بأقنعة لها مناقير مثل العصافير، وقد صُممت تلك المناكير ليتم حشوها بالأعشاب البرية التي في

Milli Gupta, op.cit., p.p.102-103.

Herlihy (David), The Black Death and the transformation of the west ,p.71.

Ibid, p.103.

Milli Gupta, op.cit., p.107.

Ibid., p.107.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

اعتقادهم أنها تحميهم من الإصابة بالوباء، أما الطريقة الأخرى التي استعملها المعالجون هي تبخير الجو عند زيارة المريض<sup>1</sup>.

## 2 - تدابير المدن للحد من الوباء

أما المشرفين على المدن حاولوا من جهتهم السيطرة على هذا الوباء من خلال اتخاذ بعض التدابير الوقائية، ففي فلورنسا مثلاً وإثر وصول الوباء إلى المدينة في ربيع 1348م أمرت السلطات السكان بالحفاظ على نظافة منازلهم وكذا الأسواق والطرق، كما فرضت غرامة 500 ليرة على الزوار القادمين من المدن التي اجتاحتها الوباء مثل جنوة وبيزا، وبما أنهم كانوا على قناعة من أن الوباء تفشى بفعل الهواء الفاسد وأنه ينتقل من شخص لآخر كلفت السلطات فريقاً من المفتشين بمهمة تنظيف أحياء وحارات فلورنسا وإزالة كل ما ينقل العدوى إلى الأشخاص، أما بالبندقية فقد قامت حكومة المدينة بفرض حجر صحي لمدة أربعين يوماً على كل السفن كما أمرت بدفن كل ضحايا الوباء بعيداً عن وسط المدينة بالجزر غير المأهولة، ورغم هذه الجهود المبذولة للحد من الوباء إلا أنها لم تجدي نفعاً بل إن الطاعون قتل بهذه المدينة ما يقارب 60% من السكان، وبمدينة بيستويا (Pistoia) هي الأخرى لم تنفع اجراءاتها المتخذة، حيث أمرت أن توضع كل الجثث في صناديق من خشب قبل دفنها وذلك حتى لا تنبعث الروائح العفنة التي تلوث الهواء<sup>2</sup>. ويظهر أن أحدث طريقة طبقتها المدن للحد من انتشار الوباء تبقى محصورة في ما يُعرف بالحجر الصحي.

## 3-الحجر الصحي: (Quarantine)

الحجر الصحي هو حجز وعزل كل الأشياء التي يشتبه في أنها تحمل أمراضاً معدية، وفي الآونة الأخيرة يشير مصطلح الحجر الصحي إلى مدة العزل المفروضة على الأشخاص، الحيوانات أو الأشياء التي تنقل أمراضاً معدية، كما يعني حالياً فصل الأصحاء عن المصابين بداءٍ معدٍ حتى لا يقوم المصابون بنقل الوباء إلى الآخرين. وقد تبنت الشعوب منذ القدم استراتيجيات مختلفة لمنع انتقال المرض واحتوائه، ويعتبر العزل واحداً منها حيث كان يعزل المصابين بالجذام عن باقي الناس ويقيمون كذلك حتى توافيهم المنية، وظلت فكرة عزل المرضى كأجمع وسيلة للحد من انتشار الداء في ذلك

Kelly (K.),op.cit.,p.119.

<sup>1</sup> - أنظر:

عن شكل لباس الأطباء للاحتراز من الوباء عند معالجة المصابين أنظر الملحق رقم 11 ص.151.

Chipley Slavicker (L.),op.cit.,p.75,77.

<sup>2</sup> - أنظر:

الوقت، في حين وجدت استراتيجية أخرى وهي تحديد الوقت للتأكد من ظهور المرض، ففي القرن الخامس قبل الميلاد ذكر أبوقراط أن المرض الحاد يلزمه أربعين يوما ليتجلى، وإذا مرت أربعين يوما وتجلى المرض فذلك يعني أنه ليس بوباء وإنما مرض مزمن وحاد. أما عن الحجر الصحي فإنه متعلق بالوباء ويعود تطبيقه إلى سنة 1377م عندما أقدم مدير ميناء راغوزا (Ragusa) (صار تابعة إلى جمهورية البندقية، ويُطلق عليها اليوم دوبروفنيك (Dubrovnik) كرواتيا) البحري على عزل السفن القادمة من المناطق الموبوءة أو المشتبه فيها وإبقائها في الحجر أي راسية لمدة ثلاثين يوما قبل دخولها، وأطلق على هذه المدة كلمة ترانتينا (trentina)، وهي كلمة إيطالية مشتقة من كلمة (trenta) وتعني العدد ثلاثون، ثم أصبحت فترة العزل أربعين يوما بالنسبة للمسافرين برا، ربما لأن قصر المدة الزمنية السابقة لم تكن كافية للتأكد من وجود الوباء، ومن العدد أربعين باللغة الإيطالية (quaranta) اشتق مصطلح (quarantine) الذي يعني الحجر الصحي. علاوة على ذلك نصح رئيس الأطباء لمدينة راغوزا جاكوب أوف بادوا (Jacob of Padua) بإنشاء مكان خارج أسوار المدينة لمعالجة الموبوءين أو المشتبه في إصابتهم بالعدوى.<sup>1</sup>

ولم يرجع فرض الحجر إلى أسباب صحية فقط بل لأغراض اقتصادية أيضا لأن سلامة ونوعية البضائع التجارية تتطلب حمايتها من الوباء، وبهذا يُعتبر حكام راغوزا أول من وضع نظام قانوني هو الحجر يرمي إلى رعاية الشؤون الصحية والاقتصادية معا، ومن أهم المبادئ التي جاءت في هذا القانون (قانون راغوزا 1377م) : -يُمنع دخول الزوار القادمون من المناطق الموبوءة إلى مدينة راغوزا إلا بعد بقائهم في الحجر لمدة شهر. -لا يُسمح لأحد من سكان راغوزا الذهاب إلى منطقة الحجر. -لا يُسمح للأشخاص الذين لم يُوقع لهم المجلس الأعلى للعناية بالمرضى في الحجر أن يأخذوا الطعام للمعزولين. وفي 1423م أقامت البندقية ما يسمى (lazaretto) وهي محطة للحجر الصحي على جزيرة بالقرب من المدينة وقد أصبح هذا النظام مثالا اقتدت به باقي الدول الأوروبية لاحقا.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> -أنظر: Gian Franco Gensini, Magdi H. Yacoub, Andrea A Conti, **The concept of quarantine in history from plague to SARS**, Journal of Infection. 94, Published by Elsevier Ltd, Italy, 12 April 2004, p.p.258-259.  
<sup>2</sup> - أنظر: Ibid., p.259.

#### 4- انحسار الوباء

مع حلول عام 1352م انجلى الوباء عن معظم مناطق أوروبا باستثناء شمال غرب روسيا التي لم ينتهِ بها، إلا أنه عاود هجمته عام 1360م وهذا وفقا لما دونه الطبيب جي دوشوليك إذ قال " في عام الستين وفي عهد البابا اينوسنت السادس حل بألمانيا وأجزاء من المناطق الشمالية وعاد الموت إلينا ... حتى أواسط عام 1361م ثم دام هذا الغضب أي الوباء نحو ثلاثة أشهر متتالية ولم يذر في العديد من المناطق إلا نصف السكان وهو يختلف عن الوباء السابق في أن هذا الأخير قتل الكثير من الناس<sup>1</sup>.

تكررت زيارات الوباء لأوروبا منذ أواخر عام 1300 إلى 1600 م ولكنه لم يكن بنفس الضراوة التي جاء بها في منتصف القرن الرابع عشر، وعلى رغم من أن فرنسا عانت الكثير منه في فترات عديدة إلى غاية الوباء الذي ضربها عام 1720م، إلا أن الوباء الذي اجتاح لندن عامي 1665، 1666م يعتبر آخر أعظم ضربة قاصمة لأوروبا حيث قضى على قرابة السبعين ألف شخص، كما يعتقد بعض المؤرخين أن الحريق المهول الذي وقع بلندن في سبتمبر من عام 1666م وتسبب في حرق ثلاثة عشر ألف منزل هو نفسه الذي وضع حدا لنهاية الوباء وذلك باحراق الكثير من قوارض المدن الحاملة للوباء متبوعا باندلاع وباء آخر بالبحر المتوسط بميناء مارسيليا بفرنسا في 1722 وقد قدم العلماء والمؤرخون العديد من النظريات يُفسرون من خلالها أسباب عودة هذا الوباء<sup>2</sup>.

ورغم كل الاحتياطات والتدابير لم تستطع الدوائر الصحية الحد من انتشار هذا الوباء لأنها كانت تجهل السبب الرئيسي لحدوثه ولم يُعرف إلا في القرن التاسع عشر مع تطور الطب والتجارب العلمية.

#### 5- كشف الوباء من وجهة الطب الحديث

إثر وقوع الوباء الثالث (The Third Pandemic) بالصين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والذي ظهر بهونكونغ عام 1894م استقطب اهتمام العالم أجمع لأنه لم يمضِ الصين فقط بل شق طريقه إلى باقي دول العالم ووصل حتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية والتي لم يصل إليها فيما مضى الوباء الثاني (وباء القرن الرابع عشر)، فمر عبر الأطلسي ورسى بسان فرانسيسكو في 1899م، ولابد من الإشارة إلى أنه قبل أعوام من انفجار الوباء الثالث كان قد تأسس علم جديد

de Chauliac (G.), op.cit., p. 173.

Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.105.

<sup>1</sup> - أنظر

<sup>2</sup> - أنظر:

وهو الميكروبيولوجيا (microbiology) وكان التنافس في هذا المجال بين مدرسة لويس باستور (Louis Pasteure) ببافيا ومدرسة روبر كوتش (Robert Koch) ببرلين، وبعد انتشار نبأ اجتياح الوباء لهونكونغ عام 1894م هرع إلى هناك كل من الطبيب الياباني كيتاساتو (Shibasaburo Kitasato) ممثل المدرسة الألمانية، والطبيب السويسري ألكسندر يارسين (Alexander Yersin) نائبا عن المدرسة الفرنسية<sup>1</sup>.

وبعد بضعة أيام تمكن كلا الفريقين من ملاحظة الجرثومة العنوية المسببة للطاعون والتي أطلق عليها لاحقا اسم يارسينا باستيس (Yersina Pestis)(Y.Pestis) وكان تقرير يارسين أكثر دقة<sup>2</sup>، فيارسين ركز بحثه على الدممل أو الأورام وتمكن من عزل الجرثومة المسببة للوباء والتعرف عليها بعد أن وضع الدممل تحت المجهر، في حين ركز الطبيب الياباني كيتاساتو اهتمامه على فحص الدم<sup>3</sup> وقد تحدث يارسين عن هذا الاكتشاف في حوليات معهد باستور قائلا: "...قمنا بفتح التوايت عندها أزحت الجير لكشف الورم أو الدبيلة (Le Bubon)، وفي أقل من دقيقة استأصلته لأعود به على عجل إلى مخبري وهناك تحت المجهر تبينت للوهلة الأولى خليطا من الجراثيم المتماثلة وهي عبارة عن عصيات صغيرة وقصيرة ذات أطراف مستديرة"<sup>4</sup>.

وقد سمى يارسين هذه البكتيريا باستوريلا باستيس (Pasteurella pestis) على شرف معلمه لويس باستور، وباستيس (Pestis) هي اختصار من كلمة الوباء (pestilence) وفي الأعوام اللاحقة صار اسم العُصية يارسينا باستيس (Yersinia pestis) اعترافا بمكتشفها<sup>5</sup>، وبين عام 1894 إلى 1897م تمكن يارسين من تحضير أول مصل مضاد للطاعون لتلقيح المصابين بالعدوى الوبائية<sup>6</sup>، ولم يتمكن من تجربته بنجاح إلا في شهر جوان من سنة 1896م مع تفشي الطاعون مجددا

<sup>1</sup> - أنظر: Lester K.Little, Plague and the end of Antiquity, p.05.

<sup>2</sup> - أنظر: George Christakos, Ricardo A. Olea and others, Interdisciplinary Public Health

Reasoning and Epidemic Modelling: The Case of Black Death, Springer- Verlag Berlin Heidelberg, Netherlands, 2005, p.110.

<sup>3</sup> - أنظر: Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.27.

<sup>4</sup> - بوجرة حسين، الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص.471.

<sup>5</sup> - أنظر: Chipley Slavicker (L.), op.cit., p.27.

<sup>6</sup> - أنظر: Lester K.Little, Plague and the end of Antiquity, p.06.

في مدينة كانتون حيث قام بحقن المصاب بجرثومة الطاعون ذاتها لكنها ميتة لتدفع الجسم إلى خلق مضادات دفاعية حيوية، فوفر له لاحقا المناعة أمام وباء الطاعون <sup>1</sup>.

ولم يتم ضبط طريقة وصول وباء الطاعون إلى جسم الإنسان إلى غاية 1897 م أين وضع يارسين الأصبع على الدور الكبير الذي كان للفأر في نقل جرثومة الطاعون يارسينا باستيس (Yersina P.) من مكان إلى آخر ومن كائن حي إلى آخر وتحديدًا إلى الإنسان، فالفأر كما قال يارسين يُصاب بهذا الوباء عن طريق القاذورات الملقاة على الأرض فينتقل الوباء عن طريقه إلى الإنسان <sup>2</sup> ورغم ذلك لم يتوصل يارسين إلى تحديد كيفية انتقال وباء الطاعون من الفأر إلى الإنسان خاصة أن الوباء ينتقل حتى وإن كان الفأر قد نفق.

تم اماطة اللثام أخيرا عن كيفية انتقال وباء الطاعون من الفئران إلى الإنسان وذلك بفضل البحوث المخبرية للعالمين أوغاتا (Masanori Ogata) وسيموند (Paul-Louis Simonds) الذين نشرتا نظريتهما تبعا في سنة 1897 و 1898م وتقوم نظريتهما أساسا على أن انتقال وباء الطاعون يكون عن طريق البراغيث <sup>3</sup>، إذ قام سيموند بوضع فأرين في إناء أحدهما موبوء ومشرف على الموت والآخر سليم وفصل بينهما بسياج حديد مشبك منعا لاحتكاك أحدهما بالآخر، إلا أن بحال التنقل يبقى واردا بالنسبة للحشرات وخلال اليوم الخامس لنفوق الفأر الأول بدأت تظهر عوارض المرض على الفأر الثاني الذي مات في اليوم الموالي، وهو ما أقام الدليل على وجود طرف ثالث في العدوى من الحيوان إلى الإنسان فالعدوى لم تنتقل بالإحتكاك المباشر بل عن طريق ناقل آخر للعدوى لم يكن معروفا قبل حصول هذه التجربة، وهي البراغيث <sup>4</sup>.

أجرى سيموند وأوغاتا كل منهما أبحاثه على الوباء الذي عصف بالهند والصين وقاما بوصول بكتيريا يرسينا باستيس بحاملات غير بشرية وهي نوع من الفئران تُفضل العيش بالقرب من الإنسان كالفأر الأسود الذي يعيش في المنازل (Rattus rattus (R. rattus)، كما أخذوا نوعا من البراغيث الذي يعيش على ذلك الفأر وعلى الإنسان أيضا اسمها (X. cheopis cheopis).

<sup>1</sup>-بوجرة حسين ، المرجع السابق، ص.471.

<sup>2</sup>- نفس المرجع، ص.472.

<sup>3</sup>- أنظر: George Christakos, Ricardo A. Olea and others,op.cit.,p.110.

<sup>4</sup>- بوجرة حسين، المرجع السابق، ص.474.

Xenopsylla، ووضع البراغيث على جسم الفأر الموبوء وكشفا كيف أقدمت البراغيث على تلقي المرض من الفأر أولاً ثم نقل العدوى للإنسان.<sup>1</sup>

فالبراغيث من نوع (X. cheopis) هي من الطفيليات تعيش على أجسام حيوية أخرى وتتغذى على دمائها، وتعتبر هذه الأجسام مُضيفات لها، وهذا النوع من البراغيث يُهاجم أنواع متعددة من القوارض والثدييات ومُضيفاتها المفضلة هي فئران (R. rattus) وتستطيع العشرات من هذه البراغيث الاستيطان على فرو فأر واحد وامتصاص دمائه لتصبح بعد ذلك حاملة للوباء لأن هذا الفأر حُقن بجرثومة يارسينا باستيس أي موبوء، وفي ظرف وجيز تكاثرت بكتريا الطاعون بجسم برغوثة (X. cheopis) ونمت بجهازها الهضمي وتسببت في سد أمعائها<sup>2</sup>، مما جعلها توخر المضيف بشكل مريع على غير طبيعتها وذلك من شدة جوعها، لأن الانسداد في أمعائها منع وصول الدم ليتم هضمه، فتنتقل العدوى من البراغيث إلى المستضيف جراء الوخز، اذ تقوم البراغيث بنقل دمها الملوث بالبكتريا الطاعونية إلى الإنسان عن طريق وخزه، وهي لا تلجأ إلى الإنسان إلا عند عدم حصولها على مضيفها المفضل وهي القوارض<sup>3</sup>، فعند موت هذه الأخيرة فإن البراغيث تضطر للانتقال إلى مصدر آخر لتتغذى على دمائه وهو الإنسان وبمجرد الانتقال إليه فإنها تنقل المرض إليه خاصة اذا كان مجروحاً، حيث تبث دمها الملوث ببكتريا الطاعون في الجرح وتدخل البكتيريا عبر دم الإنسان فيصاب بالعدوى.<sup>4</sup>

يُضاف إلى هذا فعالية انتقال الطاعون عبر هذه البراغيث إذ أنها تستطيع العيش دون جسم يأويها ستة أسابيع على الأقل وهذه مدة كبيرة تمنحها فرصة التنقل مئات الأميال لإيجاد جسم جديد تعيش عليه وتسبب في نفس الوقت في نقل وباء الطاعون<sup>5</sup>، وبالتالي وباء الطاعون لا ينتقل من شخص لشخص وإنما ينتقل عبر البراغيث التي تستوطن الفئران المنزلية<sup>6</sup> ولعل هذا يؤكد ما ذهب إليها الأطباء المسلمون في القرن الرابع عشر كابن خاتمة وابن الخطيب اللذان أقرأ بالعدوى .

Chipley Slavicker (L.),op.cit.,p.28.

Idem.

George Christakos, Ricardo A. Olea and others,op.cit.,p.111.

Chipley Slavicker (L.),op.cit., p.p.28-29.

Ibid.,p. 29.

George Christakos, Ricardo A. Olea and others,op.cit.,p.111.

<sup>1</sup> - أنظر:

<sup>2</sup> - أنظر:

<sup>3</sup> - أنظر:

<sup>4</sup> - أنظر:

<sup>5</sup> - أنظر:

<sup>6</sup> - أنظر:

توصل العلماء إلى معرفة سبب وباء الطاعون الذي حدث في العصر الحديث وهو بكتريا يرسينا باستيس (Yersina P.) وقد اعتقد أغلب علماء الأحياء المجهرية والمتخصصون في الأوبئة أن يرسينا باستيس هي أيضا المتسببة في وباء جستينيان في القرن السادس الميلادي وكذا وباء القرن الرابع عشر، وهذا الاعتقاد تدعمه بعد تحاليل الحمض النووي القديم (aDNA) (ancient DNA)<sup>1</sup> التي أجريت على أسنان ضحايا وباء الطاعون بأوروبا الوسطى والعائدة إلى حقبة وباء جستينيان ووباء القرن الرابع عشر، وقد أسفرت نتائج التحليل عن وجود بكتيريا يرسينا باستيس بهما، علاوة على ذلك تم الكشف عن نفس البكتيريا في هياكل عظمية لمبوتوي الفترة القديمة في كل من ألمانيا وفرنسا وذلك باستخدام تقنية فحص التدفق الجانبي أو فحص شريط الاستشراب المناعي (immunochromatography)<sup>2</sup>.

ظلت التنقيبات والتجارب والتحليل جارية على مختلف الهياكل التي تعود إلى عهد جستينيان وكذا العائدة إلى فترة وباء القرن الرابع عشر، وبهذا قُطع الشك باليقين وخرج العلماء بنتيجة وهي أن الوباء الذي ضرب أوروبا خلال القرن الرابع عشر وحصد ثلث سكان أوروبا وتسبب في العديد من الأضرار في شتى الميادين سببه هو البراغيث الموبوءة التي تأويها الفئران والجُرذان خاصة السوداء أو فئران المنازل<sup>3</sup>.

وباستعمال وسائل حديثة تم الكشف عن وجود جرثومة يرسينا باستيس في هياكل ضحايا الوباء التي تعود إلى فترات سابقة للقرن الرابع عشر ولعل أهم تحقيق جدي وجدير بالثقة يعود إلى سنة 2010م من طرف هاينش (Haensch) وزميله، وقد أبرزت هذه الدراسة وجود جرثومة يرسينا باستيس في ثلاث مواقع مختلفة لمقابر ضحايا وباء القرن الرابع عشر، ناهيك عن التنقيبات

<sup>1</sup> - تُعتبر دراسة مسببات الأمراض القديمة (ancient pathogens) عن طريق رفاة البشر أمراً هاماً للتعرف على ماهية الأوبئة التي عرفت البشرية عبر القرون، لذلك يلجأ الباحثون إلى استعمال الحمض النووي القديم (ancient DNA) وهي تقنيات للبحث عن البصمات الوراثية لمسببات الأمراض في رفاة البشر. أنظر: Michael Knapp, The next generation of genetic investigations into the Black Death, vol. 108, no. 38, September 20, 2011.

<sup>2</sup> - أنظر: Stephanie Haensch, Raffaella Bianucci and others, Distinct Clones of Yersina pestis Caused the Black Death, PLoS Pathogens journal 6(10) University of Notre Dame, United States of America, October 7, 2010, p1.

<sup>3</sup> - أنظر: Kirsten Bos, Genetic Investigations into the Black Death, Ph D. Thesis, McMaster, University Anthropology, December 2011, p. 16.

والأبحاث التي أجريت بانجلترا اذ انتشلت هياكل عظمية من مقبرة (East Smithfield) <sup>1</sup> بلندن والتي تعود إلى أوائل سنة 1349م وقد دُفن بها ما يُقارب ألفين وخمس مائة شخص ما بين عامي 1348م إلى 1350م، وقد اكتشف علماء الآثار هذه الأرض عام 1980م وفقا لبعثة متحف لندن وخلال سنتي 1986، 1988م كللت أبحاث علماء الآثار بالعثور على 634 هيكلًا عظميًا، وتم نقل مجموعة هياكل منطقة (East Smithfield) إلى متحف لندن وهي محفوظة هناك اليوم واستقطبت أنظار العلماء لتحليلها <sup>2</sup>.

وبفضل العلم والتقنيات المتطورة تم الكشف أخيرا عن أسباب وباء الطاعون الذي اجتاحت أوروبا في عدة مناسبات وإمالة اللثام عن السر الذي حير العالم بأسره.

<sup>1</sup> - لاستيعاب الكم الهائل من ضحايا الوباء تم إنشاء مقابر جماعية لدفنهم فيها عبر كامل تراب أوروبا، وفي ظرف وجيز طغت على المقابر الرعوية المحلية (parish cemeteries) ومن بين هذه المقابر الجماعية مقبرة (East Smithfield) بلندن، التي أُقيمت أوائل سنة 1349م لغرض دفن ضحايا وباء الطاعون، ولا توجد دلائل على إعادة استغلال هذه المقبرة لدفن الموتى بعد نهاية موجة الوباء الأولى عام 1350م، وتعد East Smithfield واحدة من بين المقابر الجماعية القليلة التي تم التنقيب بها بأوروبا. للمزيد أنظر :

Sharon N. DeWitte and James W. Wood, Selectivity of Black Death mortality with respect to preexisting health, PNAS, February 5, 2008, vol. 105, no. 5, The National Academy of Sciences of the USA.

Kirsten Bos, op.cit., p. 17.

<sup>2</sup> - أنظر:

خاتمة

يُعتبر وباء الطاعون أو الموت الأسود من أشد الأمراض فتكا بالبشرية لسرعة انتشاره ومدة عدواه التي لا تتجاوز خمسة أيام، بل إنه في بعض الحالات يقتل المصاب في اليوم الواحد، وبهذا يرتفع عدد الضحايا بشكل مروع في ظرف وجيز، وينجم عن ذلك تكديس الجثث المتعفنة واكتظاظ المقابر الفردية، مما يُفضي إلى ضرورة استحداث المقابر الجماعية و التي انتشرت بشكل واضح خلال القرن الرابع عشر بأوروبا جراء الطاعون الذي اجتاحتها في هذه الفترة.

ومن جهة أخرى دوّن المؤرخون في حولياتهم تحاذل العديد من الناس في هذه النكبة، إذ تخلّى الأخ عن أخيه والأب عن ابنه والجار عن جاره، وحتى رجال الدين هناك من المؤرخين المعاصرين للوباء من شهد على تهاونهم في انجاز المهام المنوطة لهم، وعدوهم عن سمو الرسالة المكلفين بها، وذلك حين أعرضوا عن زيارة المحتضرين لمباركتهم وفقا لما تقتضيه تعاليم المسيحية، وهذا كله مخافة الإصابة بعدوى الطاعون .

فلمشهد المروع والمأساوي للوباء على حد وصف المعاصرين له يأخذنا إلى تشبيهه بيوم القيامة، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وفعلنا فقد اعتقد غالبية الناس بأوروبا في القرن الرابع عشر بأنها نهاية العالم وأن هذا الوباء عقاب من الله على خطايا بني البشر، وحاول الناس الهرب من الموت الأسود الذي خيم على أوروبا لكن دون جدوى فقد أدركهم أينما ذهبوا. والحقيقة في نظري أن الوباء هو بلاء من الله .

انعكس الوباء على الحياة الاجتماعية، الاقتصادية، الدينية وحتى الثقافية، فعلاوة على حصده لثلث سكان أوروبا فقد أُصيب الاقتصاد بالشلل لانعدام اليد العاملة التي غيّبها الموت تارة، وثبّط عزيمة من بقوا أحياء تارة أخرى، فلم يعد للحياة طعم بعد أن ألبسها الطاعون رداءه الأسود، وثم إن الوباء لم يقتل البشر فقط إنما الأنظمة أيضا، وأعني بذلك نظام الإقطاع الذي بُنيت عليه سيادة الملوك بأوروبا، فيظهر أن الإقطاع هو الآخر كان يُحتضر بسبب الوباء الذي قتل العديد من الفلاحين والعيبد من جهة، وفرار من بقي حيا منهم، ووفاة الأسياد من جهة أخرى، و ساهم هذا الوضع في تحرير الفلاحين ولم يعد هناك من يفرض عليهم سيادته، وبالتالي عجل الوباء بزوال الإقطاع بأوروبا.

أما دينيا فقد كشف الوباء عن التناقض الكبير الموجود في المجتمع وعدم ترسخ تعاليم المسيحية فمن جهة، أقر الناس بأن الوباء هو عقاب من الله على ذنوبهم، لكنهم لم يعملوا على إصلاح أنفسهم بما تقتضيه شريعتهم إنما ظهر من البدع ما فتن الناس وأدخلهم في عالم هيستيري، فظهرت جماعة تجوب المدن معلنة توبتها بطريقة أثارت امتعاض الكنيسة، إذ كان أفرادها يجلدون أنفسهم طيلة مسيرتهم ويقومون بطقوس من وحيهم، فجلب هذا أنظار الناس وصاروا يدخلون فيها أفواجا، ومع الوقت شكلت تهديدا للكنيسة خاصة حين باشرت بممارسة بعض مهام رجال الدين كالتبشير والإصغاء إلى اعترافات الناس، ومن جانب آخر أثبتت هذه الجماعة ضعف سلطة الكنيسة وعدم تحكمها في رعاياها، وبالأخص بعد حوادث القتل التي طالت طائفة اليهود في مناطق عديدة بأوروبا بتهمة التورط في نشر الوباء، وتبعاً لذلك تجاهل الناس قرار الكنيسة الذي يقضي بتبرئة اليهود وإلزامهم بعدم التعرض لهم والتنكيل بهم.

أما ثقافيا فقد أثر الفرع على نفسية الناس فخرجوا إلى الطرقات يترنحون مجسدين ما عُرف برقصات الموت، إذ تقوم إحدى النساء بتمثيل دور الموت أو الهيكل العظمي، ثم تدعو المشاركين في الموكب إلى مراقبتها، وقد تُعتبر هذه الرقصات محاولة منهم لتناسي ما خلفه الوباء من آثار مروعة.

وعلى صعيد آخر كان الوباء سببا في انتشار اللغات المحلية، ذلك أن العديد من الأطباء كانوا يكتبون باللغة التي يفهمها العامة لأن جل مقالاتهم الطبية كانت موجهة لتثقيفهم وتوعيتهم بالتدابير التحفظية والوقائية، كما كان للأدباء أيضا اسهام بالغ في ترسيخ اللغة المحلية التي كتبوا بها مؤلفاتهم التي تعكس الواقع المرير.

أما بخصوص حقيقة الطاعون فقد كشفت التجربة والتقنيات المتطورة في العصر الحديث ما لم يفلح فيه الأطباء في القرن الرابع عشر، فعلى الرغم من المجهودات المبذولة والتفاسير المبنية على علوم الفلك والطبيعة تارة، وعلى التجربة تارة أخرى، إلا أنّ أحدا لم يتوصل في تلك الفترة إلى حقيقة الطاعون الذي أفنى ثلث سكان أوروبا، فكل التفاسير التي أعزت الوباء إلى فساد الهواء دحضها العلم، فلا الهواء ولا الأجرام السماوية لها دخل في

حدوث وباء الطاعون الجارف، إنما سببه هو جرثومة لا تُرى بالعين المجردة ، تنقلها البراغيث التي تحتمي وتتخفى بفراء الفئران والجرذان من كائن إلى آخر.

فالبراغيث تحتاج دائما إلى بيت يأويها وإن نفق مستضيفها (القوارض) فإنها تضطر إلى التطفل على جسد يغذيها وهو الإنسان فتسبب بذلك في نقل الجرثومة والمريض إليه بمجرد وخزة منها، وقد أثبت العلم أن هذه البراغيث تلتصق بالملابس لذلك صدق الناس في القرن الرابع عشر حين تخوفوا من لمس أغراض الموتى المطعونين، كما صدق الأطباء في تلك الفترة عندما نصحوا بإيقاد النار في البيوت وتعطيرها بالروائح الزكية لأن البراغيث في الحقيقة تنفر من النار والروائح الطيبة، فالأطباء في ذلك الوقت لم يتعرفوا على السبب الحقيقي للوباء، إلا أن بعض التدابير الوقائية التي أوصوا بها كانت ذا فائدة بالفعل، ولكن جهل الناس أدى إلى حد ما إلى استئراء وباء الطاعون .

ثم إن العلم لم يكن متطورا ليرى الأطباء في ذلك الوقت مالا تبصره العين المجردة فهم لا يملكون مجاهر ترى الكائنات الدقيقة، ولكن على الرغم من ذلك نجد ابن خاتمة قد أشار إلى إمكانية وجود نواقل لا تُرى بالعين المجردة هي التي تنقل العدوى من شخص لآخر وهو ما أشار إليه بوكاتشو أيضا .

والأكيد أن الأطباء في القرن الرابع عشر لم يأتوا بالشيء الجديد بل اعتمدوا في الأصل على مخلفات الأطباء القدماء أمثال جالينوس وابن سينا، حتى أن الحجر الصحي لم يكن من ابتكار أطباء أوروبا بل يعود إلى المسلمين، يكفي أن نبينا أوصى بعدم إيراد الأصحاء على المصابين بالطاعون ونهى عن الفرار من الوباء حتى لا ينتقل إلى مناطق أخرى ويُصيب أفرادا أكثر، أما أوروبا فيرجع الفضل لها فقط في ابتكار الحجر البحري حيث كان لإيطاليا سبق في هذا المجال، ليعرف هذا النظام تطورا أكبر في القرون اللاحقة .

ثم لا يحق لأحد أن يعيب على الأطباء في تلك الفترة أي شيء في ظل انعدام الأجهزة والتقنيات المتطورة ويكفي أنهم بذلوا جهدهم لإيقافه سواء بالتدابير الوقائية أو العلاجية، إلا أن مشيئة الإله كانت أقوى، ثم إننا اليوم أرقى علما وتكنولوجيا وأدق بحثا وبالرغم من ذلك لم نجد لبعض الأمراض المستعصية دواءً، ولعل أقرب مثال هو مرض الإيبولا

الذي تفشى كوباء الطاعون في الآونة الأخيرة وهو يحصد العديد من الضحايا دون أن يتوصل علماؤنا بما أتاحت لهم من وسائل متطورة في معرفة سببه وإيجاد دواء له.

وبالرغم من كل الأزمات التي مرت بها أوروبا خلال القرن الرابع عشر، من حروب وضوايق اقتصادية وظروف معيشية مزرية والأوبئة الفتاكة بما فيها وباء الطاعون الأسود، إلا أنها استفاقت على حياة جديدة وكأنما الموتان محى جيلا وأنتج جيلا جديدا ينبض بالأفكار المستنيرة والطاقة المتجددة، ويحمل أفكارا إصلاحية وإبداعية تجسدت في القرن الخامس عشر فتمهد الطريق لبزوغ فجر النهضة الأوروبية التي برزت مظاهرها في القرن السادس عشر.

ولهذا أقول أن العصور الوسطى المتأخرة بأوروبا كانت فعلا ولادة عسيرة تمخض عنها إنجاب جيل من المفكرين والمصلحين والمبدعين في شتى ميادين الحياة، نعم إنه الفرد الأوروبي الذي لا يموت مادامت يملك روح الإرادة، يحيا ليطور أفكاره ويبحث عن حلول تكفي الأجيال القادمة شر تجرع ما ذاقه آبائهم وأجدادهم من ويل نكبة الطاعون في القرن الرابع عشر.

ولعل ما لمسته وما يؤسف هو أن الغرب دائما رائدون في البحث فقد كُتبت المئات من الكتب ونُشرت العديد من المقالات والبحوث العلمية حول الطاعون الجارف بأوروبا، وعلى الرغم من أن أغلبها يكرر وينقل على الآخر لكن مع ذلك لم يتوقفوا عن الكتابة والتنويه بما خلفه من دمار بأوروبا، بل إن التنقيبات الأثرية والتحليلات المخبرية لهياكل ضحايا الطاعون لم تتوقف وكانت ولا زالت قيد البحث، وهذا ما يختلفون فيه عنا فنحن طويلا صفحة الطاعون وأهملناه كإهمال الكتب والمخطوطات النفيسة في رفوف المكتبات .

الملاحق



صورة توضح أعراض الطاعون بحجم البيضة عند أصل الفخذ

**Chipley Slavicek( Louise),** the Black Death Great Historical Disasters, Chelsea House Publishers, New York, 2008, p.27.



تمثيل الطاعون في صورة هيكل عظمي يرشق المصاب برمح

Chipley Slavicek( Louise),op.cit.,p.67.



لوحات تُجسد العذراء وهي تصد سهام الطاعون عن المحتمين بها

**DesOrmeaux (Anna L.),** A Thesis ,The Black Death and its effect on Fourteenth and Fifteenth Century, Century Art,Louisiana Sate University,2007 ,p.p.91-92.



ضريح فرونسوا دو لاسارا (François de la Sarra) المدفون بكنيسة لاساراز (La Sarraz) بسويسرا كنقلة  
نوعية في فنون الدفن (Transi tomb)

DesOrmeaux (Anna L.),op.cit.p.49.



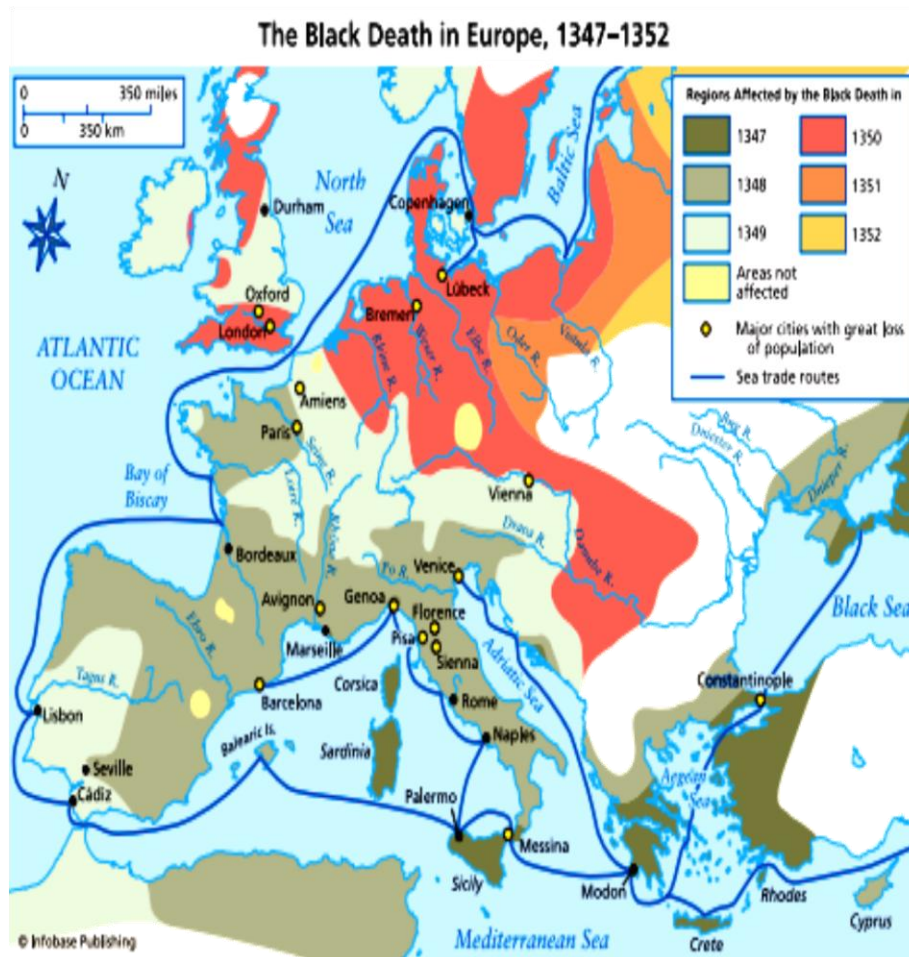
لوحات تُجسد رقص الموت

DesOrmeaux (Anna L.),op.cit.p.70.



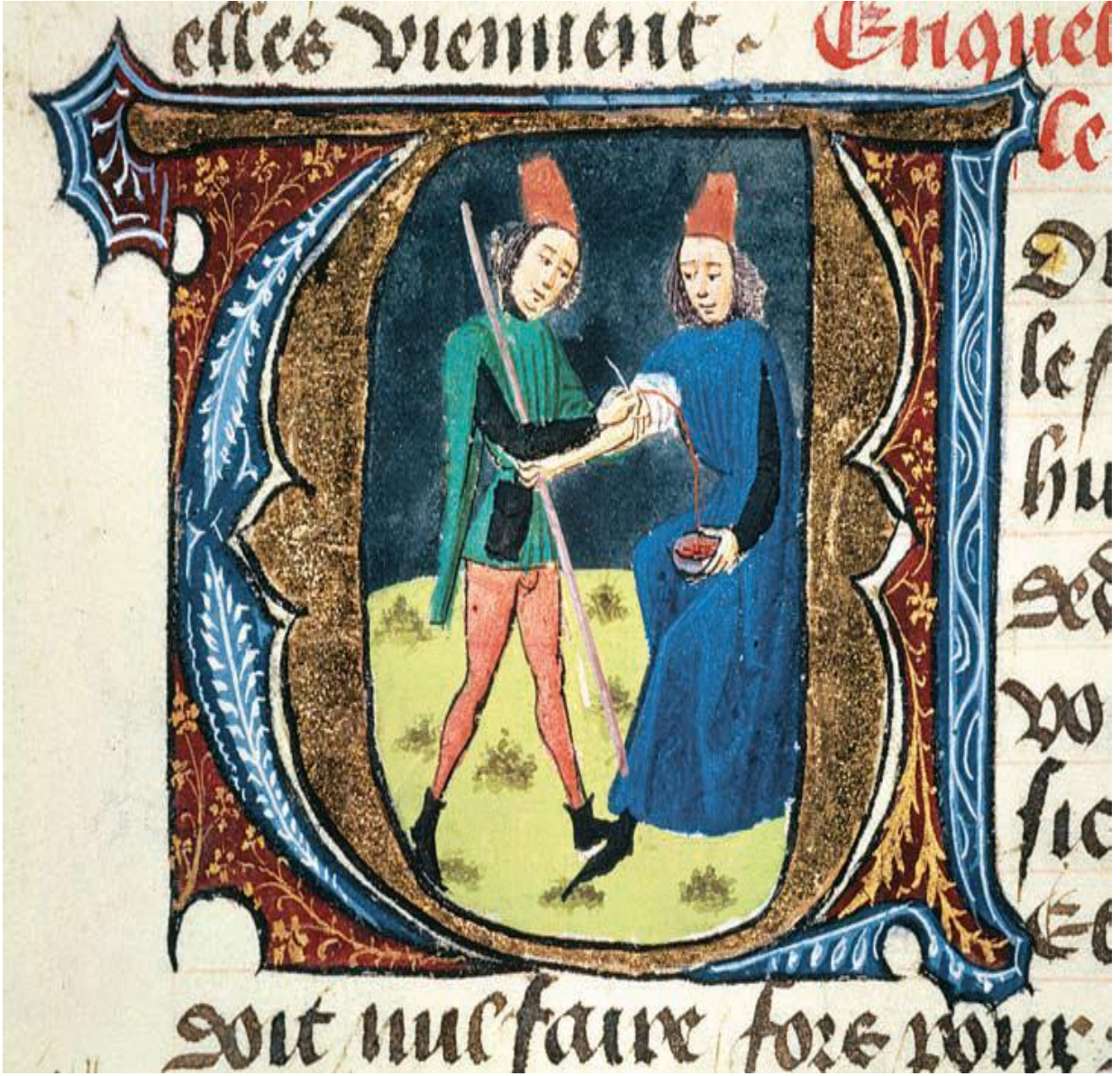
خريطة توضح خط انتقال الوباء و انتشاره شرقا وغربا

Andrew Jotischky and Caroline Hull, The Penguin Historical Atlas of the medieval world, penguin books ,London,2005,p.121.



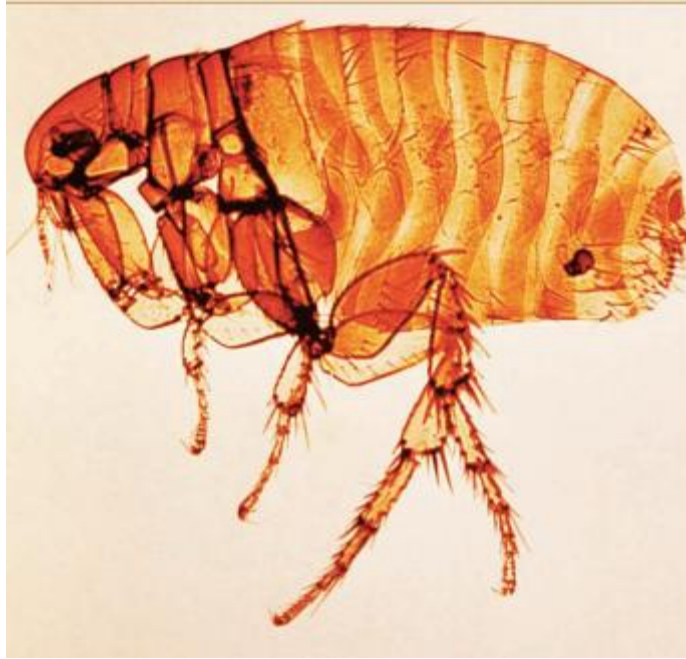
انتشار الوباء بأوروبا ما بين عام 1347م إلى 1352م.

ChipleY Slavicek( Louise),op.cit.,p.08



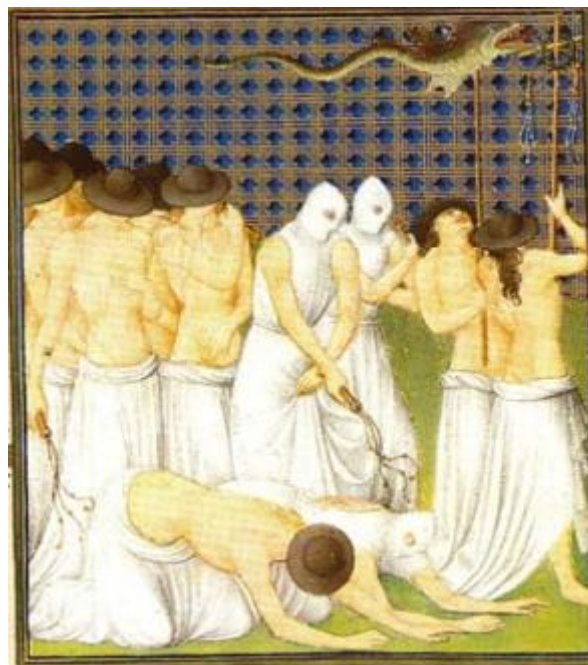
صورة توضح معالجة الأطباء للمصابين بالطاعون عن طريق عملية الفصد

Chiplew Slavicek( Louise),op.cit.,p.74.



صورة للبرغوثية الناقلة لوباء الطاعون

ChipleY Slavicek( Louise),op.cit.,p.34.



السايطون (Flagellants)

DesOrmeaux (Anna L.), op.cit., p.p.58-59.



صورة لباس الأطباء المعالجين للمصابين بالطاعون خلال القرن السادس عشر والذي أطلق عليهم اسم : الغراب.

Chiple Slavicek( Louise),op.cit.,p.70.

# فهرس الأماكن والأعلام

## فهرس الأماكن

-أ-

- أبوليا: 69، 93.  
أجريتنتو (مدينة) 62.  
أراغون: 24، 29، 49، 64، 78، 110.  
أرل: 63.  
اسبانيا: 42، 64، 75، 78، 88، 109.  
أستريا: 65، 68، 82.  
إستريا: 65.  
أسطنبول 49.  
اسكتلندة: 16، 20، 26، 42، 65..  
الإسكندرية. 50.  
اسكندينا فيا 26، 42.  
إشبيلية 50.  
إفريقيا 49، 50.  
أفنيون 36، 40، 41، 42، 54، 63، 66.  
إكس لاشايل 100، 101.  
أكسبورغ 79.  
إكستير 88.  
أكتانيا 14، 19.  
الألب 65، 99.  
ألمانيا 26، 29، 49، 52، 63، 65، 75، 82، 78، 94، 133.  
ألميرية. 47، 64، 121.  
أميان 64.  
الأناضول 50.  
أناني 38.  
إنجلترا. 15، 16، 18، 19، 20، 21، 23، 28، 29، 30،  
33، 34، 35، 36، 40، 42، 43، 52، 63،  
66، 69، 75، 76، 87، 88، 89، 90، 94، 104.  
الأندلس 28، 47، 49.  
أنطاكية 49.  
أوترخت 101.  
أورفيتو 91.
- أورليان 20 .  
إيرلندة 49، 90.  
ايساكس 34.  
ايسلاندا 65.  
إيطاليا 24، 14، 24، 28، 38، 40، 42، 49، 50، 52،  
63، 65، 74، 99، 103، 108.  
البحر الأحمر: 59.  
البحر الأسود: 49، 60، 62.  
بلاد أزيك (أزبكستان) 49.  
جزيرة إلبا 62.  
شبه الجزيرة الإيبيرية 23، 24، 50، 64 .  
أندري (كنيسة القديس) 94.

-ب-

- باث 66، 90.  
بادوا 125، 93، 52.  
باردي 29.  
باري 42.  
باريس. 14، 19، 33، 64، 69، 85، 91، 99، 101،  
108، 109، 112، 115، 116، 117، 130.  
بازل 52، 65، 79.  
بافاريا 65.  
بحر البلطيق 24، 25، 92، 26.  
برابانت 92.  
براغ 99.  
براندانبورغ 92.  
البرتغال 28، 62، 123.  
برشلونة. 27، 24، 28، 49، 64، 88.  
برلين 130.  
بروج. 32، 30.  
بروسيا 65، 92.  
بروفانس 14.  
بريتاني 17، 64.

|                                               |                                               |
|-----------------------------------------------|-----------------------------------------------|
| تورناي. 64، 69.                               | بريستول 66.                                   |
| توسكانيا 62، 95.                              | بريطانيا 49.                                  |
| تولوز 41، 63.                                 | برينر 65.                                     |
| -ث-                                           | بغداد 49، 59.                                 |
| ثورنجيا 82.                                   | سان بياترو (كنيسة) 98.                        |
| -ج-                                           | بلجيكا 101،                                   |
| جاسكوني 19، 20، 28، 64.                       | بلنسية 49، 64.                                |
| جنوة 24، 29، 61، 62، 69، 96، 111، 127.        | البندقية 24، 52، 62، 65، 69، 72، 91، 93، 127، |
| جونيف. 65.                                    | 128،                                          |
| جيرونة 64، 76.                                | بواتو 14، 21، 64.                             |
| -ح-                                           | بواتيه. 21، 33.                               |
| حلب 49.                                       | بوتزن 65.                                     |
| -خ-                                           | بورديو 21، 28، 39، 63.                        |
| بلاد الخطأ 49.                                | برغنديا 17، 63، 95.                           |
| -د-                                           | بوفيه. 32، 33.                                |
| الدغمارك. 49، 52، 65.                         | بولا 65.                                      |
| دوبروفنيك. 138،                               | بولندا 26، 30، 52، 62، 78، 79، 92.            |
| دورسشير 66،                                   | بولونا 28، 52، 99، 108.                       |
| دوفون 66،                                     | بومرانيا 92.                                  |
| -ر-                                           | بيدفورد 34.                                   |
| راغوزا 91، 129، 130.                          | أرض بيرة 49.                                  |
| الراين. 14، 28، 65، 77، 102، 99.              | بيروجيا. 111، 124.                            |
| روان 33،                                      | بيزا 52، 62، 91، 128.                         |
| روزيك 33، 32.                                 | بيستوايا 127.                                 |
| روسيا 30، 62، 63، 129.                        | بيكاردي 33، 63.                               |
| روما 28، 36، 39، 40، 41، 42، 52، 71، 98، 101. | الجزر البريطانية 26.                          |
| البحر الروماني 49.                            | جزر البليار 62، 64.                           |
| الجزر الرومانية. 59.                          | -ت-                                           |
| جزر البحر الرومي. 50.                         | بَرّ التركية 49.                              |
| الرون 14، 40، 63.                             | تاراجونة 64.                                  |
| -س-                                           | تاريغا 77، 78.                                |
| سافوي. 76.                                    | تراباني 62.                                   |
| سان دوني 64.                                  | ترانت 65، 97.                                 |

سان فرانسيسكو 129.

ستراسبورغ 65، 80، 83، 86، 101، 106،

سراي 59، 60.

سردينيا: 24، 62، 64.

سرقسطة 64،

سرقوسة 62،

سكنديناويا 43،

سلايس 20.

سليسيا 52،

سوريا 50، 93، 108،

سوساكس 34،

سوفولك 34،

سومرسات 66.

السويد 63، 65.

سويسرا: 65، 77، 78، 95.

سيكاكا 62،

سيسينا 62،

حوض نهر السين 14،

سينا 40، 69، 70، 91، 96.

-ش-

بلاد الشام 49.

شتوتغارت 79.

شيماني 28، 30، 33.

شيستر 90.

شيشير 35.

-ص-

صقلية 24، 50، 62، 64، 69، 76، 89، 112.

الصين 49، 59، 129.

-ط-

جبل طارق 65.

طليطلة 108.

جبال طوروس 59.

-ع-

العدوة 50،

عراق العجم 49.

شبه الجزيرة العربية 59.

-غ-

غانت 31، 32، 33.

غرينلاند 66.

-ف-

فرانكفورت 65.

فرانكونيا 82.

مدينة الفَرَمَا 50،

فرنسا 15، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24،

26، 27، 29، 30، 31، 32، 33، 34،

40، 39، 37، 36، 41، 42، 49، 52، 62، 63، 65،

69، 75، 76، 85، 88، 90، 94،

98، 100، 108، 129، 133.

الفلاندرز 14، 17، 20، 25، 28، 30، 31، 32، 33،

65، 85، 92،

فلورنسا 28، 29، 33، 52، 55، 62، 73،

127، 116، 103، 99، 92، 91.

فولغوراد 61

فولدا 75.

فيان 40.

فيرونا 65.

فيينا 75، 99، 108.

-ق-

قبرص 62.

القدس 85،

قرطبة 75، 79، 113.

شبه جزيرة القرم 60،

القسطنطينية 108، 59، 51، 49.

بحر قزوين 49، 59.

قشتالة 20، 24، 28، 30، 49، 62، 63، 93،

-ك-

حصن قفا كافا (Caffa) 49،60،61.  
كالي. 21، 22، 66، 92،  
كامبريدج 108،99.  
كانت. 34،35.  
كانتيري 99،105،106،89،87،35،66.  
كانتون 131.  
كاسل 31،  
كانوسا. 38،  
كتالونيا 75،54،27،  
كتانيا 70، 75، 76،  
كرواتيا 128،  
كريسي 21.  
كورتراي 30.  
كورسيكا 62،64.  
كورنوال 100.  
كولونا. 65، 92، 101،  
كونستانس 43،44.

-ل-

لاردة. 110.  
لافوديو. 94،  
لانجدوك 75،27،63 .  
لمبارديا. 30،92.  
لندن. 35، 129، 134،  
لنكولن 66، 75،  
اللوار 14، 27، 28.  
ليموج 23،  
ليون 39، 95.  
لييج 101.

-م-

مايوركا 50،62.  
متز 101،  
مرسيليا 63،62،129،

مسينا 50،62،70، 71، 75،

مصر 49،59.

المغرب. 50،

الاراضي المنخفضة 28،

موسكو. 66،

مونبلييه 63،113، 115.

ميلانو 28.

المليدي 33،

ميورقة. 50، 66،

-ن-

نابولي 52، 111.  
نافار 23، 25، 62،  
نربون. 25،63،76.  
النرويج 65،  
نورفولك 34،  
نورمادي. 17، 19، 20، 21، 25،63،64،33.  
نوريش 88.

-ه-

هامبورغ 69.  
هنجاريا (البحر). 49، 65، 79، 82، 99 .  
الهند. 59.  
هولندا 65.  
هونكونغ 130.

-و-

الولايات المتحدة الأمريكية 139.  
ويلز 87،90.  
وينشيستر 88.

-ي-

يبرس 27،69.

يورك 66.

يورك شير 35.

اليونان 49،50.

## فهرس الأعلام

103،96،102،73،77،57،55،54 بوكاتشو.

116،104.

بونيفاس الثامن، 36، 37، 38، 39،

بونيفاس التاسع، 42،

بيروجينو 97.

-ت-

التار 60.

ابن تغري بردي 49

تيتان 97.

تيتوريو 97.

-ج-

جاك الصالح 32.

الجاكري 32، 90.

جاكوب اوف بادوا 128.

جالينوس 108، 109.

جانتل دا فوليجانو 111، 112، 120، 122، 123،

124،

جان دارك 22.

الجبليين 23.

البابا جريغوري الحادي عشر 41.

جستينييان 50، 51، 71، 133.

الجلفيين 23،

جون الثالث و العشرون 42،

جون بال 35،

جون ويكليف 44، 90،

جي دو شوليك 52، 56، 63، 109، 112، 119،

123، 125،

جيوتو 95،

جيوفاني ديلا بينا 112،

-خ-

-أ-

أبقراط 108، 109، 128.

أتيان مارسيل 32،

أجنولو دي تورا 69، 72، 73،

إدوارد الثالث 19، 20، 63، 66، 104، 29، 31،

الدومينيكان 63،

القديسة أغاثا 70.

ألفونسو العاشر 75،

ألفونسو الحادي العاشر 24، 64.

ألفونسو القرطبي 113، 118.

الكسندر الخامس 42،

ألكسندر يارسين: ، 130، 131

إليانور 19.

الأمير الأسود 21، 23.

أناستازيا الكاردينال 42،

انريك كونت تراستمارا 25.

أوربان الخامس 41.

أوربان السادس 42.

أوغاتا 131.

إيرين 97.

إيزابيل 19.

اينوسنت السادس 124.

-ب-

بالتزار 42،

بارنبا مودينا 96،

بتارك 106،

برنارد سيست 36،

بندكت الثالث عشر 43،

بندكت السادس عشر 39،

بيدرو الرابع 78.

بيدرو القاسي 24.

بينديتو 96.

ابن خاتمة الأنصاري. 47، 48، 50، 54، 113، 119،  
120، 124، 132.  
ابن الخطيب 114، 132.  
ابن خلدون: 109، 54.

#### -د-

داجرامونت. 110، 112، 118، 120، 122، 123.  
دال سارتو 97.  
دال كاستاغنو 97.  
دانتى 23، 37، 38، 106.  
الداوية 39.  
الدومينكان. 88.  
ديوقليسيانوس 97.

#### -ر-

رالف شريوز بوري. 87.  
روبر كوتش. 130،  
روبرت دو جونييف. 42،  
روين هود 90.  
سان روك. 97.

#### -س-

سباستيان 71، 98، 97.  
سالرنو 108.  
سيجموند 43،  
ابن سينا 112، 116، 111، 108.  
سيموند 131 .  
سينو 106.  
سينوتشيو. 106.

#### -ش-

شارل الرابع. 18.  
الإمبراطور شارل الرابع. 79، 85، 86، 99.  
شوسر. 43، 102، 105، 104.

#### -غ-

غابريال دي موسي 54، 60، 61، 80،  
غريغوار. 71،

#### -ف-

فرايتشيلي. 89،  
فرانسيسكو دافوليكانو 112،  
فرنسوا دو سارا. 95،  
الفرنسيسكان 89.  
فرواسار 23، 70.  
فريدريك 72،  
فيليب الثالث الحسور 18 .  
فيليب الرابع 15، 19، 18، 29، 30، 36، 38،  
فيليب الخامس. 17 .  
فيليب السادس 17، 19، 27، 18، 31، 86، 112،  
فيليب فالوا 18، 64،

#### -ق-

قسطنطين الإفريقي 108،

#### -ك-

كاترين (القديسة) 40.  
كاسمير الثاني 79.  
كانتاكوزان 69، 58.  
كلمنت الخامس. 39.  
كلمنت السادس 86، 85، 78، 77، 78، 69، 92، 91،  
كلمنت السابع 42.  
عائلة كولونا 43، 38.  
كيتاساتو 130.

#### -ل-

لسان الدين بن الخطيب. 47، 56،  
لورا 106،  
لولارد 89،

-ه-

هنري الثاني. 19.  
هنري الرابع. 38.  
هاينش 133، ( Haensch )

-و-

وات تيلر 35.  
ابن الوردي 47، 49، 56،  
وليم السابع 108.  
وليم نوغاري 38.

-ي-

يوحنا دو فايي 85.

لويس باستور. 130.

لويس سانكتوس. 57.

لويس العاشر. 18، 64.

لويس دو نيفرس 31، 32.

لويس أوف مال. 32.

-م-

ماتيو فيلاني 54،  
مارتن الخامس 43،  
مانتيجنا 97.  
مانفرد ملك صقلية 86،  
مرتم العذراء 71، 97.  
المغول 60، 62، 63،  
المقريري. 55.  
سان ميشال 97.  
ميشال دي بياز 62، 64، 71.

قائمة المصادر

والمراجع

## أ- المصادر العربية:

-ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت.874هـ / 1469 م .)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج.10، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1992.

-ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (ت.856هـ / 1452 م .)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج.10، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د.ت.ط.

-ابن خاتمة أحمد بن علي الأنصاري (770هـ/1368م.)، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (مخطوط)، نقلا عن بوجرة حسين، الطاعون وبدع الطاعون :الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير (1350-1800)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2011.

-ابن خاتمة، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط نشر: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة و تراجم ونصوص، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

-ابن الخطيب السلماي\_أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت.776هـ/1374م) ، مقنعة السائل عن المرض الهائل، نشر: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة و تراجم ونصوص، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

-ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت.808هـ/1405م)، المقدمة، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، 2006.

-الرازي أبو بكر محمد بن زكريا (ت.312هـ/924م.) ، الحاوي في الطب، ج.17، دائرة المعارف العثمانية، 1964.

-الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت.666هـ /1267م.)، مختار الصحاح، المكتبة الكلية، مصر، 1329هـ.

ابن سينا أبو علي (ت. 427هـ/1035م.)، القانون في الطب، الجزء الثالث، المقالة الأولى، مطبعة القاهرة، 1294هـ.

- ابن قيم الجوزية شمس الدين (ت. 751هـ/1350م.)، الطب النبوي، تحقيق الشيخ أحمد بن محمد آل نبعه، مؤسسة المعارف، بيروت-لبنان، 2003.

- ابن منظور، (ت. 711هـ/1311م.) لسان العرب، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت-لبنان، 1997.

- المقرئ أحمد بن علي (ت. 845هـ/1441م.)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج. 04، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

- النووي محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف (ت. 676هـ/1277م.)، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: محمد سيد عبد رب الرسول، ج. 13، دار الإمام مالك للكتاب، الجزائر، 2006.

- ابن الوردي زين الدين عمر (ت. 749هـ/1348م.)، تنمة المختصر في أخبار البشر، الجزء 2، المطبعة الوهبية، مصر، 1285هـ.

## **ب- المصادر العربية:**

أليجيري دانتى: الكوميديا الإلهية، الجحيم، ترجمة حسن عثمان، الطبعة 03، دار المعارف، القاهرة، 1950.

بوكاتشو جيوفاني، الديكاميرون، ترجمة صالح عثمان، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا-دمشق، 2006.

## ج - المصادر الأجنبية:

- Alighieri**( Dante),the De Monarchia,translation and notes by Aurelia Henry,  
the Riverside Press, Cambridge, 1904.
- **Boccaccio( Giovanni)**,the Decameron,introduced by Henry Morley,George  
Routledge and Sons,6<sup>th</sup> edit, London ,1889.
- **Da Pizza (Michele)**,Chronicle, translated and published by Aberth John, the  
Black Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with  
documents,Bedford series in history and culture, U.K.,2005.
- **De Chauliac Guy**,la Grande Chirurgie,édit.Félix Alcan,Paris,1890.
- **De' Mussis Gabriele**, Historia de Morbo,translated and published by Horrox  
Rosemary, the Black Death, Manchester University Press and New York.
- **De Venette( Jean)**,chronicle, translated and published by Aberth John, the Black  
Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with documents,Bedford  
series in history and culture, U.K.,2005.
- **Di Tura (Agnolo)**,Sienese Chronicle, , translated and published by Aberth John,  
the Black Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with  
documents,Bedford series in history and culture, U.K.,2005.
- Froissart**, Chronicles,Translated by Geoffrey Brereton, Penguin Books,Great  
Britain, 1968.
- L'abbé **Gayet( Louis)**,Le Grand Schisme d'Occident,t.01,Florence,1889.
- **Gregoras (Nicephorus)**, Byzantine History,published by Aberth John, the  
Black Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with  
documents,Bedford series in history and culture, U.K.,2005.
- **Kantakouzenos( John VI)** ,History of Byzantine Empire 1367-1369, translated  
and published by Aberth John, the Black Death, The Great Mortality of 1348-  
1350,a brief history with documents,Bedford series in history and culture,  
U.K.,2005.

- **Ole J.(Benedictow)**, The Black death 1346-1353 The Complete History ,The Boydell Press,Woodbridge-U.k.,2004

-**Petrarch**,the sonnets,triumphs and other poems,Sonnet XIX,translated by variaus hands, George Bell and Sons,york street,London,1857.

-**Sanctus Louis**, letter April 27,1348, , translated and published by Aberth John, the Black Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with documents,Bedford series in history and culture, U.K.,2005.

- **Walsingham( Thomas)**, The Chronica Maiora (1376-1422) , Trans . by David Preest ,The Boydell Press ,Woodbridge –U .K. ,2005.

#### د- المراجع العربية:

-بوجرة حسين ،الطاعون وبدع الطاعون :الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والأمير(1800-1350)،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، 2011.

-الخطابي محمد العربي ،الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة و تراجم ونصوص، ج2، دار الغرب الإسلامي ،بيروت،1988.

-فرح نعيم، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، منشورات جامعة دمشق، سوريا،1995.

#### هـ- المراجع المعربة:

-روز نبرجي برنار و التريكي حميد ،المجاعات والأوبئة في مغرب القرنين 16 و17م،ترجمة عبد الرحيم حُزل منشورات دار الأمان،الرباط،2011.

-كونتامين فيليب وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام منذ بداية القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ج2، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، باريس، 1995.

-كين موريس ، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، الطبعة 02، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2000.

-بيرين هنري ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ترجمة وتحقيق عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1996.

## و- المراجع الأجنبية

**Aberth( John)**, The Black Death, The Great Mortality of 1348-1350,a brief history with documents,Palgrave Macmillan, U.S.A.,2005.

**Adrien (Philippe)**,Histoire de la Peste noire(1346-1356) d'après des documents Inédit et augmentés,édit. a la direction de la publicité Médicale,Paris,1853.

**Allmand( Christopher )**,Society at war : The experience of England and France During the Hundred Year war, the Boydell Press,Woodbridge-U.K.,1998.

**Bennett (Matthew) and Hooper ( Nicholas)**, The Cambridge Illustrated Atlas of Warfare : the Middle Ages 768-1487, Cambridge University Press, Great Britain, 1996.

**Borghesi (Peter)**, Boccaccio and Chaucer,Nicholas Zanichelli, Bologna, 1903.

**Byrne( Joseph Patrick)**,

-The Black death,GreenWood Press,London,2004.

- Daily life during the black death, The Greenwood Press, London,2006.

**Canning (Joseph)**, A History of Medieval Political Thought 300-1450, Routledge, London and New York, 1996.

**Canning( Joseph) , and others** ,Power ,Violence and mass death in Pre-modern times, Cornwall- Great Britain,2004.

**Cannon (Christopher)**,The riverside Chaucer,Oxford University Prss,3<sup>rd</sup> édit,UK,2008.

**Chester Jordan (William)** ,The Great Famine, Northern Europe in the early Fourteenth century , Princeton University Press, New Jersey-U.K., 1996.

**Chiple Slavicek( Louise)**,The Black Death Great Historical Disasters,Chelsea House Publishers,New York,2008.

**Cunningham (Lawrence) and Reich (John)**, Culture and Values :A Survey of the humanities, Seventh Ed., Cengage Learning, U.S.A., 2010.

**Curry (Anne)**, The hundred years' war 1337-1456,Routledge, New York, 2005.

**Christakos (George), Olea (Ricardo A.) and others**,Interdisciplinary Public Health Reasoning and Epidemic Modelling:The Case of Black Death , Springer-Verlag Berlin Heidelberg, Netherlands,2005.

**Daileader (Philip)**, The Late Middle Ages, the Teaching Company,USA,2007.

**Deanesly (Margaret)**, A History of the Medieval Church 590-1500, Ninth Ed. , Routledge, London and New York, 1969.

**Deborah**,Joan of Arc and the Hundred Years War, Greenwood Press, London, 2005.

**DesOrmeaux (Anna L.)**, A Thesis, the Black Death and its effect on Fourteenth and Fifteenth Century, Century Art,Louisiana State University,2007.

**Devries( Kelly) and Smith (Robert)** ,Medieval Weapons , An illustrated History of their impact, Santa Barbara, California-U.S.A.,and Oxford-England, 2007.

**Duruy(Victor)** ,Histoire du Moyen Age depuis la chute de l'Empire d'Occident Jusqu'au milieu du XV<sup>e</sup> siècle,14<sup>em</sup> Edition, Librairie Hachette,Paris,1896.

**Franceschi( Franco )et Taddei (Ilaria)**,Les villes d'Italie du milieu de XIIe Au milieu de XIV Siècle : Economies,Sociétés,Pouvoirs, Cultures,Bréal.2005.

**Garcia-ballester( Luis), French (Roger), Arrizabalaga( Jon) and other,** Practical other, Practical medicine from Salirno to the Black death, , Cambridge University Press, Cambridge, 1994.

**Gasquet (Francis Aidan),** the Black Death of 1348 and 1349, 2<sup>nd</sup> edit., George Bell and sons, London, 1908 .

**Gerlings (Rebecca) and Woolf (Alex),** Ancient and Medieval History,  
Arcturus Publishing Limited, London, 2008.

**Gottfried( Robert S.),** The Black death Natural and Human Disaster in Medieval Europe Free Press édition, New York, 1985.

**Greighton (M.),** A History of Papacy from the great schism to the sack of Rome, VOL.01, Longmans, London, 1919.

**Hamilton( Wylie James),** The Council of Constance to the death of John Hus, Longmans, London, 1900.

**Hecker (G.F.C.),**

- The Black death and the dancing mania, translated by Babington (B. G.), Cassel's National Library, London , 1888.

- The Black Death in the Fourteenth century, translated by Babington (B. G.) , London, 1833.

**Herlihy (David),** The Black Death and the transformation of the west, edited by Samuel K. Cohn, Harvard University Press and Cambridge , London-England, 1997.

**Hirshleifer ( Jack),** Disaster and Recovery The black death in the western Europe, édit. The Rand corporation, California – U.S., 1996.

**Holmes( George),** Europe Hierarchy and Revolt , 1320-1450, Second Edition, Blackwell Publishers , Oxford – United Kingdom , 2000.

**Horrox (Rosemary),** the Black Death, Manchester University Press and New York.

**Hirshleifer (Jack),** Disaster and recovery : The Black Death in Western Europe , the RAND Corporation , Santa Monica-California, 1966.

**Janice E. Thomson**, Mercenaries, Pirates, and sovereignss: State-Building and Extraterritorial Violence in Early Modern Europe, Princeton University Press, USA, 1994.

**Jones (Michael)** , The New Cambridge Medieval History, Vol. VI 1300-1415, Cambridge University Press, , UK 2008.

**Kelly (Kate)**, The history of the Medicine The Middle Ages: 500–1450, Facts On File, New York, 2009.

**Lester( K.Little)**, Plague and the end of Antiquity: The Pandemic of 541-750, Cambridge University Press, U.K., 2007.

**Locke( Clinton)**, The Age of the Great western schism, California, 1897.

**Marvin( Perry) and others**, Western Civilization : Ideas , Politics and Society , Ninth Ed., Boston- U.S.A., 2008.

**Mode (Peter George)** , The Influence of the Black Death on the English Monasteries, The University of Chicago Libraries, 1916.

**Nicolle (David)**, campaign Crécy 1346, triumph of the longbow, Osprey publishing, Great Britain, 2002.

**Postan (M.M.) and Miller (Edward)**, The Cambridge economic history, Vol. 2, 2nd éd., Cambridge University Press, London, 2008.

**Rouche (Michel)**, Clovis histoire et mémoire Clovis et son temps, , Presse de l'Université de Paris-Sorbonne, 1997.

**Tytler (James)**, A Treatise on the Plague and Yellow Fever, 1799.

## الموسوعات :

**Andrew Jotischky and Caroline Hull**, The Penguin Historical Atlas of the medieval world, penguin books ,London,2005.

**Chester Jordan (William)**,The middle ages,Vol.02, American Council of Learned Societies,USA,1996.

**Corèdon (Christopher) and Williams (Ann)**,A dictionary of medieval terms and phrases, D. S. Brewer, Cambridge, 2004.

**Drees (Clayton J.)**,The Late Medieval Age of Crisis and Renewal 1300-1500: A Biographical Dictionary, Greenwood Press,London,2001.

**Knight( Judson)**,Encyclopedia of Middle Ages Biographie,vol.01, Library of Congress, U.S.A.,2001.

**Société de savants et de Gens de lettres**, La Grande Encyclopédie, des science, des lettres et des arts, Paris ,sans date.

**Wagner (John)**,Encyclopedia of the Hundred Years War, Greenwood Press, London , 2006.

## الدوريات

- باروك خوليو فالديون، **الوباء الأسود في القرن الرابع عشر**، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون:البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007
- بينادو سانتايا رفايل ، **أصول الدولة الحديثة**، ترجمة إسحاق عبيد، ملتقى حول ابن خلدون :البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 2007.

- سولا إميليو ،البحر المتوسط المركز الحيوي للقرن الرابع عشر،ترجمة إسحاق عبيد،ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، قيام وسقوط إمبراطوريات،مكتبة الإسكندرية،القاهرة،2007.

-كونتامين فيليب ، حرب المائة عام،ترجمة إسحاق عبيد،في ابن خلدون :ملتقى حول ابن خلدون: البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات،مكتبة الإسكندرية،القاهرة،2007.  
-العبادي حسام مختار ، وباء الطاعون في المشرق،ملتقى حول ابن خلدون :البحر المتوسط في القرن الرابع عشر قيام وسقوط إمبراطوريات،مكتبة الإسكندرية،القاهرة،2007.

**Bos Kirsten**,Genetic Investigations into the Black Death, Ph D. Thesis, McMaster University Anthropology, December 2011.

**Bourin Monique, Giovanni Cherubini, Giuliano Pinto (a cura di)**,  
- *Rivolte urban e rivolte contadine nell'Europa del Trecento*, Firenze university press, Italy,2008.

**DeWitte (Sharon N) and Wood (James W.)**,Selectivity of Black Death mortality with respect to preexisting health, P.N.A.S., vol. 105, no. 5, The National Academy of Sciences of the USA,February 5, 2008.

**Frances Vanneste Sarah**,The Black Death and the Future of Medicine, WayneState University Theses,paper 29,2010.

**Gelpi Armand P.**, Saint Sebastian and the Black Death,,Vesalius, N 04,1988.

**Gensini Gian Franco, Magdi H. Yacoub, Andrea A. Conti**, The concept of quarantine in history from plague to S.A.R.S., Journal of Infection. 94,Published by Elsevier Ltd,Italy, 12 April 2004.

**Gupta Milli**,The black death: catastrophe or new start?, in the proceedings Of the 13th Annual history of medicine days,edited by Whitelaw (William A.) , University of Calgary , March 2004.

**Haensch (Stephanie), Bianucci (Raffaella) and others**, Distinct Clones of Yersinia pestis Caused the Black Death, PLoS Pathogens journal 6(10): University of Notre Dame, United States of America, October 7, 2010.

**Hanley James and Elizabeth Turner** , Age in medieval plagues and pandemics :Dance of Death or Pearson's Bridge of life ?, june2010.

**Knapp (Michael)**,The next generation of genetic investigations into the Black Death, vol. 108, no. 38, September 20, 2011.

**Retief Francois and Louise P. Cilliers**,The epidemic of Justinian (AD 542): a prelude to the Middle Ages,*Acta Theologica*, Vol.26:2, 2006.

**Tsiamis Costas, Effie Poulakou and Eleni Petridou**,The Red sea and the Port of Clysma A possible Gate of Justinian's Plague,Gesnerus,Swiss Journal,66/2,2009.

**Waller John**,looking back:Dancing Plague and mass hysteria,the British Psychological Society, The Psychologist,vol.22,No7, U.K,july 2009.

**Wheelis Mark** ,Biological Warfare at the 1346 siege of Caffa,Emerging Infectious Diseases,N 09,Atlanta ,September 2002.

# فهرس الموضوعات

|                                                                                   |       |
|-----------------------------------------------------------------------------------|-------|
| مقدمة.....                                                                        | أ-ز   |
| <b>الفصل الأول:</b> لمحة عن الأوضاع العامة لأوروبا اللاتينية خلال القرن 14 م..... | 14-44 |
| <b>I-الأوضاع السياسية لأوروبا اللاتينية في القرن الرابع عشر</b> .....             | 15    |
| 1- في فرنسا وإنجلترا.....                                                         | 15    |
| 2- حرب المائة عام.....                                                            | 20    |
| 3-الأوضاع السياسية بإيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية.....                           | 23    |
| أ-إيطاليا.....                                                                    | 23    |
| ب- شبه الجزيرة الإيبيرية.....                                                     | 24    |
| <b>II-الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية</b> .....                                    | 25    |
| 1-المجاعة الكبرى 1315-1322م.....                                                  | 26    |
| 2-الثورات الشعبية.....                                                            | 30    |
| أ-الفلاندرز.....                                                                  | 30    |
| ب - ثورة الفلاحين (Jacquerie) بفرنسا.....                                         | 32    |
| ج -ثورة الشيومبي (ciompi) بفلورنسا.....                                           | 33    |
| د-حركة التوشين (Tuchins):.....                                                    | 34    |
| هـ -ثورة الفلاحين بإنجلترا.....                                                   | 34    |
| <b>III-الأوضاع الدينية:</b> .....                                                 | 36    |
| 1-النزاع بين الملك فيليب الوسيم والبابا بونيفاس الثامن:.....                      | 36    |
| 2-حادثة أناني (Anagni).....                                                       | 38    |
| 3-بابوية أفنيون :.....                                                            | 39    |
| 4-العودة إلى روما والانشقاق الديني الكبير.....                                    | 41    |
| 5-الانشقاق الديني الكبير (The Great western schism).....                          | 41    |
| 6-مجمع كونستانس ونهاية الإنشقاق الديني:.....                                      | 43    |
| <b>الفصل الثاني:</b> ظهور وباء الطاعون وانتشاره بأوروبا اللاتينية.....            | 45-67 |

|                                                                        |        |
|------------------------------------------------------------------------|--------|
| I-التعريف بوباء الطاعون وأنواعه.....                                   | 46     |
| 1- التعريف بوباء الطاعون.....                                          | 46     |
| أ- لغة .....                                                           | 46     |
| ب- اصطلاحا .....                                                       | 46     |
| 2-تعريف وباء الطاعون من وجهة الطب الحديث.....                          | 48     |
| 3-منشأه .....                                                          | 49     |
| 4-أسبابه.....                                                          | 51     |
| 5-أعراضه.....                                                          | 55     |
| 6-أنواع الطاعون.....                                                   | 57     |
| أ-الطاعون الرئوي(The Pneumonic Plague) .....                           | 57     |
| ب -طاعون الغدد اللمفية أو الطاعون الدبلي (The Bubonic plague).....     | 58     |
| ج -الطاعون الدموي (The Septicemic Plague).....                         | 59     |
| II -انتقال وباء الطاعون إلى القارة الأوروبية.....                      | 59     |
| 1-طرق انتقاله إلى أوروبا .....                                         | 59     |
| 2-انتشار الوباء بمدن أوروبا :.....                                     | 62     |
| أ-إيطاليا.....                                                         | 62     |
| ب -فرنسا.....                                                          | 63     |
| ج -إسبانيا.....                                                        | 64     |
| د -الأراضي الإسكندنافية . .....                                        | 65     |
| هـ -انجلترا.....                                                       | 66     |
| <u>الفصل الثالث: انعكاسات الوباء على الأوضاع العامة بأوروبا.</u> ..... | 68-106 |
| I-انعكاسات وباء الطاعون على الجانب الاجتماعي.....                      | 69     |
| 1-أثر الوباء على المجتمع الأوروبي.....                                 | 69     |

|         |                                                                        |
|---------|------------------------------------------------------------------------|
| 74      | 2-أثر الوباء على الأقلية اليهودية.....                                 |
| 80      | II -الإنعكاسات الدينية للوباء.....                                     |
| 80      | 1-المعتقدات الدينية ومرض الطاعون.....                                  |
| 81      | 2-حركة التوايين السائطين(Flagellants).....                             |
| 84      | 3-رد فعل الكنيسة والنبلاء وعامة الناس.....                             |
| 87      | 4-تأثير الوباء على المؤسسات الدينية.....                               |
| 90      | III- انعكاسات الوباء على الجانب الاقتصادي.....                         |
| 90      | 1-الزراعة.....                                                         |
| 92      | 2-الصناعة والتجارة.....                                                |
| 93      | IV-انعكاسات الوباء على الجانب الفني ،الثقافي والأدبي.....              |
| 93      | 1- الجانب الفني.....                                                   |
| 98      | 2-الجانب الثقافي.....                                                  |
| 102     | 3- الجانب الأدبي.....                                                  |
| 134-108 | <u>الفصل الرابع: التدابير الوقائية والعلاجية لمجابهة الطاعون</u> ..... |
| 108     | I-الطب والكتابات الطبية في القرن الرابع عشر.....                       |
| 108     | 1-الطب والأطباء في القرن الرابع عشر.....                               |
| 109     | 2-المقالات الطبية حول وباء الطاعون في القرن الرابع عشر.....            |
| 110     | أ- المقالات اللاتينية.....                                             |
| 113     | ب-المقالات العربية.....                                                |
| 114     | II-التدابير الوقائية.....                                              |
| 117     | 1-الحمية الغذائية.....                                                 |
| 119     | 2-النوم.....                                                           |
| 119     | 3-مقر الإقامة.....                                                     |
| 120     | 4-المعنويات والحالة النفسية:.....                                      |

|     |                                   |
|-----|-----------------------------------|
| 121 | III- الطرق العلاجية               |
| 121 | 1- الفصد                          |
| 123 | 2- الترياق                        |
| 125 | IV- التطورات في ميدان الطب        |
| 125 | 1- التغيرات في وسائل العلاج       |
| 127 | 2 - تدابير المدن للحد من الوباء   |
| 127 | 3- الحجر الصحي                    |
| 129 | 4- انحسار الوباء                  |
| 129 | 5- كشف الوباء من وجهة الطب الحديث |
| 136 | خاتمة                             |
| 141 | الملاحق                           |
| 153 | فهرس الأماكن والأعلام             |
| 161 | قائمة المصادر والمراجع            |
| 173 | فهرس الموضوعات                    |